منشورات
جامعة بيرزيت
مركز دراسة وتوثيق المجتمع الفلسطيني

صفحات من الذاكرة الفلسطينية

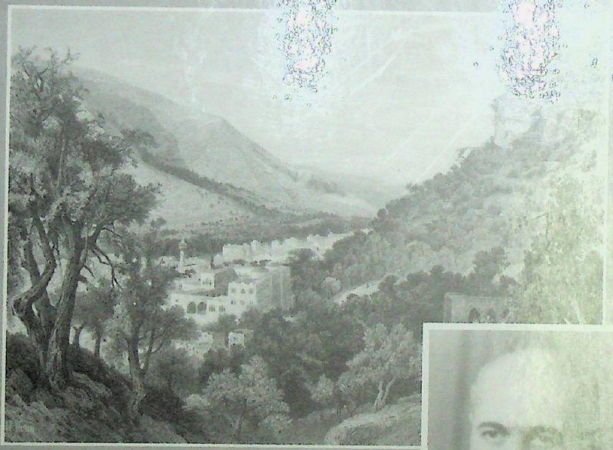

تذكرات د. حاتم كمال / نابلس

اشراف وتقديم
د. صالح عبد الجواد

Digitized by Birzeit University Library

C.3
B24
Acc. # 73891

مركز دراسة وتوثيق المجتمع الفلسطيني

صفحـــات من الذاكـــرة الفلسطينيـــة

رقم ٦

SPC
DS
126.3
.K3
A3
946
Z4
=54033

تذكرات
حاتم كمال

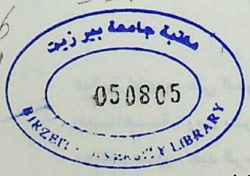

إشراف وتقديم
د. صالح عبد الجواد

كانون ثاني/ يناير ١٩٩٥

Digitized by Birzeit University Library

* صدر عن مركز دراسة وتوثيق المجتمع الفلسطيني

المراسلات: مركز دراسة وتوثيق المجتمع الفلسطيني
ص.ب. ١٤ بيرزيت
جامعة بيرزيت
فاكس : ٩٥٦٤٢٨
تلفون : ٩٥٧٨٤٢-٢-٩٧٢

المراسلات من الوطن العربي :

جامعة بيرزيت - مكتب الارتباط
ص.ب. : ٩٥٠٦٦٦
فاكس : ٨٢٧٢٠٢
عمان - الاردن

تدقيق لغوي : علي الخواجـــــا
طبـــاعـــة : ربى بـربـــــار
مونتاج صور : عبد الرحيم المدور

صورة الغلاف : نابلس ١٨٨٢ بريشة الرسام ويلسون .

حقوق الطبع محفوظة لجامعة بيرزيت ١٩٩٤

Digitized by Birzeit University Library

المحتويات

تقديم مدير المركز	١
مقدمة د. حاتم كمال	٧
طفولة حاتم كمال وعائلته	٩
مدرسة النجاح الوطنية	١٥
سلمت من الجيش البريطاني ولم أسلم من والدي	٢٤
سنوات الدراسة الجامعية	٢٩
العودة إلى نابلس	٣٨
الزواج	٤٣
الرحيل من حي البقعة الفوقا (القدس) عام ١٩٤٨	٤٥
من تجارب الطب البيطري في عهد الانتداب	٤٩
معركة جنين ودور الجيش العراقي	٦٦
مبايعة الملك عبدالله	٦٨
ذكريات من أمريكا	٧٢
سنوات الخدمة مع الأردن	٧٦

Digitized by Birzeit University Library

ذكريات عن المناضل بسام الشكعة	٩١
العمل في الكويت	٩٥
العودة إلى الأردن	١٠٦
قصتي مع المخابرات العراقية والسورية	١١٣
احتلال نابلس في حزيران ١٩٦٧	١٣٠
أول مجابهة مع ضابط الزراعة الاسرائيلي	١٣٢
مواقف لبعض ضباط الاحتلال	١٤٦
دورة دراسية في المملكة المتحدة	١٥٦
تعلم اللغة العبرية	١٦١
ثلاث شخصيات عرفتها	١٧١
تعييني مديراً للخدمات البيطرية	١٧٥
عروض رفضتها	١٨٩
التقاعد والتكريم	١٩٥
ملاحق	٢٠٦
صور ووثائق	٢١٣

Digitized by Birzeit University Library

تقديم

إن جمع التذكرات الشفوية وتوثيقها عمل هام للغاية، فهو يحفظ خبرات وتجارب كانت ستغيب في طيّ النسيان. ويكتسب هذا العمل أهمية إضافية في المجتمعات التي تقل فيها عملية التدوين والتأريخ كحال مجتمعنا، وتترك الأمور اعتماداً على ذاكرة بدأت تفقد الكثير من مواقعها في عصر احتل فيه التلفزيون والفيديو المكان الذي شغلته الذاكرة الشعبية عبر القرون حيث كانت الروايات تتناقل من جيل إلى جيل في المضافات والدواوين والبيوت .

وتذكرات الدكتور حاتم كمال التي ننشرها اليوم هي الحلقة السادسة من مشروع " صفحات من الذاكرة الفلسطينية " التي ينفذها مركزنا منذ ثلاث سنوات. ويهدف هذا المشروع إلى الإسهام في عملية توثيق بعض جوانب التاريخ الفلسطيني الحديث والمعاصر، اعتماداً على ذكريات شخصيات كان لها دور في أحد مجالات الحياة الفلسطينية، حيث يتذكر الشخص مراحل حياته المتعاقبة، وتداخلات سيرته الذاتية مع ما دار حولها من أحداث وتطورات بحيث تكون نافذة على المجتمع من الزاوية التي يحتلها الراوي .

وفي حالتنا هذه، تكون التذكرات فرصة نادرة للإحاطة بأحوال الطب البيطري في فلسطين خلال ثلاثة عهود: الانتداب، والحكم الأردني، والاحتلال الإسرائيلي، وذلك على لسان رجل عمل طيلة حياته باخلاص لأداء عمله في هذا المجال منذ أيار ١٩٤٢ وحتى تقاعده في مطلع عام ١٩٨٦، على أكمل ما يكون العمل حتى اعتبر " شيخ الأطباء البيطريين ".

وخلال هذه الأعوام تقلب على الرجل حكومات، ووزارات، وحكام عسكريون ومدنيون، وجاب فيها فلسطين طولاً وعرضاً بالإضافة إلى الأردن والكويت .

Digitized by Birzeit University Library

وقد يبدو غريباً لأول وهلة أن نطرق هذا الموضوع، وهناك العديد من القضايا والمسائل ذات الطابع السياسي والتاريخي التي قد تكون أكثر أهمية وإلحاحا من موضوع الطب البيطري، غير أن ندرة الحديث عن هذا الموضوع، كان وراء اختيار مدير المركز السابق الزميل الدكتور علي الجرباوي للدكتور حاتم كمال ليكون محور التذكرات التالية الصادرة عن المركز .

إلا أنه من الغبن، أن نعتقد أن كتابنا هذا ينحصر في الحديث عن هموم البيطرة وفنونها في فلسطين والأردن. إذ يجد قارىء هذه التذكرات صفحات حميمة عن نابلس ورجالاتها خلال العقود الأربعة التي سبقت النكبة، وعن معالم المدينة وحاراتها والحياة فيها، والكثير عن مدرسة النجاح الوطنية ومدرسيها، وعن طلاب جاءوا إليها من المغرب العربي تبوأوا فيما بعد مكانة مرموقة في مجتمعاتهم .

بعد مدرسة النجاح يرحل بنا صاحب التذكرات إلى دراسته الجامعية في بيروت والقاهرة، ثم يتحدث بالتفصيل عن تجاربه في حقل الطب البيطري كما خبرها في عهود الانتداب البريطاني، والحكم الأردني، والاحتلال الإسرائيلي، حيث يلحظ القارىء - دون عناء - البصمات الواضحة للدكتور حاتم كمال على تطور هذه المهنة في فلسطين عبر أربعة عقود ونيف، كما يتعرف على مواقف شجاعة تم اتخاذها دفاعاً عن مصلحة المهنة ونقائها .

كما يستعرض د. كمال جولات له في الكويت، والولايات المتحدة، وبريطانيا، ويتحدث عن شخصيات فلسطينية وعربية ويهودية هامة، كانت له معها ذكريات مشتركة، أمثال بسام الشكعة، وقدري طوقان، والشيخ عبد الحميد السائح، وطاهر يحيى، وفريد زين الدين، وبنيامين اليعازر وغيرهم .

وهذه التذكرات غنية جداً بالصور الفوتوغرافية التي تتدرج مع الدكتور

Digitized by Birzeit University Library

حاتم كمال خلال رحلته الطويلة طفلاً ثم فتى يافعاً وتلميذاً في المدرسة، وعضواً في فرقة الكشافة، ثم طالبا جامعيا فطبيبا بيطريا، ثم زوجاً وأباً، ومندوباً في العديد من المؤتمرات، إضافة إلى اشتمالها على لوحة فنية نادرة تمثل مدينة نابلس في القرن التاسع عشر .

ليس ما يجده القارىء في هذه التذكرات، هو كل ما كتبه ورواه صاحبها، فقد رأى المركز وانطلاقاً من سياسته العامة، وأهدافه في نشر التذكرات، الطلب، وأحياناً بالحاح، إلى د. حاتم كمال، حذف واختصار ما اعتبرناه إغراقاً في التفاصيل ذات الطابع الشخصي، وكذلك ما يبديه صاحب التذكرات في مواضع عديدة من مشاعر ودية تجاه إسرائيليين رسميين .

كما ويلفت الانتباه في التذكرات أن صاحبها، وهو الشاهد على أحداث كبرى مرت على الشعب الفلسطيني، إبان الانتداب والهجرة اليهودية المكثفة، ونكبة عام ١٩٤٨، والتطورات السياسية العاصفة إبان الحكم الأردني، ثم زلزال الاحتلال الإسرائيلي عام ١٩٦٧، أنه قد رأى أن يسرد تذكراته في كثير من الأحيان، معزولة عن تفاعل هذه الأحداث وأثرها المباشر الكبير، خاصة الاحتلال الإسرائيلي على حياة الشعب الفلسطيني السياسية والاجتماعية والاقتصادية، بما في ذلك مجال تخصص الدكتور، الثروة الحيوانية.

ويفسر الدكتور حاتم كمال موقفه هذا في التذكرات نفسها، بأنه ليس سياسياً، وإنما رجلٌ رأى أن يخدم وطنه عبر تكريس كل جهده وخبراته لإتقان عمله، والدفاع عن دائرته ومحيطه التخصصي، عازلاً ذلك عن الإطار العام .

إن المركز وهو يقدم هذه التذكرات للقارىء لعلى ثقة بأنها ستضيىء له جوانب لم تكن معروفة سابقاً في حقل البيطرة في فلسطين، وكذلك ملامح عن الحياة في نابلس عبر نصف قرن، من خلال هذه الشهادة التي أدلى بها صاحب

Digitized by Birzeit University Library

التذكرات. وكما هو الحال مع كافة التذكرات التي صدرت عنا، فان المركز أتاح الفرصة لصاحبها للتعبير عن وجهة نظره، التي لا تعكس بالضرورة وجهة نظر مركز الأبحاث وأفكاره. وإنما تتحول بعد نشرها ملكاً للقارىء كي يحكم عليها، ويسرنا بالتأكيد أن نتلقى الملاحظات والآراء حول هذا العمل المشترك بين الجامعة والمجتمع، لنوليها الاهتمام الذي تستحق، ونأخذها بعين الاعتبار في أعمالنا المقبلة .

وأود في ختام هذا التقديم أن أشكر الأستاذ علي الخواجا الذي قام بمراجعة المادة وتدقيقها لغوياً، والأنسة ربى بربار التي قامت بصف حروف الكتاب، والسيد عطية جوابرة الذي قدم خدمات إدارية مهمة، والدكتور وليد مصطفى القادم الجديد إلى المركز على الملاحظات العامة التي أبداها في سبيل إخراج أفضل لهذا العمل .

مدير المركز

د. صالح عبد الجواد

Digitized by Birzeit University Library

مقدمة

إثر تقاعدي بعد خمسة وأربعين عاما من العمل المهني المتواصل مع حكومات الانتداب البريطاني على فلسطين والكويت والأردن والإدارة المدنية الإسرائيلية للضفة الغربية، سألني بعض الأصدقاء والمسؤولين: لم لا تكتب مذكراتك ؟ وكنت أتذرع بأعذار لعل أهمها أنني لست أديباً في اللغة العربية.

فلما كلفت من قبل مركز دراسة وتوثيق المجتمع الفلسطيني بجامعة بيرزيت للإسهام في تسجيل صفحات من الذاكرة الفلسطينية، راقت لي فكرة المركز المذكور الهادفة إلى تجميع فسيفسائي لتذكرات، وروايات من عايش الأحداث وخبرها ذاتيا ، وذلك إسهاما متواضعا في الجهد الفلسطيني لإعادة كتابة تاريخ فلسطين الحديث فلسطينيا ، وليس استنادا إلى الرواية الرسمية التي لا تخلو من إمكانية التحيز في محاباة السلطة وأصحاب النفوذ ، مما قد يؤدي إلى تجميع روايات وذكريات قد تسهم بسد فجوات، وثغرات هامة لترميم الصورة التاريخية الشاملة للحقبة الفلسطينية الحديثة التي قد تساعد باحثا أو دارسا في مجال ما.

وقررت أن أكتب، وبدأت بتسجيل رؤوس أقلام عما تعيه ذاكرتي منذ أن كنت في الخامسة من عمري حين التحقت بالصف الأول الابتدائي بمدرسة النجاح الوطنية بنابلس سنة ١٩٢٥ وحتى كتابة هذه السطور سنة ١٩٩٣. ثم نسقت ملاحظاتي ورؤوس الأقلام التي دونتها، وبدأت في الكتابة واستغرقت كتابة "تذكراتي" أكثر من ستة أشهر كنت أكتب في كثير من أيامها ثلاث أو أربع ساعات يوميا، وفي أيام الإضرابات أجلس للكتابة طوال النهار إلى أن اكتمل كل ما أردت تسجيله.

Digitized by Birzeit University Library

كتبت ما وعت ذاكرتي وما شاهدت: ما قاله الناس لي وما قلته للناس بصدق وأمانة حتى أنني أوردت بعض ما قاله الناس، وبعض ما قلته باللغة الدارجة أو ما يسمى بالعامية وباللفظ نفسه بين قوسين " .... " زيادة في الحرص على أمانة التسجيل، وأداء المعنى كما كان. سجلت كيف عاملني الناس وكيف عاملتهم. سجلت للمحسن طيبته وللمسيء إساءته. وأنا لا أقصد الإساءة إلى أحد من الأحياء، أو ممن أصبحوا في أرض الحق عربا كانوا أم إسرائيليين بما كتبت غير أبه الا لقول الحقيقة المجردة، وسرد الوقائع كما حصلت بالفعل.

د. حاتم كمال

نابلس في تشرين ثانٍ/١٩٩٤

Digitized by Birzeit University Library

التـــذكـــرات

Digitized by Birzeit University Library

Digitized by Birzeit University Library

طفولة حاتم كمال وعائلته:

ولدت بتاريخ ١٩٢٠/٦/٣٠ في مدينة نابلس في بيت يستأجره والدي من آل شعبان، يقع على يمين الشارع النازل من المستشفى الإنجيلي، ومن بيت جدي لأمي المرحوم الحاج نمر حماد، وقرب مدرسة أسماء بنت أبي بكر حاليا.

كان والدي جميل سليم كمال، وأخوه الأكبر الحاج عز الدين سليم كمال شريكين يعملان في التجارة. كانا تاجري جملة لأقمشة الملابس والمنسوجات الرائجة في ذلك الوقت، وبخاصة في المناطق الريفية مثل السرطي والديمايات التي اشتهرت منها ماركة الحفار السوري، والروزا، والمالطي، والبفت، والمنصوري، والعباءات التي يستوردانها من دمشق وحلب. وكانا يستوردان السجاد العجمي الشيرازي والتبريزي من إيران، علما بأن التبريزي كان أجود نوعا، وأغلى ثمنا من الشيرازي. كذلك كانا وكيلي شركة (I.C.I.) Imperial Chemical Industries التي يستوردان منها الصودا الكيميائية المستعملة في صناعة الصابون النابلسي، بحيث يوزعانها في براميل حديدية ثقيلة الوزن على جميع مصابن نابلس التي كان عددها يفوق الثلاثين مصبنة. وكانت تجارة الصابون تجارة رائجة ومربحة، وكانت مصابن نابلس تصدر كميات كبيرة من الصابون النابلسي إلى سوق مصر الكبير بصورة خاصة بحيث يشحن الصابون بالقطار من محطة سكة الحديد بطولكرم إلى القاهرة.

أما الآن، فان عدد تلك المصابن قد نقص، ولم يعد في نابلس إلا (١٢) مصبنة أهمها: مصبنة الشكعة (ماركة الجمل)، ومصبنة طوقان (ماركة المفتاحين)، ومصبنة المصري (ماركة النعامة)، ومصبنة معاذ النابلسي وعماد كنعان، وبعض المصابن التي تصنع الصابون العادي والأخضر المصنوع من زيت الجفت (زيت نواة الزيتون بعد عصره بمكابس قوية) الأقل جودة، والأرخص ثمنا، وتعمل بشكل متقطع. وكان عمي ووالدي يشغلان أربعة مخازن متقاربة

Digitized by Birzeit University Library

فيما كان يعرف "بالوكالة" وهي الدخلة الموجودة غربي سوق الخان القديم. كما كان بقرب محلاتهم ثلاثة من خياطي ملابس الديمايات والسرطي العربية الدارجة أذكر منهم عارف النابلسي، وآخر من آل سويسه، والثالث نسيت اسمه. وكان في الخان القديم تجار مفرق يشترون البضائع من محلات عمي وأبي أذكر منهم المرحومين توفيق عرفات، وداود الطاهر، ومحمد عنبتاوي وتقي الدين عرفات، ووديع وعثمان النابلسي. وكان تجار المفرق لا يدفعون ثمن ما يشترون نقدا، وأذكر وأنا صبي كيف كانوا يتفاصلون مع عمي، أو أبي عن مدة دفع (الكمبيالة): أهي لشهرين أم ثلاثة أشهر تدفع للبنك العثماني عند الاستحقاق؟ وكان مديره آنذاك المرحوم خليل طوقان مع أن المبالغ لم تكن تتعدى بضع عشرات من الجنيهات. وبالمقارنة مع هذه الأيام يتبين كم كانت قيمة النقد الشرائية آنذاك مرتفعة.

وتوسعت أعمال عمي ووالدي التجارية، وأسسا محلا تجاريا في يافا باسم "الوكالة التجارية المركزية للاستيراد والتصدير" في شارع بسترس قرب البنك العثماني في يافا، وعينا ابن عمهما المرحوم رامز كمال لإدارته تحت إشرافهما. وكانا في الوقت نفسه يشتريان أراضي زراعية في منطقة رأس الفارعة، ووادي المراش وسهل قشدة * حتى أصبحا يملكان ما مساحته ألف وتسعمائة دونم من الأراضي الزراعية بعضها تحت الري وأكثرها بعل.

كان جدي لأمي الحاج نمر حماد يملك بيتا كبيرا واسع الغرف مكوناً من طابقين سمك جدرانه الخارجية متر (كليل عريض) وتحيط به حديقة كبيرة جدا مساحتها ثمانية دونمات فيها ما لذ وطاب من شجر الفاكهة، والورود وفيها ثلاث برك ماء لسقاية الأشجار والمزروعات. وكان الحاج نمر حماد أول من مدد

---

* وادي المراش وسهل قشده أراضٍ قرب منطقة رأس الفارعة.

Digitized by Birzeit University Library

مواسير (أنابيب) الماء من إحدى العيون بنابلس إلى بيته على نفقته الخاصة، وكان أبو محمد الكوني وأولاده يقومون على خدمة تلك الحديقة الواسعة. وهذا البيت لا يزال قائما إلى الآن على الحد الغربي من المستشفى الإنجيلي، وأصبح الطابق العلوي منه مدرسة قرطبة للبنات.

وكان الحاج نمر حماد أحد وجهاء نابلس ، فقيها تقيا، يقيم الولائم طوال شهر رمضان المبارك، ويتردد على ديوانه ومصيفه حول البركة العليا من حديقته بعد صلاة العصر كثير من الأصدقاء والوجهاء. أذكر أن الشيخ الشنقيطي كان يأتي من عمان في رمضان ويبقى في ضيافة جدي ويعود إلى عمان قبيل العيد.

كما كان رئيسا لبلدية نابلس سنة ١٩١٨، ومديرا للأوقاف فيها، وكان يملك أراضي زراعية واسعة في قرية قاقون * من قضاء طولكرم استولى عليها اليهود عند قيام دولة إسرائيل. أذكر أنه في موسم البطيخ بالصيف كانت تأتي قافلة طويلة من الجمال تحمل البطيخ من أرض جدي في قاقون إلى بيته حيث تدخل من البوابة الحديدية الضخمة، وتفسخ أحمالها من البطيخ تحت دالية العنب الكبيرة المعرشة، ويتعاون الكثير من أولاد الحارة في نقل البطيخ المحيسني إلى داخل الدار. كما أذكر كيف تصرفنا عندما وقع الزلزال الكبير سنة ١٩٢٧، حيث كنت في السادسة، إذ لجأنا وكثير من جيران جدي ومعارفه إلى حديقته لتأوينا الخيام ثلاثة أيام خوفا من تجدّد الزلزال.

أما جدي لأبي، فأن والدي نفسه لا يذكره لأنه توفى ووالدي طفل حين كفله أخوه الأكبر عمي الحاج عز الدين سليم كمال وقام على تربيته.

---

* حول قرية قاقون التي دمرها الإسرائيليون بعد عام ١٩٤٨، انظر الكتاب الذي صدر في أيار/مايو ١٩٩٤ عن مركز الابحاث / جامعة بيرزيت " قرية قاقون ".

Digitized by Birzeit University Library

كان أهل نابلس يهتمون بتعليم أولادهم منذ القدم. علمت من والدي أنه قبيل الحرب العالمية الأولى، وأثناء الحكم العثماني لهذه البلاد، كانت عائلات نابلس ترسل أبناءها ليتعلموا في استانبول بتركيا بعد إكمال الدراسة الثانوية. وكان والدي ولفيف من أصدقائه (المرحومون داود طوقان، وخليل طوقان، ووصفي عبد الهادي، وعزت عبده السجدي، ومدحت كمال) يتلقون العلم في مدرسة "السلطاني" باستانبول *.

نشبت الحرب العالمية الأولى قبل أن يكملوا تعليمهم العالي، وجند بعضهم ومنهم والدي وعزت عبده السجدي في الجيش التركي برتبة ضابط صف "كوجوك ضابط". روى لي والدي وأكد لي ذلك أبو عزيز (عزت عبده السجدي) القصة التالية:

" تقرر إرسال الفرقة العسكرية التي ينتمي اليها الاثنان إلى جبهة الحرب بالقفقاس في روسيا. ولاح في الأفق بداية حركة عدم رضى، وشعور بالظلم لدى العرب ضد الدولة العثمانية. فلما بدأ القطار الذي أقلّ فرقتهما بالتحرك نحو الجبهة - وكان الاثنان مكلفين بمراقبة الفرقة حتى لا يهرب أحد منها - قفز الاثنان من القطار عند بدء سيره وهربا من الخدمة العسكرية، وقررا الرجوع إلى نابلس، ولكن كيف؟ كان الاثنان يتكلمان التركية بطلاقة، وكانا قد رسما خطة الهروب، وحصلا على ظرف مكتوب رسمي من وزارة الحربية ختماه بالشمع الأحمر معنون إلى الجيش التركي بالقدس مكتوب عليه (مستعجل وباليد). وعلق والدي تاجا على كتفه، وأصبح برتبة ميجر، وعلق عزت عبده ثلاث نجوم على كتفه وأصبح برتبة كابتن "بقدرة قادر" **.

---

* الان " كالاتاه سراى " وقد تعرفت عليها أثناء زيارتي لاسطنبول عام ١٩٩٣.وهي قريبة من فندق مرمرة الضخم-ولا تزال معهداً يلتحق به طلبة الطبقات الراقية في اسطنبول. (مرفق صورة للمعهد في ملاحق الصور).

** الرتب العسكرية المذكورة هنا، لا تتوافق بالطبع والرتب المستخدمة في الجيش التركي آنذاك ولكننا أبقينا عليها في هذا النص لضرورات الشرح.

Digitized by Birzeit University Library

وكان جمال باشا التركي في دمشق يعلق المشانق للعرب الذين يهربون من الجيش ، وأعدم الكثيرين. فلما وصلا إلى محطة سكة الحديد في (رياق) بسوريا كان على باب المحطة حارس عسكري تركي "سنجي طق" وكان يجب على العسكريين إبراز تصريح عسكري لركوب القطار. كانا يريدان السفر بالقطار حتى محطة سكة حديد "المسعودية"* الواقعة بين مدينتي نابلس وجنين ولم يكن معهما تصريح بذلك.

فلما اقتربا من بوابة المحطة قام والدي بضرب الجندي التركي براحة يده على وجهه (كف)، وكان قوي البنية، فارع الطول وفي عز الشباب. قال لي أبو عزيز عبده: الجندي انفتل (دار حول نفسه) من شدة الضربة والتخم وبخاصة بعد السباب الذي انهال عليه بالتركية من والدي ... أعطني اسمك ... أنت لم تؤد التحية العسكرية للضباط الكبار سأقدمك لمحكمة عسكرية ... وقام عزت عبده (الكابتن) برجاء الميجر أن يسامح الجندي ... لا جميل بك ... منشان خاطري ... هذا الجندي أكيد عنده عيال ... أرجوك جميل بك سامحه ... يكفي هذا الدرس له لاحترام الضباط ... وكان الجندي يرتعد خوفا من المحاكمة العسكرية ... وطبعا لم يفطن إلى طلب تصريح ركوب القطار ... وأردف عزت عبده: يا الله يا ابني أدي التحية لحضرة الميجر حتى يسامحك ... فرفع الجندي التحية واستقلا القطار إلى محطة المسعودية وبحوزتهما للطوارىء ظرف وزارة الحربية المزور المستعجل باليد المختوم بالشمع الأحمر.

وصلا محطة المسعودية عند الغروب، وأكملا الرحلة إلى نابلس مشيا على الأقدام ليلا حتى وصلاها مع الفجر ... واختبأا عند بعض ذويهما مدة سنتين حتى انسحاب الجيش التركي من مدينة نابلس ".

والدي اختبأ بدار أخته أم حازم (زوجة المرحوم الأستاذ أديب مهيار) في بيت فوق صبانة عاشور شرقي جامع الخضر** يصعد إليه بدرج طويل. وكان في أحد غرف البيت قوس فراش عريض تكدس عليه فرشات النوم فوق

---

* قرب مفرق سبسطية .

** ما زالت الصبانة تعمل حتى اليوم.

Digitized by Birzeit University Library

بعضها،وكان والدي يختبىء في القوس خلف الفرشات عندما يدخل زائر أو زائرة إلى البيت.

إن بعض شباب نابلس الذين حاربوا في جبهة القفقاس بروسيا حيث الثلوج المتراكمة، رجعوا أحياء وقد ذاب قسم من أصابع أيديهم وأرجلهم. أذكر أن أصابع يدي السيد داوود الطاهر كانت نصف أصابعي طولا، وآخر من آل سلامه كان يعمل حلاقا عاد وقدماه بحجم قدم ولد صغير.

ثم انتقل والدي لبيت أخر في حارة الغرب قريب من مصبنة الشكعة * يملكه آل النابلسي، وكان البيت طابقاً ثانياً يصعد له بدرج مستقل، وله بلكونة تطل على بيت " أبو مهيب كنعان " المقابل لبيتنا الجديد.

لم يكن في البيوت في ذلك الوقت كهرباء ولا ماء جار. أعي أننا كنا نضيء مصابيح الكاز نمرة ٤ واللوكسات التي تعمل بالكاز، أما الماء فكان يحضره لنا رامز السقاء بقربة محمولة على ظهره، ويوزعه على بيوت الحارة مقابل أجر شهري متفق عليه، ويصب الماء في الزير (آنية فخارية كبيرة الحجم) الموجود في المطبخ، وكان السقاء يحضر الماء من عين قرب جامع الخضر كانت سبيلا لكل الناس. وكان هذا الماء يحفظ للاستعمال المنزلي، أما ماء الشرب فكنا نذهب إلى السبيل نحمل "الطوس" ** لتعبئته لأن الماء المجلوب بالقربة لم يكن يستعمل للشرب.

---

* ما زالت مصبنة الشكعة تعمل حتى اليوم وقد افتتح فرع أخر قرب معمل الزيوت النباتية في شرق المدينة.

** وعاء فخاري يستخدم للشرب وهو أكبر من الإبريق وأصغر من الزير.

Digitized by Birzeit University Library

عندما بلغت السنة الرابعة من عمري ألحقني والدي بروضة أطفال تابعة لدير مسيحي كان حينذاك موجودا في منطقة دوار نابلس الرئيسي حاليا "دوار الحسين"، وكان للدير قنطرة تمر من تحتها الطريق العام، وأصبحت هذه الطريق الضيقة تحت القنطرة تشكل خطرا على السيارات، والمارة وذلك عندما بدأت السيارات تكثر في المدينة. وقام رئيس البلدية السيد نعيم عبدالهادي في أوائل الخمسينيات بالاتفاق مع القائمين على الدير على إزالته مع قنطرته للمحافظة على السلامة العامة مقابل تعويض اتفق عليه.

مدرسة النجاح الوطنية

وعندما بلغت حوالي السنة الخامسة من عمري أدخلني والدي الصف الأول الابتدائي بمدرسة النجاح الوطنية القريبة من بيتنا. وعلمني في الصفوف الابتدائية الأساتذة الكرام الشيخ أسعد شرف، والشيخ زكي أبو الهدى، وعادل تفاحه، والشيخ صديق أبو غزاله، وخليل الخماش. ولعل المرء يستغرب كيف التحقت بالمدرسة وأنا في تلك السن المبكرة.

كان والدي المرحوم جميل سليم كمال أحد المؤسسين الأوائل لمدرسة النجاح الوطنية بنابلس سنة ١٩١٨، وأذكر من المؤسسين الأوائل المرحومين داوود طوقان، والشيخ فهمي هاشم، والحاج قاسم كمال، وحلمي المهندس، وإبراهيم هاشم (دولة إبراهيم هاشم فيما بعد) وعلاء الدين حلاوة. وبعد بضع سنوات انضم إلى المؤسسين المرحومان الأستاذ عزت دروزة، والدكتور مصطفى البشناق.

وقام بالتدريس في مدرسة النجاح الوطنية نخبة من المعلمين عملوا في السنة الأولى لتأسيس المدرسة بدون راتب وهم: الشيخ زكي أبو الهدى ، الشيخ أسعد شرف ،الشيخ فهمي هاشم، أديب مهيار ، جميل كمال ، داوود طوقان ، فارس السخن، سعيد العبوشي، د. وصفي عبد الهادي.

Digitized by Birzeit University Library

ولم يرق تأسيس مدرسة أهلية وطنية للحاكم البريطاني في نابلس فأوعز إلى صاحب البناء القديم الذي كانت تشغله مدرسة النجاح الوطنية بعدم تجديد عقد إيجار عمارته إلى مدرسة النجاح الوطنية، فقام الحاج أحمد حسن الشكعة (أبو عادل) أحد رجالات نابلس البارزين المشهود له بالشهامة والغيرة على مصلحة بلده، بحشد جميع بنائي ونجاري مدينة نابلس، وبنى من حر ماله، وعلى نفقته الخاصة سنة ١٩١٨ مدرسة النجاح الوطنية على قطعة أرض كبيرة يملكها قرب بيته غرب المدينة. واكتمل بناء تلك القلعة الضخمة المكونة من أربعة طوابق بوقت قياسي يكاد لا يصدق في ذلك الحين حيث استغرق إتمام البناء أربعة أشهر فقط، وسلمه أبو عادل مع الملاعب الملحقة به إلى مدرسة النجاح الوطنية بتاريخ ١٩١٨/٦/٢٢*.

وكان ذلك البناء الضخم (مدرسة ابن الهيثم حاليا) بداية مسيرة طويلة موفقة تطورت مدرسة النجاح الوطنية خلالها لتصبح كلية عام ١٩٦٥، ثم جامعة النجاح الوطنية الشامخة بتاريخ ١٩٧٦/١/٥ بهمة مؤسسيها، ورجال مثل (أبو عادل) ومن تعاقبوا على إدارتها والتدريس فيها والنهوض بها. وفي سنة ١٩٢٠ احتاجت مدرسة النجاح إلى دعم مالي لتتمكن من أداء رسالتها، ودفعت الحمية بعض رجالات نابلس إلى التبرع لها، ولعله من الواجب أن أبين للذكرى أسماء من تبرعوا ومبلغ تبرع كل منهم: (انظر ملحق رقم -١-)

---

* وقد يستغرب البعض كيف علمت بهذا التاريخ بالضبط وأنا لم أكن قد ولدت بعد. السيد خالد الشكعة ابن المرحوم الحاج أحمد الشكعة، أعلمني مؤخراً أن أحد عمال المصبنة استرعى انتباهه إلى كتابة محفورة على حائط مفرش المصبنة بالطابق العلوي منها تنص على أن بناية مدرسة النجاح الوطنية تمت بتاريخ ٢٢ حزيران سنة ١٩١٨، وتحتها اسم ابن كاتب المصبنة في ذلك الوقت (صابر الشنار).

Digitized by Birzeit University Library

وبلغ مجموع التبرعات ٢٩٤٥٢ قرشاً. قد يستهين المرء بقيمتها للوهلة الأولى، مع العلم أن قيمتها الشرائية سنة ١٩٢٠ كانت عظيمة مما يجعلها محترمة جداً، إذ تعبر عن مدى اهتمام أهالي نابلس وتمسكهم بمؤسستهم الفتية. وأقارن - على سبيل المثال - بين ثمن كيلو لحم الضأن الذي كان يساوي في ذلك الوقت خمسة قروش، بينما هو الآن ٧٥٠ قرشاً (حوالي ١٥٠ ضعف).

وقد شمل الطابق الأول من بناء المدرسة غرفة دكان لبيع الطلبة، وصالة رياضية تطل على ملعب لكرة السلة، وآخر لكرة القدم، والقسم الغربي من المدرسة حديقة.أما الطابق الثاني فيه قاعة المسرح والاجتماعات والمطعم والمطبخ ودورة المياه. في حين كان الطابق الثالث الموازي للشارع العام غرفاً للتدريس والإدارة والمعلمين. أما الطابق الرابع فكان مخصصا لنوم الطلاب الوافدين من خارج نابلس، ومن بلدان فلسطين المختلفة.

كانت سني الدراسة في المدرسة عشراً : أربع للصفوف الابتدائية وست للصفوف الاستعدادية (ولم تكن تسمى بالثانوية) ويتخرج الطالب حاملا شهادة الدراسة الثانوية بعد نجاحه في الصف السادس الاستعدادي.

فلما كنت في الصف الثالث الاستعدادي نجحت، وسجلت شهادة علاماتي آخر السنة بأنني ارتقيت إلى الصف الرابع الاستعدادي. إلا أن معدل علاماتي كان منخفضاإذ كانت معظم علاماتي في الستينات والسبعينات علما بأن علامة ٦٠٪ كانت تعد علامة النجاح ولعل كوني أصغر من معدل عمر طلاب صفي بحوالي سنتين أثر في تلك النتيجة مما دعى والدي - مثلما أدخلني الأول الإبتدائي صغيرا - لإجباري على إعادة الصف الثالث الاستعدادي لسنة أخرى، وكأنني مكمل أو راسب. وكانت تلك نقطة تحول كبيرة الأثر في مسيرتي التعليمية لأنني أكملت دراستي في الصفوف اللاحقة بتفوق كبير حتى أنني كنت الأول بين الخريجين من الصف السادس الاستعدادي النهائي بالمدرسة.

Digitized by Birzeit University Library

أذكر من الطلاب الذين كانوا معي في الصف السادس الاستعدادي السادة: رفعت النمر والمرحوم نشأت المصري ومحمد سعيد السنتريسي (الذي علم لاحقا في النجاح) ورستم الماضي (من إجزم حيفا الذي علم - أيضا - لاحقا في النجاح) والمرحوم الدكتور عبدالله محمد صلاح ومهدي بنونه (من المغرب) والحاج فهمي الصيفي والمرحوم الدكتور عبد المجيد أبو حجله ، وهشام ملحس ومحمود شابصه (من قيسارية) الذي أصبح فيما بعد قائدا للعمليات العسكرية في الجيش العربي الأردني، ولا عجب في ذلك فقد كان كشافا ممتازا ورياضيا بارزا في المدرسة، وكان بطل المدرسة بالقفز العالي بالزانة.

كان التعليم في النجاح أفضل بكثير من التعليم في مدارس الوقت الحاضر على كثرتها. أعتقد أن ذلك يعود الى أن الأساتذة الذين علمونا كانوا أشد إخلاصا، وأكثر تفانيا في مهمتهم، وأكثر حزما فضلا عن كونهم مؤهلين تأهيلا عاليا. إن بعضهم كانوا يّدرسون وهم ليسوا بحاجة إلى الراتب، أما الذين هم بحاجة إلى الراتب فكانوا أصحاب رسالة معطائين ومحبين لعملهم. ومن الأساتذة الذين علمونا في الصفوف الاستعدادية المتقدمة :

الدكتور فريد زين الدين - مدير المدرسة وأستاذ التاريخ.
الأستاذ قدري طوقان - رياضيات وفيزياء.
الأستاذ ممدوح السخن - كيمياء.
الأستاذ الشاعر محمد خورشيد العدناني - لغة عربية.
الأستاذ واصف كمال - لغة انكليزية.
الشيخ عبد الحميد السايح - لغة عربية بعد الأستاذ محمد خورشيد.
الأستاذ أكرم نديم كمال - أحياء.

كانت المدرسة تهتم اهتماما بالغا بالرياضة والكشافة عملا بالقول المأثور "العقل السليم في الجسم السليم" حتى أنه كان فيها معلم متخصص في

Digitized by Birzeit University Library

الرياضة وآخر متخصص للكشافة وهما السيد منير نجا (لبناني) للرياضة والسيد عبد الودود رمضان (لبناني) للكشافة.

وكانت سياسة المدرسة أن تدرس كثيرا من العلوم في الصفوف الاستعدادية باللغة الانجليزية مما ساعد خريجيها كثيرا عند التحاقهم بالجامعات فيما بعد. ومما يؤيد ذلك أنني - مثلا - عندما أنهيت السنة الأولى علمي (Freshman) في الجامعة الأمريكية ببيروت سنة ١٩٣٧ كانت نتيجتي السادس من بين (٩٦) طالبا من مختلف الجنسيات من عرب وأجانب.

وكان الدكتور حيدر عبد الشافي من غزة أحد زملائي في الصف الجامعي الأول الفرشمن، في تلك السنة، وكذلك المرحوم الدكتور عبدالله محمد صلاح.

كنت مولعاً بالرياضة والنشاط الكشفي، وكنا ننتظر نهاية العام المدرسي، ونستعد لليوم الرياضي والكشفي السنوي الذي يقام في نهاية كل سنة مدرسية على أرض ملعب المدرسة حين تزحف جماهير البلد لمشاهدة ذلك المهرجان الحماسي المشهور.

عندما أذكر مدرسة النجاح الوطنية أتذكر أحلى أيام عمري. فالدراسة ونهل المعرفة كانتا متعة للعقل وكانت الرياضة والنشاط الكشفي متعة للقلب. ومن حسن طالعي وسعادتي أنني كنت مبرزا فيها جميعا بحيث كنت وأنا في الصف السادس الاستعدادي النهائي أول صفي، وقائدا للجوالة وفرقة كشافة المدرسة، ورئيس فريق كرة القدم وبطل المدرسة في رمي الجريد (الرمح).

حرصت المدرسة على اشتراك فرقتها الكشفية في مهرجانات (النبي موسى) التي كانت تعقد كل سنة في القدس الشريف، باشتراك الفرق الكشفية من جميع أنحاء فلسطين ومواكب بيارق الزفات الشعبية من المدن المختلفة،

Digitized by Birzeit University Library

وجماهير غفيرة من الأهالي -إنها المناسبة الوطنية التي استنها البطل العربي المجاهد صلاح الدين الأيوبي كي يظهر قوة المسلمين وهيبتهم في القدس وفلسطين - وكانت فرقة كشافة النجاح أحسن الفرق الكشفية في فلسطين تنظيما وتدريبا ولباسا، وأكثرها عددا حتى أنه عندما كان يبدأ سير طوابير كشافة فلسطين في القدس ضمن احتفالات يوم (النبي موسى) كانت تتصدر الفرق موسيقى دار الأيتام الإسلامية في القدس، وبعدها فرقة كشافة النجاح فوراً، ثم باقي فرق كشافة فلسطين يسيرون بنظام عسكري في شوارع القدس الخالدة في أبهة منقطعة النظير.

كانت فرقة كشافة النجاح مقسمة إلى ثلاثة أفواج بحسب سن الطلاب وهي: الجوالة للكبار والكشافة لمتوسطي السن والجراميز (الأشبال) لصغار السن. ويقتضيني الواجب أن أسجل أن الفضل الأول في تنظيم فرقة النجاح الكشفية يعود للأستاذ الدكتور فريد زين الدين الذي كان مديرا لمدرسة النجاح الوطنية في أواسط الثلاثينيات، وكذلك إلى معلم الكشافة المتخصص السيد عبد الودود رمضان وهو من بيروت.

الدكتور فريد زين الدين :

هو السوري العربي الدرزي المؤمن بحتمية وحدة أمته العربية الذي أمل أن أتمكن بقلمي المتواضع من أن أوفيه حقه من التقدير والاحترام وفاء من طالب تتلمذ على يديه، وتقديرا لما قدم لمدرسة النجاح الوطنية، وأمته العربية من خدمات، كما يتضح من سيرة حياة هذه الشخصية الفذة.

الدكتور فريد كان يتقن اللغات الألمانية والفرنسية والانجليزية بالإضافة إلى لسانه العربي الفصيح. وحمل شهادتي دكتوراة إحداها من جامعة السوربون المشهورة، والأخرى من جامعة ألمانية نسيت اسمها.

Digitized by Birzeit University Library

كان يدرسنا موضوع التاريخ بالإضافة إلى قيامه بادارة المدرسة بيد قوية، وشخصية قادرة مع الاحتفاظ بأسلوب الإنسان المهذب المتواضع الرفيع المستوى، فاوضته هيئة مؤسسي مدرسة النجاح وكان يحاضر في كلية المعلمين في بغداد، وقبل عرضهم لإدارة مدرسة النجاح الوطنية في نابلس عندما كانت البلاد ترزح تحت ظل الانتداب البريطاني البغيض على فلسطين، بالرغم من أن الراتب الذي قبل به للعمل في النجاح كان أقل من الراتب الذي كان يتقاضاه في بغداد، وذلك إيمانا منه بأنه سيؤدي واجبا قوميا أفضل في ميدانه الجديد، وعن قناعة بأنه سيرعى جيلا من الشباب العرب المسلح بالعلم والإيمان بربه ووطنه وأمته العربية الواحدة.

فرض الدكتور زين الدين في أول قرار له أن يلتحق كل طالب في المدرسة بفرقة كشافة النجاح، ولم يكتف بذلك بل فرض هذا القرار على جميع الأساتذة والمدرسين في المدرسة وعلى نفسه شخصيا ، وكان ذلك القرار قطعيا لم يستثن منه أحد.

ولم يكن سلامنا كسلام كشافة "بادن باول" الانجليزي *، وإنما سلام باليد المفتوحة بالأصابع الخمسة إشارة إلى فروض الإسلام الخمسة، وإلى أن فرقة كشافة النجاح هي كشافة مسلمة في شعارها وعربية في انتمائها.

لم يكن لبس البنطلون القصير للشباب والكبار مقبولا في نابلس المحافظة، وكم كان لطيفا أن نرى جميع أساتذتنا ومعلمينا يلبسون زي الكشاف والبنطلون القصير (الكبردين) كاكي اللون. وأصبحت التدريبات

---

* "سلام بادن باول" يتم بالأصابع الثلاثة الوسطى من اليد اليمنى وبدون الابهام والخنصر.

Digitized by Birzeit University Library

الكشفية دورية على مدار السنة كأي درس آخر. وكنا نذهب غالبا يوم الخميس بعدالظهر في رحلات كشفية كثيرة إلى قرى نابلس، ومدن فلسطين، وأذكر منها القدس ويافا وحيفا وعكا والمجدل واللد، كما كنا نذهب إلى إمارة شرق الأردن.

وكنا نبني المخيمات ونقضي الليل فيها، وننظم دوريات حراسة ليلية على المخيم كي تغرس فينا روح الرجولة وتحدي الصعاب. أذكر مرة وكنا نخيم قرب قرية الناقورة - شمال نابلس - وإذا السماء تبرق وترعد وتهطل الأمطار الغزيرة بعد العشاء، ونحن في خيامنا ودوريات الحراسة تحت المطر لا تترك مواقعها. ووصلت سيارتا باص مرسلتان من أحد مؤسسي المدرسة ، الذي كان ابنه معنا ، لإرجاعنا خوفا علينا من الأمطار، غير أن سيارتي الباص رجعتا فارغتين لأن الكشافة رفضوا الرجوع، وأكملوا ليلتهم في خيامهم.

وفي سنة ١٩٣٥ قامت فرقة كشافة النجاح برحلة إلى عمان وإربد وجرش وقضت ليلتين في عمان وواحدة في إربد، وأقمنا حفلات سمر لأهالي المدينتين حيث زارتنا خلالها جماهير غفيرة. وقام سمو الأمير عبدالله في ذلك الوقت باستعراض الفرقة أمام المجلس التشريعي في عمان، وأحاطنا بالرعاية والتكريم. أذكر أن كبير ياورانه (رئيس الحرس الأميري) في ذلك الوقت كان العقيد صالح زكي النابلسي الأصل ، علما بأن صالح زكي كان خالا لي بالرضاعة.

كما أذكر أنه لم يكن في عمان في ذلك الوقت إلا بضعة بيوت حجرية، منها المقر الأميري، والمجلس التشريعي، ودار منكو، وكانت معظم بيوت عمان وحوانيتها مبنية من اللبن أو الخصاص. إن من يرى عمان اليوم لا يكاد يصدق أنها كانت كذلك سنة ١٩٣٥ م. أصبحت عمان فعلا من العواصم الراقية النظيفة، وكان تطورها الهائل في فترة زمنية قصيرة جدا بحساب عمر المدن الكبيرة حيث نمت واتسعت خاصة بعد سنة ١٩٤٨.

Digitized by Birzeit University Library

كانت النجاح ترعى احتفالا سنويا للطلاب الذين يختمون القرآن الكريم، وكان أهل الخاتمين - أيضا - يحتفلون بهذه المناسبة البهيجة، ويصنعون لابنهم الذي ختم القرآن الكريم (كرسي الختامة) الذي يصنع بشكل خاص : يتذكره الكثيرون ويكسونه بقماش الأطلس والساتان والحرير والزينات ، ويزفون ابنهم المكسي ببدلة جديدة، وتقام الولائم، ويجري نقوط للخاتم من الأهل والأصدقاء، بالإضافة إلى احتفال المدرسة بمهرجان خطابي كبير يفتتحه أحد الخاتمين بترتيل آيات من الذكر الحكيم.

كان طلاب النجاح يتظاهرون بصخب في شوارع نابلس الخالدة، يشاركهم فيها جماهيرها وذلك احتجاجا على وعد بلفور في الثاني من تشرين ثان / نوفمبر من كل عام ، حيث كانوا يتصادمون مع الجيش البريطاني. أذكر أننا عندما كنا طلابا صغارا في أوائل الصفوف الابتدائية لم نكن نلفظ كلمة (بلفور) كما هي بل نصيح في المظاهرة يسقط (ففّور).

كان طلاب النجاح فئتين: طلاب من نابلس يدعون (النهارية) وطلاب من غير نابلس يدعون (الليلية) أي الذين يقيمون في المدرسة، وينامون في الطابق الرابع العلوي منها. وكان النظام أن يقوم الطلاب (الليلية) بعد العشاء بمذاكرة الدروس في إحدى قاعات المدرسة. وكنت أحياناً أذاكر معهم، ذلك أن بيتنا الجديد المستأجر من الحاج أحمد الشكعة لم يكن يبعد إلا بضعة أمتار عن مدرسة النجاح الوطنية، وكان والدي قد ترك البيت المستأجر من آل النابلسي، واستأجر بيتا أفضل له حديقة يملكه الحاج أحمد الشكعة الذي كان يسكن في الطابق الثاني منه، علما بأن بيتنا الجديد لم يكن يبعد إلا بضعة أمتار عن مدرسة النجاح الوطنية. وكنت أحيانا أذهب للمذاكرة مع الطلاب الليلية بعد العشاء في المدرسة.

Digitized by Birzeit University Library

سلمت من الجيش البريطاني ولكنني لم أسلم من والدي:

عندما أضربت مدينة نابلس العتيدة إضرابها التاريخي مدة ستة أشهر سنة ١٩٣٦ كان صديقي وزميلي في الصف المرحوم نشأت طاهر المصري، وأساتذة النجاح وخاصة الشاعر الشهيد عبدالرحيم محمود، وواصف كمال، وممدوح السخن، وغيرهم يشحنوننا دائما بحب الوطن، ووجوب مقاومة الاحتلال البريطاني.

اتفقت مع المرحوم نشأت المصري أن نقوم بعمل من أجل الوطن، قررنا أن نقطع أسلاك الهاتف الخارجة من المدينة، فاشترينا قطاعتين (زراديتين) لقطع الأسلاك، وذهبنا بعد المغرب مشيا على الأقدام إلى مفرق واد التفاح غربي المدينة، حيث توجد تلة على يمين الطريق الخارجة من المدينة عليها أعمدة الهاتف. ولما وصلنا التلة استلمت أحد الأعمدة بينما استلم نشأت العمود الذي يليه. واحتضناها ونحن نطوقها بأرجلنا وأيدينا، وزحفنا لأعلاها حيث توجد عارضتان خشبيتان أفقيتان لكل عمود مثبت عليها الفناجين التي لفت حولها أسلاك الهاتف ، ومسكنا العارضة العليا باليد اليسرى والقطاعة باليد اليمنى ولم نترك سلكا إلا قطعناه ، ونزلنا وعدنا إلى بيوتنا سالكين طريقا أخرى هي "طريق الوادات" وكان الظلام قد خيم على المدينة.

بقيت مدينة نابلس أربعة أيام دون اتصال هاتفي مع الخارج حتى اهتدوا إلى أماكن قطع الأسلاك وأصلحوها. سلمنا من الجيش البريطاني الذي لو رآنا ونحن على الأعمدة لقتلنا حتما، ولكنني لم أسلم من غضب والدي عندما وصلت البيت متأخرا ، لبعد المسافة وصعوبة السير في "الوادات" ليلا ، حيث وجدته محتدا، وسألني أين كنت فكذبت كذبة بيضاء وادعيت أنني كنت أذاكر مع الليلية في المدرسة. ولم أكن أحمل كتبا أو دفاتر، بل قطاعة للأسلاك خبأتها في الحديقة. ولم يدر في خلدي أن والدي عندما حضر للبيت عشاءً سأل والدتي عني فأخبرته بأنني ذهبت للمذاكرة مع الليلية.

Digitized by Birzeit University Library

وكان من عادة والدي أحيانا أن يذهب إلى المدرسة مساء بصفته أحد المؤسسين لتفقد طلاب الليلية والاطمئنان على أحوالهم. ومن سوء حظي أنه في تلك الليلة ذهب وسأل عني ولم يجدني هناك. فلما ألحّ عليّ بالسؤال خشيت أن أخبره أنني ذهبت لقطع أسلاك الهاتف ، خاصة أنني تعاهدت مع صديقي نشأت على أن يبقى الأمر سرا بيننا.

وليلتها أكلت علقة ساخنة من والدي الذي استعمل عصا لضربي لأول مرة لن أنساها ما حييت. ولم يعرف والدي الحقيقة إلا بعد سنوات عديدة فندم ، - رحمه الله -، ولكنه قال لي "الحق عليك كان يجب أن تخبرني".

أثناء إضراب الأشهر الستة إشتريت مسدسا (موزر نمره ٧) من شخص نابلسي من آل الجلاد، وخبأته في حديقة المنزل الخلفية في حفرة بعد أن زيته ولففته جيدا. وكان أن علم أستاذي وابن عمي واصف سعيد كمال بذلك. وكان هو والشاعر الشهيد عبد الرحيم محمود، والأستاذ ممدوح السخن على اتصال بالثوار. سألني واصف: ماذا ستفعل بالمسدس ؟ فأجبته: احتفظ به للحاجة. قال لي: أنت يا ابن عمي صغير على هذه الأمور ، سلمني المسدس لإعطائه لأحد الثوار الذين يقاتلون الإنجليز، وكنت أكن له احتراما كبيرا فسلمته المسدس مع ذخيرته. علمت بعد ذلك أنه أعطاه لمجاهد ثائر شاب من آل ياسين الذي كان يحمل بندقية وخنجرا وينقصه مسدس. وللأسف الشديد، فأن ذلك المجاهد من آل ياسين استشهد وهو يقاتل في معركة "الجنيد" غربي نابلس أثناء معركة بالسلاح الناري مع الجيش البريطاني الذي لم يستطع آنذاك زحزحة المجاهدين الثوار من الجبل الذي يعلو قرية الجنيد إلا بعد أن أحضر طائرة عسكرية قصفتهم من الجو.

Digitized by Birzeit University Library

سر نجاح مدرسة "النجاح":

أعتقد أن سر نجاح مدرسة النجاح الوطنية وتميزها من غيرها من المدارس في فلسطين أنها أسست لغايات تعليمية ووطنية وليس بهدف الربح، بل لسد فراغ اجتماعي وتربوي وتعليمي ملح تحتاجه البلاد، نظرا لأن المدارس الحكومية كانت تعمل تحت إشراف الانتداب البريطاني الذي كان يوجه الجهاز التعليمي حسب هواه.

عندما أسست مدرسة النجاح الوطنية عام ١٩١٨ لم يكن مخططا لها أن تكون مدرسة لمدينة نابلس فقط، بدليل أنها ضمت طلابا من جميع مدن فلسطين الأخرى، وأمنت لهم المنام والمعيشة داخلها برسوم زهيدة وميسرة الدفع بالأقساط عند اللزوم، وضمت في رحابها عدداً من طلاب الوطن العربي : من المغرب العربي البعيد حضروا للدراسة باللغة العربية وتعلم الدين الإسلامي. كما أن فريقا من طلاب القطر العربي الجزائري التحقوا بكلية النجاح، وكان قسم منهم لا يزال في الكلية عند الاحتلال الاسرائيلي سنة ١٩٦٧.

كان الطلاب المغاربة طليعة شباب مغربي من كرام العائلات المغربية الذين أراد لهم ذووهم أن يتعلموا في مدرسة إسلامية باللغة العربية في بلد محافظ، لأن الاستعمار الفرنسي في المغرب كان يفرض التعليم باللغة الفرنسية فقط. وقد اختار أهلهم الكرام "النجاح" من دون مدارس العالم العربي مما يدل على السمعة الطيبة التي تمتعت بها خارج فلسطين أيضا.

وقد لقي الطلاب المغاربة كل ترحيب ورعاية ليس في المدرسة فحسب بل في نابلس أيضاً، أذكر أن عائلات نابلس كانت تتسابق إلى دعوتهم لبيوتهم وخاصة في شهر رمضان المبارك حيث كانوا يدعون لتناول الأفطار كل ليلة من الشهر الفضيل.

Digitized by Birzeit University Library

أذكر من الطلاب المغاربة أبناء بنونة ، أبناء الحاج عبدالسلام بنونة ، الأخوة الثلاثة الطيب بنونة ومهدي بنونة (الذي كان زميلي في صفي) وإدريس بنونة وهو الأصغر. كذلك محمد الفاسي وعبد السلام بن جلون وحسيسن.

وبعد استقلال المغرب عن فرنسا احتل الطلاب المغاربة خريجو مدرسة النجاح الوطنية بنابلس المراكز المرموقة التالية:

الطيب بنونة: سفيرا للمغرب في تركيا
مهدي بنونة: مديرا لوكالة الأنباء المغربية
إدريس بنونة: رئيسا للتشريفات في القصر الملكي بالمغرب
محمد الفاسي: حاكما لمدينة تطوان
عبدالسلام بن جلون: سفيرا للمغرب في لبنان

وكان خريجو مدرسة النجاح يتمتعون بسمعة طيبة، وبمستوى علمي جيد، حتى أن الجامعة الأمريكية في بيروت كانت تقبل خريج مدرسة النجاح رأسا بدون امتحان قبول. ويعود الفضل في ذلك إلى جهود العلامة المرحوم قدري طوقان ، أستاذ الرياضيات والفيزياء في الصفوف الاستعدادية المتقدمة الذي هو في الأصل خريج الجامعة الأمريكية في بيروت.

وللدكتور قدري طوقان مأثرة أخرى عندما أصبح مديرا لكلية النجاح الوطنية. ذلك أنه تمكن بجهوده مع السلطات المصرية المختصة أن تعقد "امتحانات التوجيهي المصري" محليا في كلية النجاح الوطنية بنابلس بإشراف بعثة مصرية.

وقبل أن أُختتم ذكرياتي عن مدرسة النجاح الوطنية لا بد لي من أن أعود إلى مدير المدرسة الدكتور فريد زين الدين بعد أن ترك النجاح ورجع إلى سوريا راويا ما نمى لعلمي عن سيرة هذا الرجل العظيم.

Digitized by Birzeit University Library

بعد استقلال سوريا أصبح الدكتور فريد زين الدين سفيرا لسوريا في موسكو،ثم نقل سفيرا لسوريا في واشنطن.

أذكر أنه أثناء بعثتي للقيام بدراسات عليا سنة ١٩٥٤ م من قبل الحكومة الأردنية إلى كلية تكساس للزراعة والهندسة للتخصص في موضوع تربية وتغذية الحيوانات والدواجن ، وبعد أن كنت قد تخرجت طبيبا بيطريا سنة ١٩٤١ م من كلية الطب البيطري التي كانت تابعة لجامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة حاليا) ، كان الدكتور فريد زين الدين سفيرا لسوريا في واشنطن. وكان سفير الأردن في واشنطن آنذاك الدكتور يوسف هيكل (رئيس بلدية يافا سابقا) بالإضافة إلى سفراء الدول العربية الأخرى.

أصدر الصحفي الأمريكي المعروف كنجزوي (Kingsway) كتابا باللغة الانجليزية سماه سيف الله (The Sword of Allah) أنصف فيه القضية الفلسطينية، فلما لم تنجح الأوساط الصهيونية في منع نشر الكتاب، قامت بشراء جميع نسخه من المكتبات التي عرضته للبيع وأحرقتها.

قام الدكتور فريد زين الدين ، سفير سوريا من دون السفراء العرب الآخرين في واشنطن بالاتفاق مع المؤلف الصحفي الأمريكي (Kingsway) على إعادة طبع مائة ألف نسخة من كتابه على نفقة السفارة السورية، ووزّعت آلاف النسخ تلك بالبريد مجانا على المؤسسات والشركات والمكتبات الجامعية، والشخصيات البارزة، والجمعيات الخيرية في جميع أنحاء الولايات المتحدة الأمريكية.

لا أزال أذكر الدكتور زين الدين وهو يحاضرنا في موضوع التاريخ، وكيف كان ينتهز كل مناسبة للبرهنة على وجوب الوحدة العربية، وعناصر الدم واللغة والدين والمصلحة المشتركة، والتكامل الاقتصادي التي تفرض ذلك ، وكيف أن

Digitized by Birzeit University Library

المستعمرين وأتباعهم، وليس الشعوب العربية هم الذين يحولون دون ذلك بطرق مباشرة وغير مباشرة.

سنوات الدراسة الجامعية:

تخرجت من مدرسة النجاح سنة ١٩٣٦، والتحقت بالجامعة الأمريكية في بيروت، وكان عمري يقل عن (١٦) عاما وقبلت بالصف الأول علمي (Freshman) بدون امتحان قبول.

سافرت من نابلس إلى بيروت بالسيارة عن طريق رأس الناقورة، وكان الانجليز متمركزين في الحد الشمالي من فلسطين في موقع رأس الناقورة، والفرنسيون في الطرف الثاني من حد لبنان الجنوبي. وسكنت في منامة بناية بلس (Bliss Hall) كطالب داخلي بالجامعة، وكان معي من نابلس في البناية نفسها المرحوم الدكتور عبدالله محمد صلاح، كما كان في صفي - أيضا - الدكتور حيدر عبدالشافي من غزة أطال الله عمره.

وفي المساء، وبعد العشاء شعرت بالغربة عن نابلس ومن فيها لأول مرة في حياتي، وضاقت بي نفسي، وسرت إلى شاطىء البحر الأبيض المتوسط التابع للجامعة وحيدا أنظر إلى الأفق البعيد، وإلى المجهول من الأقدار، وسالت دموعي من شدة التأثر... غير أن ذلك الحال سرعان ما زال واندمجت في نمط الحياة الجديدة، وتأقلمت على المحيط الجامعي، وبدأت أدرس بجد ومثابرة.

كان اسم رئيس الجامعة "دودج" "President Dodge" وعميد الجامعة نيكولي "Nicoly" الذي كان شديدا مرهوب الجانب من الطلاب الجدد، على وجه الخصوص، وكان يعلمنا في الأول العلمي علم النفس. وكان التدخين ممنوعا في الجامعة. للجامعة بوابتان عليهما حراس، حيث كان يمنع طلاب

Digitized by Birzeit University Library

الصف الأول العلمي الداخليون من مغادرة حرم الجامعة إلى مدينة بيروت إلا يوم الأحد ، يوم العطلة الأسبوعية ، شريطة أن يعودوا للجامعة قبل غروب الشمس وإلا استدعوا لمقابلة العميد نيكولي المخيف لينالوا التوبيخ والإنذار.

وفي آخر السنة الجامعية سألت الجامعة طلاب الصف الأول علمي عن المسار الذي يختارونه في الجامعة لأن المناهج في الصف الثاني الجامعي تعتمد على الموضوع الذي يود الطالب أن يدرسه ، فسجلت أنني أرغب في دراسة العلوم السياسية واضعا نصب عيني أن أحصل على درجة بكالوريوس في العلوم السياسية ثم أدرس المحاماة ... .

بلغ عدد طلاب الصف الأول علمي سنة ١٩٣٦ (٩٦) طالبا موزعين على ثلاث شعب، وكانت نتيجتي في نهاية العام السادس في سلم النجاح. وأتت الرياح بما لا تشتهي السفن، فقبل انتهاء السنة الجامعية تسلمت رسالة من والدي يطلب إليّ فيها أن أنهي علاقتي بالجامعة الأمريكية، وأرجع جميع أغراضي عند انتهاء السنة لأنه حجز لي مقعدا في مصر لدراسة الطب البيطري بجامعة فؤاد الأول !! وكان ذلك مفاجئاً لي، ولربما كان ذلك أول مرة أسمع فيها شيئا اسمه طب بيطري ... ولكنه القدر وإرادة الوالد المطاعة.

فلما عدت إلى نابلس علمت أن سبب اختيار والدي لي الطب البيطري يعود الى أنه لم يكن في فلسطين إلا أربعة أطباء بيطريين عرب والباقي يهود. حتى أن اثنين من الأطباء البيطريين العرب لم يكونا فلسطينيين فأحدهما مصري (الدكتور أحمد خيري) والآخر سوري (الدكتور أحمد حمدي سابق) واثنان فلسطينيان من خريجي تركيا أثناء العهد العثماني أحدهما الدكتور عبدالفتاح السباسي في غزة والآخر الدكتور صدقي زيد الكيلاني في نابلس (الدكتور صدقي زيد والد الدكتور شوكت زيد الكيلاني ، رئيس أطباء وكالة غوث اللاجئين بنابلس سابقا).

Digitized by Birzeit University Library

وكان والدي تاجرا يحسب بعقلية تجارية، كان الدكتور صدقي زيد الكيلاني طبيبا بيطريا للواء السامرة * ، يتقاضى راتبا شهريا قدره (٦٠) جنيها فلسطينيا، وذلك أعلى راتب يتقاضاه أي موظف في لواء السامرة ولا يفوقه إلا راتب الحاكم البريطاني. فإذا أخذنا بعين الاعتبار أن راتب المعلم في ذلك الوقت لا يزيد عن (٩) جنيهات شهريا، وراتب الشرطي (٧) جنيهات شهريا وراتب القائمقام (١٦) جنيها شهريا لتبين لكل ذي بصيرة ضخامة الراتب الذي كان يتقاضاه الطبيب البيطري المرحوم الدكتور صدقي زيد الكيلاني.

ولعل من الطريف أن أذكر أن تكاليف تعليمي في الجامعة الأمريكية ببيروت سنة ١٩٣٦، بما في ذلك قسط التعليم الجامعي، وتكاليف المنام والمأكل فيها ومصروفي الشخصي "ومن جميعه" بلغت (٩٦) جنيها فلسطينيا بالتمام والكمال !! وإني لأتساءل: كم يا ترى تكلف الدراسة في الجامعة الأمريكية في بيروت الآن ؟!!

نشأت صداقة حميمة بين الدكتور عبدالله محمد صلاح (ليس الدكتور عبدالله أمين صلاح الذي كان مندوب الأردن في هيئة الأمم المتحدة) وبيني. فكلانا من نابلس وتخرجنا من مدرسة النجاح معا، ثم تزاملنا في الصف الأول العلمي بالجامعة الأمريكية ببيروت، ولما انتقلت سنة ١٩٣٧ لدراسة الطب البيطري في القاهرة انتقل هو - أيضا - لدراسة الطب في القاهرة وتخرج طبيبا جراحا عمل في المستشفى الوطني بنابلس لفترة ثم أسس مستشفى خاصاً بمدينة الزرقاء، وأداره وعمل فيه إلى أن توفى ، - رحمه الله -.

---

* في ذلك الحين أطلقت سلطات الانتداب على محافظة نابلس اسم "لواء السامرة" الذي كان يضم مناطق: جنين، طولكرم، قلقيلية، سلفيت، طوباس، ناتانيا.

Digitized by Birzeit University Library

روى لي الدكتور صلاح القصة التالية عما فعل أثناء وجوده بالجامعة الأمريكية في بيروت:

" حضر سنة ١٩٣٦ فريق كرة قدم إسرائيلي من فلسطين لإجراء مباريات بكرة القدم مع فريق الجامعة الأمريكية في بيروت الملقب فارستي (Varcity) وجاء الفريق اليهودي في سيارة باص تابع لشركة (ايجد)، وبقي الباص في حرم الجامعة في الساحة الواقعة بين مطعم الجامعة وبناية فسك (Fisk Hall)، وسور الجامعة الذي يفصلها عن الشارع العام في رأس بيروت.

قال صديقي عبدالله: فاتحني صديق طالب بالجامعة في أمر تخريب الباص الإسرائيلي فوافقت على ذلك، اشتريا موساً كباساً (مطواة حادة) وتسللا ليلا لتمزيق إطارات الباص إلا أنهما لم يتمكنا من ذلك لقساوة الإطارات وسمكها فقررا إحراق الباص.

ذهبا إلى محلة (البسطة) البعيدة عن الجامعة واشتريا زجاجتين كبيرتين من البنزين ولفاهما في أكياس ورقية بين مجموعة من الفاكهة، وعادا إلى الجامعة ... وكان الوقت خريفيا وأوراق الشجر تتساقط على الأرض، فأخفيا زجاجتي البنزين تحت شجرة في حديقة بيت رئيس الجامعة، وغطياهما بأوراق الشجر المتساقطة... كان الباص مقفلا بالمفتاح وليس من طريقة لحرقه سوى كسر زجاج إحدى نوافذه... فكيف يمكن كسر زجاج النافذة دون إثارة انتباه أو سمع أحد؟! هداهما تفكيرهما لأن يقوما بكسر الزجاج أثناء مرور (الترمواي) بالشارع العام الموازي لسور الجامعة، فيغطي ضجيجه على صوت تكسير الزجاج... أحضرا حجرا مناسبا وضعاه في طرف إحدى البنايات لهذه الغاية.

وبعد العشاء ... حيث تقل الراجلة ويمكث الطلاب في منازلهم للدراسة ، انتظرا مرور (الترمواي) وعندما سمعا ضجيجه يقترب تناول صديق الدكتور صلاح الحجر، وهشم به زجاج نافذة الباص من جانب مقعد السائق... نزل من درج عمارة (Fisk Hall) إلى الطابق السفلي، وخرج من مدخل العمارة الرئيس دون أن يلحظ أحد شيئا. كان هيكل الباص عاليا فوجدا سلما يستعمله الدهانون قريبا من المكان، وخططا لاستعماله في الصعود للوصول إلى هيكل الباص الداخلي.

Digitized by Birzeit University Library

وكان المرحوم الدكتور عبدالله ينام في بناية (Bliss Hall)... وفي الساعة الثالثة تماماً بعد منتصف الليل أيقظه صديقه من نومه. وحيث إن هذا الصديق كان من قراء روايات اللص الظريف "أرسين لوبين" فقد قام بشراء زوجين من القفازات كي لا تترك أي بصمات على السلم أو الباص. حملا القفازات وعلبة كبريت ونزلا إلى طريق البحر (شاطىء الجامعة) وهو جزء من حرم الجامعة ومشيا في الماء ، على الشاطىء مسافة بعد أن خلعا (البوابيج)، ثم خرجا إلى البر بعد أن انتعلا (بوابيجهما) متوجهين إلى حديقة رئيس الجامعة...

أخرج الاثنان زجاجتي البنزين من حيث أخفياهما وتوجها إلى موقع الباص ... كان الصمت يلف حرم الجامعة والجميع نيام ، فحملا السلم إلى الباص وأمسكه الدكتور عبدالله بينما ارتقى صديقه السلم ، وتناول منه زجاجة بنزين أفرغها على مقعد السائق، والمقعد المجاور، وأعاد الزجاجة الفارغة ، ثم تناول الأخرى، وأفرغها على المقعد الذي خلف السائق... أشعل عود ثقاب واحداً فهبت النار فورا...

أعادا السلم إلى مكانه وتوجها إلى طريق البحر مرة أخرى. ولما ابتعدا طلب إليه صديقه أن يعودا ليتأكدا أن الباص يحترق فعلا ، فعاد الاثنان ليجدا أن النار مستعرة في الباص... سارا باتجاه الشاطىء، وأعادا المشي في الماء مسافة أطول من الأولى، ثم عادا إلى سريريهما في بناية "بلس" وكأن شيئا لم يكن.

لم يكد الاثنان يرقدان في الفراش حتى قامت الضوضاء في الجامعة وعلا الصراخ... حريق ! حريق ! وظل المرحوم وصاحبه في سبات عميق يشخران. وصلت فرقة المطافىء لإخماد الحريق، وخشيت من انفجار خزان البنزين في الباص، وكانت تحاول إخماد النار محتمية خلف سور الجامعة... وعندما أخمدت النيران أضحى الباص كومة من الحديد. والطريف في الموضوع أن الشرطة الفرنسية - كان لبنان في ذلك الوقت تحت الاحتلال الفرنسي - أحضرت خبيرا بالبصمات وكلاب الأثر التي نزلت إلى البحر وصارت تعوي على البحر، والغريب - أيضا - أنها سجنت سائق الباص ٣ أيام بتهمة حرق الباص لهدف قبض قيمة التأمين"!!

Digitized by Birzeit University Library

حاتم كمال في جامعة فؤاد الأول - القاهرة:

سافرت من نابلس في أوائل أيلول سنة ١٩٣٧ إلى يافا، وركبت باخرة متوجهة إلى الاسكندرية، وثم إلى القاهرة (كان السفر بالقطار من محطة سكة حديد طولكرم للقاهرة معطلا) والتحقت بالسنة الأولى طب بيطري بجامعة فؤاد الأول في منطقة الجيزة.

سكنت في غرفة مفروشة عند عائلة مصرية بشارع الأنتكخانة القريب من شارع سليمان باشا وسط القاهرة مقابل جنيهين في الشهر. كانت مخصصاتي تسعة جنيهات شهريا وكان هذا المبلغ يسد جميع احتياجاتي ، علما بأن بعض الطلاب من نابلس كانوا يعيشون بمبلغ أقل من ذلك. أمن لي والدي استلام مخصصي الشهري من تاجر في الموسكي بالقاهرة اسمه "باجنيد" الذي كان وكيلا لتصريف صابون "الجمل" النابلسي المصنوع في مصبنة الحاج أحمد الشكعة، وذلك بناء على ترتيب مالي بين والدي والحاج الشكعة.

وكان السيد محمد علي الطاهر (أبو الحسن) النابلسي الأصل صديقاً لوالدي يسكن في القاهرة، ويصدر صحيفة "الشورى" الشهيرة في ذلك الوقت التي كانت توزع في كثير من البلدان العربية والإسلامية. (انظر صورة صاحب التذكرات مع السيد محمد علي الطاهر أمام بناية صحيفة الشورى في قسم الصور) وكان كثير من طلاب نابلس يزورون صاحب الشورى ومحررها محمد علي الطاهر يوم الجمعة في شارع عبد العزيز المتفرع من ميدان العتبة الخضراء (ميدان الملكة فريدة حاليا). وكان ، - رحمه الله - ، عطوفا على الطلاب " النوابلسة " ، ويعد نفسه وليا لأمرهم في مصر، ويدعونا أحيانا للغذاء في مطعم "الحاتي" بالموسكي. وكان شخصية مرموقة في القاهرة، وعلى صلات جيدة بالنحاس باشا، ومكرم عبيد وغيرهم من زعماء ورجالات القاهرة آنذاك. وكان يعتني بلباسه فيلبس قبة القميص المنشاة والبيون الأسود ويحمل البستون (عصا)

Digitized by Birzeit University Library

ويؤم مكتبه كثير من رجالات العالم العربي كشكيب أرسلان وغيره، ويصر على عمل الشاي الفاخر بيده في مكتبه في السماور النحاسي اللامع. وكان محافظا بحيث لم يكن أي طالب يجرؤ على زيارته إلا وعلى رأسه الطربوش لأنه كان يعد عدم لبس الطربوش قلة احترام بل قلة أدب. وكان قلمه عنيفاً لاذعاً طالما صاغ به مقالات نارية هاجم فيها الاستعمار الإنجليزي والفرنسي معاً.

أذكر مرة أن الأستاذ الطاهر حضر إلى كلية الطب البيطري عام ١٩٣٩ للاستفسار عن أحوالي. وكنت في الصف أستمع إلى محاضرة أحد الأساتذة وإذا فراش (أذن) عميد الكلية يدخل ويقول للأستاذ المحاضر : "يا أفندم... دا سفير فلسطين عند البيه العميد يطلب الطالب حاتم جميل كمال..." وأذن لي الأستاذ، وقابلت سفير فلسطين غير المتوج في مكتب البيه العميد الذي بدا واضحا أنه يحترم الأستاذ الطاهر وكأنه سفير فعلا.

ومرة دعي الطالب وهيب البيطار (الأستاذ الشاعر وهيب البيطار فيما بعد) للغذاء وعين له الساعة الواحدة بعد الظهر حيث ينتظره في مكتب الشوري. ودق وهيب باب مكتب الشوري قبيل الساعة الثانية عشرة والنصف، ففتح الأستاذ الطاهر الباب نصف فتحة وقال له: نعم! قال وهيب: أنت دعوتني. سأله الأستاذ الطاهر كم الساعة الآن ؟! قال وهيب حوالي (١٢:٣٠). قال له الأستاذ الطاهر: "أنا قلت لك الساعة الواحدة... "روح انقلع بطلت أعزمك" !!" وأقفل الباب في وجهه. هكذا كان طبعه: دقيقا نظاميا عنيفا.

سألني مرة أستاذ جامعي " أفلسطين عاصمة القدس أم القدس عاصمة فلسطين؟!!" وحزنت لمستوى الثقافة العامة، ولمثل هذا السؤال من أستاذ في الجامعة، وتذكرت ذلك مؤخرا عندما سألني أحد أحفادي البالغ من العمر ثماني سنوات يريد أن يمتحنني: "بتعرف ثلاث بلاد عربية اسم العاصمة فيها هو نفس اسم البلد؟" سميت له الكويت وتونس والجزائر. قال حفيدي مضبوط

Digitized by Birzeit University Library

وفتح جهاز الكمبيوتر الموجود في غرفته بالبيت، وعرض خارطة العالم العربي على شاشته، وأشر لي على البلدان والعواصم الثلاثة. وقارنت في نفسي بين معلومات حفيدي ابن الثامنة مع المعلومات العامة لذلك الأستاذ الجامعي!!. ومنحت حفيدي (معن) جائزة سر لها خاصة أن معدل علاماته كان ٩٨،٢٪.

أذكر وأنا في السنة الثانية في كلية الطب البيطري... كان استاذ التشريح الدكتور نجيب جرجي المصري القبطي له مساعدان، وكنا نتعلم على تشريح جثة الحصان المحنطة بالفورمالين. ولغايات التعليم كانت الجثة مقسمة إلى أربعة أجزاء رئيسة: الرأس والرقبة ، القوائم الأمامية ، الصدر والبطن، القوائم الخلفية. وكان لكل جزء "كرت" سميك مطبوع فيه قائمة أسماء جميع أقسامه، وأمام ذلك حيز لتوقيع أستاذ التشريح، أو أحد مساعديه حيث يطلب إلى الطالب بعد اختبار عملي من الأستاذ أو أحد مساعديه إن هو استوعب القسم أن يبدأ في التدرب على تشريح القسم الذي يليه، ويوقع له الأستاذ أو مساعده أو يطلب إليه إعادة تشريح القسم إن رأى أن الطالب لم يكن متمكنا من التشريح. وعند التقدم للأمتحان الشفهي في نهاية السنة الثانية يقتضي أن تكون البطاقات الأربعة بجميع أقسامها موقعة من الأستاذ أو أحد مساعديه.

كانت العلامة الكاملة للامتحان ١٠٠ ، مقسمة مناصفة بين الإمتحان التحريري و الشفهي. وفي نهاية السنة كان الامتحان التحريري قبل الامتحان الشفهي، ولم تكن ورقة الامتحان تحمل اسم الطالب وإنما تحمل رقما بحيث إن الأستاذ المصحح لا يعرف صاحبها، وكان الرقم والاسم موجودين عند البيه العميد.

كنت أثناء السنة أتعمد أن أسأل الأستاذ نفسه ليمتحنّي كلما أكملت تشريح قسم من الأقسام، وكان يوقع لي على كرتي (بطاقة التشريح) في الحيز المخصص ولم يطلب إلي ولو مرة واحدة أن أعيد تشريح أي قسم طوال السنة.

Digitized by Birzeit University Library

كان معظم الطلاب المصريين الجامعيين لا يدرسون بجد إلا في أواخر السنة الجامعية، بينما كنت أراجع دروسي المقررة يوميا، وكنت معتادا أن أستيقظ في الصباح الباكر الساعة الرابعة، وأذاكر ساعتين حتى السادسة، ثم أستعد للذهاب إلى الكلية. وكنت أول صفي منذ السنة الأولى في الكلية، وتخرجت منها وأنا أول دفعة التخرج دون منازع. وأذكر أنه لم يحصل أن أعطى أستاذ جامعي علامة كاملة لطالب قبل أن يسأله أي سؤال، إلا الأستاذ نجيب جرجي الذي أعطاني علامة كاملة في الإمتحان الشفهي.

وبقيت على هذا الحال إلى أن تخرجت بامتياز في أيار سنة ١٩٤١، ونشرت خبر تفوقي صحيفتنا الأهرام والمقطم. وأذكر أنه بإعلان نتائج امتحانات التخرج، أرسل عميد الكلية الدكتور عبد العزيز بيه النعماني في طلبي، ودخلت مكتبه والفرحة تملأ قلبي فهنأني بحرارة وحنان قائلا :

يابني، يا شامي، أنا راجعت نتائج الامتحانات في سجلات هذه الكلية، دا أنت أصغر من تخرج من هذه الكلية سناً (كان عمري أقل قليلا من ٢١ عاما) وبأعلى معدل علامات حصل عليه أي طالب منذ تأسيس هذه الكلية وحتى الآن، وأضاف : ما رأيك أن أعينك معيدا في هذه الكلية بحيث يمكنك في الوقت ذاته التحضير للدراسات العليا؟ شكرت سعادة العميد بحرارة على رعايته لي، واهتمامه بأمري، واعتذرت بأنني يجب أن أعود إلى بلدي لأن أهلي ينتظرونني. تمنى لي العميد التوفيق، ودعاني لشرب الشاي في منزله الساعة الخامسة مساء من اليوم نفسه وقال: أود أن تتعرف عليك زوجتي ... وكان ذلك شرفاً عظيماً لا يحلم به أستاذ في الكلية، كانت زوجة العميد سيدة فاضلة ولقيت في بيتها كل عناية وتكريم.

Digitized by Birzeit University Library

العودة إلى نابلس:

عدت إلى نابلس أحمل شهادة طبيب وجراح بيطري بامتياز منقطع النظير، وفرح أهلي ، وخاصة والدتي وجدي لأمي الحاج نمر حماد ، بعودتي سالما غانما في أواخر شهر أيار سنة ١٩٤١ ، وكان عمري واحداً وعشرين عاما إلا شهراً واحداً. وذهبت إلى القدس، وقدمت طلبا للعمل في دائرة البيطرة لحكومة فلسطين. كان مكتب مدير البيطرة الأنجليزي في عمارة الأوقاف الواقعة في ماميلا بالقدس واسمه جلبرت سيمنز، وكان مساعده الأداري يهودياً أصله من رومانيا يدعى كروسمان، وكانت عمارة الأوقاف الكبيرة في ماميلا تضم - أيضا - مختلف فروع دائرة الزراعة والحراج في حكومة الانتداب البريطاني على فلسطين.

وكان مدير الدائرة، ومدير المختبرات البيطرية في يافا انجليزيين، وباقي الأطباء البيطريين من اليهود ما عدا أربعة أطباء بيطريين من العرب أحدهم مصري والثاني سوري وآخران من عرب فلسطين هما المرحومان الدكتور صدقي زيد الكيلاني في نابلس، والدكتور عبد الفتاح السباسي في غزة.

ومضت سبعة أشهر وأنا أنتظر دون أن أحصل على التعيين، وكانت فترة انتظار مملة وثقيلة على النفس، وشعرت أن المساعد الإداري اليهودي كروسمان ، كان مسيطرا على الأمور الأدارية في الدائرة ، ولا يرغب في تعيين طبيب بيطري عربي.

أخذني والدي معه إلى القدس، وقابلنا المرحوم روحي عبدالهادي النابلسي الأصل الذي كان يشغل منصب مساعد السكرتير العام لحكومة فلسطين في مبنى سكرتارية الحكومة الملاصق لفندق الملك داوود، مقابل جمعية الشبان المسيحية. وكان منصب المرحوم روحي عبدالهادي يعد أعلى وأهم منصب

Digitized by Birzeit University Library

حكومي في حكومة فلسطين بين العرب واليهود، ولا يفوقه إلا منصب السكرتير العام البريطاني.

وشرح له والدي الوضع، فقام السيد عبدالهادي بالاطلاع على ميزانية دائرة البيطرة الموجودة في مكتبه، ووجد أن هنالك وظيفة شاغرة لطبيب بيطري. وظهرت شهامة هذا الرجل عندما طلب كروسمان بالهاتف، واستفسر منه عن سبب عدم تعييني خاصة وأنني متخرج من جامعة معترف بها بامتياز مع وجود شاغر في ميزانية الدائرة!! ولا أدري بماذا أجابه كروسمان، ولكنني سمعته وهو محتد يصدر أمرا رسميا إلى كروسمان بتعييني فورا.

وتسلمت كتابا رسميا بتعييني في مكتب البيطرة بالقدس بعد أيام قلائل، وكان ذلك في أوائل سنة ١٩٤٢. وكان كروسمان داهية يريد التخلص مني عبر طرق رسمية وذلك بوضعي في ظروف عمل صعبة جداً كي يجبرني على ترك العمل ليقول نحن عيناه ولكنه شاب صغير السن لم يكن في مستوى المسؤولية!!

كان في منطقة الحولة آنذاك (٥٠٠٠) رأس من الجاموس تعيش عيشة شبه برية، ذلك أنها كانت تطلق من أماكن أصحابها للرعي والاستلقاء في الوحل والمستنقعات طوال ساعات النهار، وتعود لأماكن أصحابها عند الغروب بحيث تحلبها النسوة مرتين في اليوم صباحا ومساء.

وظهـــر مرض معدٍ بين جاموس الحولة يدعى مرض (التسمم الدموي) (Haemorogic Septicaemia) فخصني كروسمان بنقل مؤقت إلى منطقة الحولة لتطعيم تلك الجواميس المتوحشة تطعيما وقائيا ضدالمرض المذكور، وذلك باعطاء كل رأس منها حقنة من لقاح خاص بذلك المرض.

Digitized by Birzeit University Library

كانت منطقة الحولة مليئة بالمستنقعات، والوحل وبعض الأراضي الزراعية التي تزرع بالحبوب والأرز، وكانت قصبتها قرية الخالصة (الآن مدينة كريات شمونه) وبها قرى بدائية أذكر منها النويعمه والزق الفوقاني، والزق التحتاني، والخصاص، وجميع سكانها من العرب وليس فيها يهودي واحد. وكان اليهود موجودين في روشبينا والمطلة المجاورتين .

ولم يكن في الحولة مدارس أو مرافق خدمات عامة باستثناء المحجر الصحي البيطري الموجود في قرية الخالصة لغايات الحجر الصحي للحيوانات المستوردة من لبنان وسوريا، وكان مأموره شاب من الخليل اسمه "أبو خلف" ومعه حارس. وكان الأهالي يعيشون على زراعات بدائية، وعلى حليب الجاموس ومشتقاته من الزبدة، واللبن المخيض، والجبنه، والجميد، واللبن واللبنة، وعلى لحم الجاموس في المناسبات. وكانت بيوت الأهالي مبنية من اللبن والقصيب والخيام. وكانت الحولة موبوءة بمرض الملاريا والبعوض يرتع ويمرح فيها باسرابه المخيفة. وكان الأهالي يسمون فحل الجاموس الكبير "شنبور" ومن المستحيل اعطاء مثل هذا الشنبور حقنة اللقاح وهو واقف على أقدامه إذ باستطاعته أن يقتل الأنسان إذا هاجمه بقرنيه. لذلك كان يتحتم أن يتعاون خمسة أو ستة رجال من أصحاب الجاموس لتربيطه بالحبال وتوقيعه مقيدا الى الأرض كي يمكن إعطاؤه حقنة اللقاح الواقي وكان جلده سميكا قاسيا يحتاج لأبرة متينة كبيرة الحجم حتى لا تنكسر أثناء الأستعمال.

وأرسلني كروسمان في ظل الظروف التي ذكرت لأداء المهمة الأولى التي خصّني بها. ولم يكن لدي سيارة آنذاك فضلا عن أنه لم تكن هناك في الحولة طرق تصل قراها ببعض تصلح لمرور سيارة في ذلك المستنقع الهائل. وكانت وسيلة تنقلاتي على ظهر حصان، ومركز انطلاقي للعمل من محجر الخالصة. وكنت ماهرا في ركوب الخيل ذلك لأنه لا يمكن لطالب الطب البيطري أن يتخرج من الكلية في مصر إلا بعد أن يأخذ ساعات معتمدة في الفروسية. وكنا

Digitized by Birzeit University Library

في السنة النهائية نتدرب كل يوم سبت ساعتين بين الثالثة والخامسة بعدالظهر تدريبا إجباريا على ركوب الخيل والفروسية في "مدرسة الفرسان الملكية" بالعباسية في القاهرة حيث قام ضباط من الجيش المصري بتدريبنا.

وكان مأمور المحجر الصحي أبو خلف يعرف المنطقة جيدا فساعدني في أداء مهمتي الصعبة، وتحملت ما تحملت من المشاق، وصعوبة الحياة، وكنت أقضي الليل في المحجر، وأحيانا في فندق صغير يملكه يهودي ببلدة المطلة. وثابرت على أداء مهمتي بعزم وعناء حتى أوشكت على الإنتهاء منها بحيث لم يبق إلا حوالي ثلاثمائة رأس من الجاموس لم تلقح بعد... حينما أصبت بمرض الملاريا، وأغمي عليّ من شدتة . عند ذلك رجعت إلى نابلس، وقام بمعالجتي المرحوم الدكتور أحمد السروري زوج ابنة عمي الحاج عزالدين كمال الذي كان يشغل آنذاك وظيفة مدير وجراح المستشفى الوطني الحكومي بنابلس وذلك قبل أن يصبح رئيسا لبلدية نابلس فيما بعد. أذكر أنه كان يعالجني بدواء اسمه "بلازموكين" حتى شفيت واستردت عافيتي بعد حوالي أسبوعين، وعدت لمركز عملي في مكتب البيطرة بالقدس، وأنا أشعر بالانتصار على ذلك المدعو كروسمان بالرغم من جميع الصعاب والمعاناة التي مرت بي.

واغتاظ كروسمان ولم يكتف لؤمه بذلك ... فعمد إلى طريقة أخرى لمضايقتي علما بأن نظام الخدمة المدنية ينص على أن الموظف يبقى عند تعيينه مدة سنتين تحت التجربة، ويجري تثبيته بالخدمة الدائمة إن أثبت جدارة وكفاءة في عمله، أو يستغنى عن خدماته إن لم يتوفر فيه ذلك.

كان الطبيب البيطري يمنح شهراً إجازة سنوية. ثابر كروسمان على نقلي نقلا مؤقتا من القدس إلى كل مركز بيطري لوائي يمنح الطبيب البيطري فيه إجازة سنوية للقيام بأعماله طيلة مدة غيابه في الأجازة... وهكذا قضيت معظم وقتي متنقلا، وعملت في جميع مناطق فلسطين وألويتها ما عدا لواء واحداً هو

Digitized by Birzeit University Library

لواء اللد ويافا. عملت في صفد، وطبريا، ونابلس، وحيفا، وغزة وبئر السبع، لأشهر طويلة حتى انقضت فترة التجربة، فأجبر على تثبيتي بمكتب القدس بالخدمة الدائمة. ولم يكن كروسمان يعرف المثل العربي الذي يقول "رب ضارة نافعة" فهو قد أفادني من حيث لا يقصد، حيث ازددت خبرة وتجربة، كما وأنني تعرفت على جغرافية بلدي فلسطين عمليا حيث زرت معظم مدنها وقراها المختلفة.

وكانت مناطق الخليل، وبيت لحم، ورام الله، وأريحا، والمحجر الصحي البيطري عند حدود إمارة الأردن في أريحا (مكان نقطة عبور جسر اللنبي حاليا) تابعة جميعا لمنطقة عملي، ولم يكن فيها أطباء بيطريون آنذاك بل مكاتب للبيطرة فيها مفتش للمواشي في كل من الخليل، وبيت لحم، ورام الله، وأريحا، ومأمور محجر صحي، وحارس في محجر جسر اللنبي.

وكان في منطقة القدس عدة مستوطنات يهودية تعتني بتربية الأبقار الهولندية والدواجن أذكر منها: كريات عنفيم قرب قرية أبو غوش، ورامات راحيل، وعطاروت، والنفي يعقوب، وميكور حاييم، ومعالي هاخمشا، وكان أكبرها وأهمها كريات عنفيم (قرية العنب) حيث كان يوجد فيها وحدها (٤٠٠) رأس من الأبقار الهولندية. وكان من واجباتي أن آخذ عينات دم من تلك الأبقار الهولندية العالية الأنتاج دوريا كل ثلاثة أشهر، أو كلما لزم الأمر ، ثم أرسلها إلى المختبر البيطري في يافا لفحصها مخبريا لمرض الإجهاض البقري المعدي (Brucellosis)، الذي يعدي الإنسان، وكان يساعدني في ذلك مفتش مواشي القدس السيد داود الحرباوي (أبو ياسين) الخليلي الأصل.

وكان لكل رأس من الأبقار الهولندية رقم معدني مبرشم في أذن البقرة بحيث يسجل رقم البقرة على بطاقة تلصق على قارورة عينة الدم المعقمة من أجل المتابعة.

Digitized by Birzeit University Library

وعن زواجه تحدث حاتم كمال:

خطبت للزواج جاودة ابنة الحاج أحمد الشكعه وهي خريجة الكلية الانجليزية التي كانت في حي رحافيا بالقدس، وعقد قراني عليها بتاريخ ١٩٤٢/١٢/٢٧ واستأجرت في بادىء الأمر غرفة مفروشة عند عائلة بالقدس من آل حنوش، وبعد ذلك استأجرت بيتا في حي البقعة الفوقا بالقدس يملكه السيد انطون قواس من بيت لحم، ويقع تحت مدرسة الأمة التي كان يديرها الأستاذ حرامي، وقرب بيت السيد موسى ناصر (معالي موسى ناصر فيما بعد) مؤسس مدرسة بيرزيت التي أصبحت جامعة بيرزيت التي يديرها ابنه الدكتور حنا ناصر، وكذلك قرب بيت السيد فؤاد سابا صاحب مؤسسة سابا لتدقيق الحسابات المعروفة. ونشأت بيننا صداقة جيران حميمة طيبة. وكان يسكن في الحي نفسه اثنان من نابلس هما السيد فايز بك الأدريسي ، مدير شرطة القدس، وأعلى ضابط عربي في شرطة فلسطين، والأستاذ وصفي العنبتاوي (معالي وصفي العنبتاوي فيما بعد) وكان من كبار رجال التربية والتعليم في حكومة فلسطين.

وكان يسكن في القدس الكثيرون من أهل نابلس أذكر منهم: السيد جمال طوقان ، مساعد الحاكم البريطاني بالقدس، والسيد روحي عبدالهادي، والقاضي ماجد بك عبدالهادي في محكمة الاستئناف، وطبيب الأسنان برهان عبدالهادي، وابن عمي المحامي تحسين كمال في المصرارة، والسيد راشد الخياط أشهر خياط في القدس آنذاك، والشيخ الجليل عبدالحميد السائح، والسيد إبراهيم صنوبر وكثير غيرهم.

وكان الشيخ عبد الحميد السائح يسكن في حي باب الزاهرة، وكنت أزوره بين الحين والآخر بصفته استاذي سابقا بمدرسة النجاح الوطنية، وكان يؤم بيته كثير من أصدقائه ومن بينهم السيد عبد الحميد شومان ، مؤسس البنك العربي ، والسيد إبراهيم صنوبر وغيرهما من أهل نابلس والقدس.

Digitized by Birzeit University Library

وكان المرحوم عبدالحميد شومان يكره التدخين ويعظ كل مدخن بالإقلاع عنه، أذكر مرة أنه ألقى علي محاضرة في مضار التدخين، وسألني عن عدد السجائر التي أدخنها يوميا، وعن ثمنها، وحسب تكلفتها سنوياً وقال لي - رحمه الله -: لو أنك أودعت ثمن السجائر التي تحرقها، وتضر صحتك في البنك العربي لبضع سنوات لأصبحت تملك مبلغا محترما...

أذكر أن أول راتب تقاضيته كان ستة وثلاثين جنيها فلسطينيا شهرياً، علما بأن راتب القائم مقام - مثلا - آنذاك كان ستة عشر جنيها فقط.

أذكر أن شومان، مؤسس البنك العربي كان يمتلك سيارة "كديلك" فخمة وله سائق. وكثيرا ما كنت أرى على طريق القدس رام الله عندما أسافر صباحا باتجاه رام الله المرحوم شومان يسير راجلا في الطريق من بيت حنينا حيث يقطن إلى القدس ووراءه سائقه يقود سيارته، فقد كان يحب الرياضة... وعلمت أنه كان من عادته أن يجمع مدير وموظفي فرع البنك العربي الذي يزوره ليفتش أعماله في الصباح الباكر لأجراء الرياضة السويدية الصباحية معهم جميعا قبل أن يفتح فرع البنك أبوابه للجمهور، وظل هذا الأنسان الفلسطيني العصامي العظيم يفتخر بأنه بدأ عمله حجارا يعمل في البناء، وهاجر إلى أمريكا، وعاد منها بمبلغ ١٥٠٠٠ جنيه فلسطيني، وتزوج ابنة أحمد حلمي باشا، مدير بنك الأمة فيما بعد، الذي ساهم بمبلغ ١٥٠٠٠ جنيه أخرى وأسس شومان البنك العربي. أذكر أن سعر سهم البنك العربي عند تأسيسه كان خمسة جنيهات... وبفضل جهود هذا الرجل الفذ، وثم جهود ابنه السيد عبد المجيد شومان أصبح سهم البنك العربي أضعاف قيمته الأساسية بحيث يبلغ حوالي (١٧٠) دينارا وأكثر من ذلك أحيانا. وأصبح للبنك العربي فروع في أكثر عواصم الدنيا أهمية، وفي جميع الدول العربية حتى أنه يوجد (٢٢) فرعا للبنك العربي في مدينة عمان وحدها،وثلاثة فروع له في مدينة لندن مثلاً، وأصبح مفخرة اقتصادية للأمة العربية، وصرحا شامخا بين البنوك العالمية الكبيرة.

Digitized by Birzeit University Library

وكان ابن عمي الأستاذ تحسين عزالدين كمال يعيش في القدس منذ سنوات، وأصبح شخصية معروفة له علاقات جيدة وأصدقاء كثيرون. وتحسين كان قد التحق بالجامعة الأمريكية في بيروت، ولم يكمل دراسته فيها، وانخرط في سلك الشرطة، وكان ضابط مركز العجمي في يافا، ثم درس الحقوق في القدس، وتخرج محاميا، وتدرب في مكتب أستاذه الكبير المحامي ابيكاريوس بك في القدس، ثم فتح مكتبا للمحاماة بجوار مكتب أستاذه، وكان يشارك في النشاطات الوطنية ضد الاستعمار البريطاني، واعتقل ونفي مع كثير من رجالات فلسطين إلى معتقل صرفند، وتعرف هناك على كثير من العاملين في الحقل الوطني. وأذكر مرة أن الشرطة أرادت اعتقاله وعلم بالأمر فاختبأ عن الأنظار حتى هدأت الأمور، ومن عجيب المفارقات أن الذي اختبأ في بيته كان من المستحيل للشرطة والمخابرات أن تفكر فيه... خبأه صديق له يهودي من أصل ألماني كان يعمل طبيبا للصحة في القدس اسمه الدكتور أبل.

الرحيل من حي البقعة الفوقا (القدس) تحت وطأة أحداث عام ١٩٤٨:-

وفي أوائل سنة ١٩٤٨ عندما بدأ الصراع المسلح بين العرب واليهود قبيل إنهاء الانتداب البريطاني على فلسطين أصبح تحسين القائد العسكري في المصرارة بالقدس، وصار بيته مركز قيادة الحي، ومعه كثير من الشباب العرب المسلحين بالبنادق والرشاشات والقنابل اليدوية. واشتد الصراع المسلح لمّا قرب موعد إنهاء الأنتداب حتى أنه أغلق مداخل حي المصرارة جميعا بالمتاريس، والحراسات المسلحة، وكانت تدور معارك، وخاصة في الليل بالسلاح الناري بين فرقته وبين اليهود الذين كانوا يمطرون حي المصرارة بالرصاص من جهة المستشفى الطلياني... وصمد حي المصرارة للتحدي، وكال شبابه الصاع صاعين في المعارك واستشهد بعض سكانه.

Digitized by Birzeit University Library

وكنت عندما أزور ابن عمي في بيته أرى الكثير من قطع السلاح المختلفة، وكميات كبيرة من الذخيرة مكدسة في بيته، وكأنه مستودع لكتيبة جيش ... وكان يسكن ،- رحمه الله - في عمارة الشبر بالمصرارة قريبامن مدخل حي المصرارة الواقع في يمين منتصف الشارع الصاعد من باب العمود إلى المستشفى الفرنسي الذي كان مقدرا أن يتوفى فيه تحسين بعد ذلك بسنوات عديدة.

وكان تحسين عضوا في اللجنة القومية للقدس، واشتد الصراع المسلح وازدادت حدته عندما بدأ اليهود ينسفون العمارت والبيوت... ونسف مبنى سكرتارية حكومة فلسطين الملاصق لفندق الملك داؤد، ووقعت ضحايا كثيرة، ونسف فندق سميراميس في القطمون، ونسف البيت الذي كان قد بناه الأستاذ وصفى العنبتاوي الذي لم يسكنه إلا مدة أسبوعين، ومن لطف الله أن الأستاذ العنبتاوي وعائلته لم يكونوا في البيت عندما نسف وأصبح ركاما... ونسفت بيوت وعمارات كثيرة أخرى، وسكن الخوف والرعب قلوب الناس، وبدأ البعض في الرحيل والابتعاد عن المناطق الخطرة ...

وفي حي البقعة الفوقا، حيث مسكني، تشكلت لجنة محلية، وسلحت شبابا. معظمعهم من أهل الخليل المتواجدين بكثرة في الحي للدفاع عنه، وبدأت معارك ليلية بين المدافعين العرب واليهود الذين يهاجمون من مستوطنة ميكور حاييم ومن تل بيوت، وصار صوت الرصاص يسمع كل ليلة كما صارت لجنة الحي وشبابه المسلحون يجمعون الأموال من سكانه لشراء السلاح والذخيرة ... وأصبح ذلك يتكرر كل بضعة أيام.

وكنت قد رزقت بطفل عمره أربع سنوات وطفلة عمرها سنتان آنذاك، وكنا نخشى أن ينسف البيت على رؤوسنا، وفي آخر ليلة قضيناها بالقدس استضافنا المرحوم فايز بك الأدريسي مدير شرطة مدينة القدس لقضاء الليلة

Digitized by Birzeit University Library

في بيته الذي كان أبعد من بيتي عن منطقة الخطر، بالإضافة إلى أن بيته كان تحت حراسة مسلحة قوية. وكان أزيز الرصاص يسمع بوضوح وكثرة في تلك الليلة.

ولم يكن الجيش البريطاني يتدخل لوقف المعارك المحلية بين العرب واليهود، وبقي في ثكناته وكأنه غير موجود. وكانت مؤامرة لطرد العرب من القدس الغربية لأن اليهود كانت لهم قيادات عليا، وتنظيمات عسكرية مدربة جيدا، وخطط مدروسة لتهجير العرب بشتى وسائل العنف والأسلحة الحديثة ، بينما كان معظم المدافعين من الشباب العرب غير مدرب يحمل أسلحة قديمة، وليست لهم قيادة عسكرية عليا، بل كان كل حي يحاول الدفاع عن نفسه بمفرده دون أي ارتباط أو تخطيط مع المسلحين حتى في الأحياء المجاورة الأخرى !! وبعبارة أخرى، فان تحركات اليهود كانت جماعية منظمة، بينما كانت حركات العرب فردية مرتجلة غير منظمة.

وهكذا، رجحت كفة اليهود، وبدأ الهروب الكبير وبخاصة بعد مذبحة دير ياسين البشعة وغيرها من أعمال العنف المنظم الواسعة والمدروسة.

وكان أهلنا في نابلس قلقين علينا، وطالبونا بترك القدس، وأرسل لنا والد زوجتي الحاج أحمد الشكعة سيارتي شحن مع أربعة حمالين أقوياء وصلت القدس مع الفجر، وحملنا أثاث بيتنا وأمتعته بسرعة، ونقل متاعنا إلى نابلس في أواخر شهر شباط ١٩٤٨.

اتفقت مع جاري وصديقي السيد وصفي العنبتاوي (أبو بسام) على مغادرة القدس إلى نابلس في نفس اليوم الذي شحنت فيه أمتعتي إلى نابلس. وكان لدى كل منا سيارة أوستن (١٦) جديدة. فلما وصلنا وعائلتينا إلى باب العمود بالقرب من كراج نابلس الذي كان يملكه (أبو عيسى) توقفنا عند الكراج لأن

Digitized by Birzeit University Library

صوت الرصاص في منطقة الشيخ جراح كان على أشده ، ووصل إلى الكراج السيد عوني عبدالهادي المحامي بسيارة حملها بما استطاع من سجاد بيته الفاخر ناويا السفر إلى نابلس - أيضا - فلما سمع صوت الرصاص عدل عن السفر ورجع.

وبعد نصف ساعة هدأت المعركة، ولم نعد نسمع أزيز الرصاص، وقررنا أن نتوكل على الله، ونتابع رحلتنا إلى نابلس. طلب إليّ الأستاذ العنبتاوي أن يُركّب معي في سيارتي ابنه البكر بسام وقال "إذا صار شيء يبقى واحد من العائلة" وركب بسام مع عائلتي بسيارتي. ولما كنت أعرف أن سياقة أبي بسام كانت على قد "الحال" وشعرت أن الرجل متوتر الأعصاب قلت له سأسافر أمامك وأنت تتبعني بسيارتك، ولا تتوقف تحت أي ظرف كان. واجتزنا منطقة الشيخ جراح دون أي حادث، ووصلنا نابلس بسلام، وتنفسنا الصعداء.

وكان الطبيب البيطري في نابلس الدكتور أحمد حمدي سابق قد ترك نابلس هاربا إلى مسقط رأسه في سوريا فتسلمت دائرة البيطرة أدير شؤونها قدر المستطاع. وكانت قد تشكلت في نابلس لجنة قومية برئاسة رئيس البلدية المرحوم سليمان طوقان، وعضوية لفيف من وجهاء المدينة. وطلبت اللجنة القومية من جميع الدوائر الحكومية، والموظفين الاستمرار في أداء واجباتهم وخدماتهم بدون راتب، وانقطعت رواتب الموظفين مدة ثلاثة أشهر.

وبقي الحال كذلك إلى أن تواجد الجيش العراقي بكتائبه ودباباته ومدفعيته في منطقة نابلس وطولكرم بقيادة "الزعيم طاهر الزبيدي" الذي تمركز في سراي الحكومة (بناية تيجارت) شرقي المدينة وتسلم مسؤولية الإدارة المدنية، وعين السيد مهيب الخياط (أبو ياسين) ، من كبار موظفي مكتب الحاكم البريطاني بنابلس سابقا ، رئيسا لديوانه للشؤون المدنية، وبدأ يصرف رواتب الموظفين المدنيين. ثم انسحب الجيش العراقي من المناطق التي تواجد فيها بالضفة الغربية، وتسلم مكانه الجيش العربي الأردني بقيادة الفريق عمر باشا مطر، وكان مقره في سراي الحكومة بمدينة رام الله.

Digitized by Birzeit University Library

وفي سنة ١٩٤٩ ألحقت جميع الدوائر المدنية بالضفة الغربية بالوزارات المختصة في عمان - الأردن بعد أن بايع أهل الضفة الغربية الملك عبدالله ملكا عليهم وقبل البيعة. وكان وكيل وزارة الزراعة آنذاك السيد نصوح الطاهر النابلسي الأصل ... وبدأت الحياة تعود إلى مجاريها الطبيعية.

من تجارب الطب البيطري في عهد الانتداب

في سنة ١٩٤٣ تقدم أحد الأطباء البيطريين العرب بطلب وظيفة إلى دائرة البيطرة. وكانت حكومة فلسطين تستورد الأبقار من الخارج، وتحفظها في محجر صحي بيطري بمدينة اللد لتوزعها على مدن فلسطين لتزويدها باللحوم حسب الحاجة. ولم تكن هنالك وظيفة شاغرة لطبيب بيطري، فقبل مقدم الطلب وظيفة مأمور المحجر الصحي البيطري وعين مسؤولا عنه في اللد. وبعد تعيينه بمدة قصيرة اتصل ذلك الطبيب هاتفيا بمدير البيطرة البريطاني المستر سيمنز في مكتبه بالقدس وقال له:لدي طاعون بقري في المحجر !!

الطاعون البقري أخطر وباء يمكن أن يصيب الفصيلة البقرية، وقد تصل نسبة النفوق بسببه في المناطق المصابة إلى ١٠٠٪. وكان قد وفد إلى فلسطين في أواخر العشرينيات، وقضى على أعداد كبيرة من الأبقار. وسماه الفلاحون محليا في ذلك الوقت مرض "أبو هدلان" كما روى من عاصروه من المزارعين.

ومن عجيب الصدف أن اثنين من ضباط الجيش البريطاني في الهند وكلاهما طبيب بيطري كانا في زيارة لمكتب مدير البيطرة البريطاني. صاح المدير بالهاتف : هل أنت متأكد ؟ قال: نعم يا سيدي، لقد شرحت الحالة، ووجدت فيها علامات الطاعون البقري . والجدير بالذكر، أن الهند في ذلك الوقت كانت تعد منبع الطاعون البقري في آسيا.

Digitized by Birzeit University Library

اصطحب المدير الطبيبين البيطريين البريطانيين معه واتجهوا إلى اللد فورا. وجدوا أن عجلا واحدا فقط قد نفق وكان مشرحا. فحص الأطباء البريطانيون الثلاثة الحالة التي أمامهم، وتأكدوا أنها ليست طاعوناً بقرياً ولا ما يحزنون ... كانت حالة التهاب شديدة في الأمعاء.

أُحرج المدير أمام ضيوفه، فما كان منه إلا أن أنهى عمل ذلك الطبيب البيطري فورا، ثم أرسل إليه كتابا رسميا بالاستغناء عن خدماته بسبب قلة كفاءته الفنية. طلبني المدير البريطاني لمكتبه وأطلعني على نسخة كتاب إنهاء الخدمة الذي أصدره وسألني: هل صحيح أنك متخرج من نفس كلية الطب البيطري التي تخرج منها الدكتور كمال الطاهر ؟ قلت: نعم. قال المدير: شيء عجيب ... من الصعب تصديق ذلك !.

وقبل إنهاء الانتداب على فلسطين بحوالي ثمانية أشهر، طلبني المدير إلى مكتبه وقال: قررت تقديرا مني لإنجازاتك إرسالك في بعثة دراسية إلى لندن على حساب الحكومة مع الاستمرار في دفع راتبك حسب الأنظمة، فما رأيك؟ قلت: موافق، وشكرا. قال: استعد للسفر إلى انجلترا بعد حوالي شهرين، سأتخذ الأجراءات اللازمة لإلحاقك بدراسات عليا للتخصص في الأمراض المشتركة بين الأنسان والحيوان "Zoonosis" المتعلقة بموضوع الطب البيطري، والصحة العامة (Veterinary Public Health). وذلك لتعود إلينا من أجل تعيينك في وظيفة جديدة هامة غير موجودة الآن، بحيث تصبح ضابط ارتباط بين دائرتي الصحة والبيطرة. ولكن البعثة لم تتم وذلك وبسبب النية على إنهاء الانتداب حيث قررت حكومة فلسطين قبل إتمام إجراءات إيفادي في بعثة دراسية إيقاف جميع البعثات إلى الخارج، وأعلمني المدير بذلك أسفا.

ومرت الأيام، وانتهى الانتداب البريطاني على فلسطين، وانضمت الضفة الغربية لتصبح ضمن المملكة الأردنية الهاشمية، وإذا بالدكتور كمال الطاهر

Digitized by Birzeit University Library

يُعيّن مديرا لدائرة البيطرة في المملكة، وأصبحت أحد الأطباء البيطريين العاملين في دائرته. ذلك أنه لما ترك فلسطين ذهب لعمان وكان الدكتور فوزي الملقي (دولة الدكتور فوزي الملقي فيما بعد) طبيبا بيطريا في عمان. وكان دولة إبراهيم باشا هاشم رئيسا للوزراء، فصدرت الإرادة الملكية السامية بتعيين الدكتور فوزي الملقي سفيراً للمملكة في القاهرة الذي أصبح فيما بعد رئيسا للوزراء في الأردن، وهكذا شغرت الوظيفة، وعين الدكتور كمال الطاهر مكانه، ثم أصبح مديرا للبيطرة في الأردن قبل ضم الضفتين بفضل قريبه السيد نصوح الطاهر ، وكيل وزارة الزراعة في المملكة.

وهكذا، وجدت نفسي بعد ضم الضفتين فجأة أواجه ظروفا محزنة فرضتها طبيعة هذه المرحلة، وكانت نقلة إلى الوراء بكل المقاييس، وتحولت من العمل الرسمي في دائرة راقية، وإدارة قادرة تسير بموجب تخطيط فني واضح المعالم، وجو علمي يساير العصر الحديث، مدعوم بخدمات مختبرات بيطرية مجهزة ومؤهلة علميا، وميزانية كافية إلى العمل في دائرة مهلهلة ليس لديها مختبرات بيطرية، وبدون تخطيط واع، ولا تزال تستعمل أدوية عفى عليها الزمن، وخدماتها مرتجلة، وميزانية هزيلة لا يمكن أن تحقق الهدف من دائرة البيطرة في المحافظة على الثروة الحيوانية، وإنمائها، ومكافحة الأمراض الحيوانية السارية والمعدية المتوطنة، ناهيك عن الأمراض الحيوانية الخطرة الوافدة، والأمراض الحيوانية التي تعدي الأنسان. كان الفرق شاسعا وهائلا حقا... ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ولا بد أن السيد نصوح الطاهر ، وكيل وزارة الزراعة ، كان يلمس ذلك، فقد سبق وتعرفت عليه، عندما كان موظفا بدائرة الزراعة بنابلس بوظيفة مفتش معاصر الزيتون فيها زمن الانتداب حين كانت دائرة الزراعة في البناية نفسها مع دائرة البيطرة بالجبل الشمالي قرب دير الراهبات ، وذلك عندما كنت أنتدب للقيام بأعمال طبيب لواء السامرة البيطري عند حصوله على إجازة سنوية،

Digitized by Birzeit University Library

وحين كانت درجتي في الوظيفة أعلى من درجة رئيسه مدير زراعة نابلس. كان هذا قبل أن يذهب إلى عمان ويصبح وكيلا لوزارة الزراعة الأردنية.

أقف هنا عن سرد ذكرياتي أثناء خدمتي مع الحكومة الأردنية لأعود للوراء قليلا لسرد بعض الذكريات البارزة التي وقعت زمن الانتداب البريطاني على فلسطين، ثم أعود لتكملة ذكرياتي زمن الأردن.

الليدي مكمايكل (زوجة المندوب السامي البريطاني):

كانت زوجة المندوب السامي البريطاني على فلسطين الليدي مكمايكل تهوى تربية بعض الحيوانات، والطيور الداجنة في حديقة قصر المندوب السامي بالقدس. وكانت تعتني بتربية بعض الأغنام، والدجاج، والأرانب، والخنازير، كان لديها طاووس أيضا الخ.

كان مدير البيطرة لحكومة فلسطين طبيباً بيطريا بريطانيا اسمه "جلبرت سيمنز"، حيث وجد مكتبه ومكاتب دائرة الزراعة في عمارة الأوقاف الكبيرة في ماميلا بالقدس. وعندما يمرض أحد حيوانات أو طيور الليدي ماكمايكل كانت تطلب من مدير البيطرة إيفاد طبيب بيطري لمعالجتها، فيتصل بي المدير هاتفيا ويطلب مني الأسراع إلى قصر المندوب السامي حيث تنتظرني الليدي ماكمايكل. ولا بد لي من الأشارة هنا إلى أنه كان يوجد في القدس أطباء بيطريون يهود يعملون في الحكومة وجميعهم أقدم مني، وأكبر سنا، وأعلى درجة، إن أنني كنت في ذلك الوقت في أواسط العشرينيات من عمري ولم يمض على تعييني بدائرة البيطرة إلا حوالي سنتين. ولما كان مدير الدائرة البريطاني يهمه أن يبْيض وجهه مع زوجة المندوب السامي، فقد كان يخصني بهذه المهمات اعتقادا منه بأنني على درجة عالية من الكفاءة الفنية البيطرية.

Digitized by Birzeit University Library

في سنة ١٩٤٤ كان الأمير عبدالله ، أمير الأردن في ذلك الوقت ، قد أهدى الليدي ماكمايكل أربعة نعاج. وبعد عدة أيام من وصولها نفقت نعجة منها، فاتصل بي مدير الدائرة البريطاني، وأعلمني بنفوق نعجة الليدي ماكمايكل قائلا : الليدي بانتظارك ؛ أعلمني سبب نفوق النعجة.

قمت بتشريح جثة النعجة النافقة، واهتديت إلى المرض الذي سبب النفوق، وأخذت عينات للفحص المخبري (لا لأنني كنت في شك من الأمر ولكن لأن الأمر يخص الليدي أولا، ولكي أثبت للمدير البريطاني مرة أخرى أنني متمكن من عملي ثانيا). النعجة نفقت لأنها كانت تعيش على الرعي الطبيعي والغذاء الخفيف، فلما صارت تتغذى على الحبوب والأعلاف المركزة حصل لديها فجأة مرض قاتل يدعى "التسمم الداخلي الذاتي " (Enterotoxaemia or Pulpy Kidney Disease). قلت لليدي : لقد نفقت النعجة لأنك كريمة أكثر من اللزوم - فإذااستمر كرمك هذا فأن النعجات الثلاث الأخرى ستنفق أيضا. استغربت الليدي هذا الكلام وطلبت تفسيرا. شرحت لها الموضوع، ونصحتها بإيقاف العلف المركز وإعطاء الدجاج تبنا ونخالة، وبعض الحشائش الخضراء فقط مدة أسبوع، ثم إعطاؤها ثلث كمية العلف المركز التي كانت تقدمها لها بالإضافة إلى التبن والنخالة، والحشائش، وأن لا تنسى أن تضيف ١٪ من ملح الطعام لكمية العلف المستعملة.

أرسلت العينات إلى المختبر، وأعلمت المدير بأنني متأكد من تشخيصي. أثبت المختبر البيطري صحة تشخيصي هاتفيا للمدير والي، ثم أتبع ذلك بتقرير خطي "Enterotoxaemia confirmed". سألني المدير: كيف أبلغت الليدي بقرارك قبل ورود فحص المختبر؟ ألم يكن هنالك احتمال أن تكون مخطئا؟ أجبته: لم أكن لأقوم بذلك لو لم أكن متأكدا ، ثم ألا ترى أن النعاج الأخرى كانت ستنفق لو لم أتخذ الأجراء السريع اللازم؟ قال : محتمل جدا.

Digitized by Birzeit University Library

مزرعة الحكومة في عكا:

أثناء فترة تجربة السنتين نقلت مؤقتا للقيام بأعمال الطبيب البيطري للواء حيفا اليهودي الدكتور كانتر ، الذي منح إجازة سنوية لمدة شهر، وكان يدير مزرعة الحكومة للتجارب الزراعية في عكا إنجليزي اسكتلندي اسمه المستر كاميرون. استلمت مكالمة هاتفية من المستر كاميرون بأن حصانا عربيا أصيلا يخص المزرعة مريض، فتوجهت فورا إليها.

وجدت الحصان العربي الأصيل في حالة إعياء شديد. قمت بفحصه بدقة ... لاحظت عدم تناسق حركات الحصان، هبوط في درجة حرارته وفقدان الشهية للأكل، الشفة السفلى متدلية، ورائحة كريهة تنبعث من فمه ، ثم انبطح الحصان على الأرض، ولم يعد قادرا على الوقوف ... بقيت ألاحظه مستذكرا في ذهني حالات التشخيص المقارن ... أهي حالة تسمم "بوتيولزم"؟ أهي حالة داء كلب؟ أهي حالة من مرض الكزاز؟... الحصان أصبح أعمى لا يرى ، عينا الحصان مفتوحتان أكثر من الطبيعي، وبالفحص تبين لي أن الحصان فقد حاسة البصر (أو القدرة على النظر). هذه الحالة لم أرَ مثلها من قبل، وتركز انتباهي بشكل خاص على عيني الحصان، ولا أدري ، وحتى كتابة هذه السطور بعد سنوات طويلة ، كيف هداني تفكيري آنذاك إلى أن سبب ذلك يجب أن يكون إصابة في الدماغ... واتجه ذهني إلى مرض فيروسي خطر جدا ومعد يصيب الفصيلة الخيلية (مرض التهاب السحايا المخية المعدي) (Equine Encephalomyelitis) ولكن ذلك المرض غير موجود في فلسطين، ولا في البلاد المجاورة لها! حتى أنه غير مسجل في قائمة الأمراض الحيوانية السارية والمعدية التي نص عليها قانون أمراض الحيوانات، بأنها أمراض موجودة في فلسطين، ويقتضي الإبلاغ عنها؟!!

كان الموقف حرجا... الحصان ثمين جدا... كنت في السنة الأولى من

Digitized by Birzeit University Library

تعييني ... ما العمل ؟... حزمت أمري، واعتمدت نتيجة فحصي، وإلهامي، وطلبت من المستر كاميرون أن يصلني هاتفيا مع المستر سيمنز ، مدير دائرة البيطرة البريطاني بالقدس. قلت للمستر سيمنز : لدي حالة غريبة أصابت حصاناً عربياً أصيلاً في مزرعة الحكومة بعكا، وإنني أشتبه بأنها حالة (E.E.). صاح المدير هاتفياً: ماذا تقول؟! كررت ما قلته بأنني أشتبه اشتباها قويا... قال المدير: ابق في المزرعة، أنا قادم حالا ... وبعد حوالي أربع ساعات قضيتها في مراقبة الحالة، وتقديم بعض الأسعافات الأولية وصل المستر سيمنز مصطحبا معه المستر بنز، وهو بريطاني أيضا، ومدير المختبر البيطري لحكومة فلسطين، وكذلك الدكتور كومووف ، أحد الأطباء البيطريين الاسرائيليين البارزين. وفحصوا الحالة، ولم يستطيعوا تأكيد أو نفي المرض الذي اشتبهت به. وأنكر أن المدير حاول بنفسه حقن الحصان علاجا بالوريد. حاول ثلاث مرات ولم يفلح في إدخال إبرة الحقنة في الوريد. قلت له : اسمح لي من فضلك، وتناولت الحقنة من يده، وحقنتها في الوريد. قرر المدير أن يبقى في المزرعة ويقضي الليلة ضيفا على المستر كاميرون لمراقبة الحالة. وغادرت المزرعة مساء إلى حيفا، وكذلك غادر مرافقو المدير دون التوصل إلى قرار عن الحالة المرضية.

وعدت والمستر بنز والدكتور كومووف في صباح اليوم التالي لنجد أن الحصان قد نفق. قال المستر بنز ، مدير المختبر البيطري لحكومة فلسطين ، أنه يؤيد الدكتور كمال في الأشتباه بمرض (E.E.) بالرغم من استغرابه بكيفية انتقال العدوى إلى هذا الحصان بالذات في مزرعة عكا؟! خاصة وأن المرض لم يحدث في فلسطين ألبتة. وأضاف أن المختبر البيطري في فلسطين غير مؤهل لفحص مثل هذه الحالة، ولا يمكنه إثبات أو نفي الأصابة ، واقترح إرسال دماغ الحصان بأول طائرة إلى مختبرات بيربرايت قرب لندن لفحصه هناك.

Digitized by Birzeit University Library

وافق المدير على ذلك، وأرسل مخ الحصان إلى انجلترا بأول طائرة مغادرة إلى لندن من مطار اللد بعد أن فصل رأس الحصان، ونقل إلى المختبر البيطري في يافا، حيث استخرج مخه، وقسم نصفين : يمين ويسار... وضع نصفه في محلول ٥٠٪ جلسرين من أجل زراعة الفيروس، ووضع النصف الآخر في محلول ١٠٪ فورمالين لفحوصات مخبرية لاحقة أخرى.

وبعد عدة أيام وردت برقية من مختبرات بيربرايت تفيد أنه ثبت بالفحص المخبري للعينة المرسلة مرض (E.E.) (E.E. Confirmed). اتصل بي المدير هاتفيا، وأعلمني بنص البرقية، وأثنى عليّ وهنأني على كفاءتي ... وتنفست الصعداء إذ أنني في الحقيقة كنت قلقا... ماذا لو أفاد المختبر بالنفي ؟! ولكن، ألم يكن من الواجب أن أتصرف كما تصرفت ؟ ثم إن هنالك أهم ثلاثة أطباء بيطريين بالدائرة لم يستطيعوا تقرير إيجابية أو سلبية الحالة؟!... وشعرت بالارتياح والغبطة، وزادت ثقتي بنفسي ... ومن يومها ارتفعت أسهمي ارتفاعا صاروخيا عند المدير، ومدير المختبرات، وجميع الزملاء في الدائرة، وكان معظمهم من اليهود . وكان من نتيجة ذلك أن أضيف مرض (E.E.) إلى الأمراض المسجلة في قانون أمراض الحيوانات الواجب الأبلاغ عنها.

طاعون الخيل الأفريقي:

وفد على فلسطين سنة ١٩٤٤ مرض فيروسي وبائي خطير يصيب الخيل والبغال يسمى "طاعون الخيل الأفريقي". ويسمى المرض في مصر والسودان مرض "النجمة" وذلك لأن من جملة أعراض هذا المرض أنه يحيل التجويفين المقعرين الموجودين في صباح الخيل فوق العينين إلى كرتين محدبتين وكأنهما نجمتان. ومن مزايا هذا المرض الفريد أن الخيل والبغال المصابة به تبقى تتناول العلف، وتأكل حتى تنفق، وذلك بعكس ما يحصل في الأمراض الأخرى. الأصابة في الخيل والبغال تكون قاتلة إلا في حالات نادرة جدا، كما أن

Digitized by Birzeit University Library

الحمير - مع أنها من الفصيلة الخيلية - لديها مناعة طبيعية ضد المرض ، ولا تصاب به. ولا تصاب بهذا المرض فصائل الحيوانات الأخرى كالأبقار، والأغنام، والجمال. وينقل المرض بواسطة حشرة طيارة صغيرة الحجم.

أعلنت حالة الطوارىء في دائرة البيطرة، ومنعت العطلة الأسبوعية والإجازات حتى في الأعياد الرسمية، وصدرت أوامر عليا من السكرتير العام لحكومة فلسطين إلى الحكام الإداريين، والشرطة، وكل من يعنيهم الأمر بتقديم كل المساعدات التي يحتاجها الأطباء البيطريون الحكوميون فورا. ولم تكن الهواتف أوتوماتيكية بحيث كان طلب المكالمة الداخلية أو الخارجية يحول بعد الأتصال مع السنترال في البريد، وكان الطلب الهاتفي الخارجي يأخذ وقتا طويلا قد يصل إلى ساعات حتى يتم الاتصال، فصدرت الأوامر إلى مدير عام البريد بإعطاء الأولوية المطلقة لدائرة البيطرة، ولو أدى ذلك إلى قطع خط آخر بحيث يفتح الخط لأي اتصال بيطري فورا وبدون أي انتظار.

وكان مدير البيطرة البريطاني (المستر سيمنز) يداوم في مكتبه يوميا حتى منتصف الليل لتلقي تقارير مناطق فلسطين عن الأوضاع في كل منطقة، وتسجيل عدد الوفيات، وعدد الخيل والبغال المصابة التي تم إتلافها رميا بالرصاص وحرقها ودفنها... وتذاع مجمل الحوادث ضمن نشرة الأخبار الصباحية من محطة الأذاعة.

كانت الأوامر الأولى تقضي بإتلاف كل رأس مصاب بالرصاص في صباحه وحرق الجثة ودفنها عميقا في الأرض على عمق ستة أقدام (حوالي مترين) في مكان بعيد عن مصدر المياه. وكان كل طبيب بيطري مزود بدفتر شيكات حكومي، بحيث يصرف شيكا، ويدفعه لصاحب الرأس المصاب الذي يتلفه تعويضا عن الحالة التي قتلت رميا بالرصاص. ولم يكن يدفع تعويض للحالات التي تنفق.

Digitized by Birzeit University Library

كان طبيب غزة البيطري المرحوم الدكتور عبدالفتاح السباسي متقدما في السن ومن خريجي تركيا، وعند اكتشاف الحوادث الأولى من المرض طلب إلى المدير البريطاني الاستعداد للانتقال المؤقت من القدس إلى غزة، ثم صحبني إلى مكتب البيطرة في غزة، وطلب مني أمام الدكتور السباسي أن أكون المسؤول عن مكافحة مرض طاعون الخيل الافريقي في منطقة غزة التي كانت تشمل المنطقة الواسعة من الحدود المصرية، وحتى حدود يافا عند قرية المسمية الكبيرة، بما في ذلك منطقة بئر السبع الواسعة. ولم يرق هذا الحال للدكتور السباسي الذي قال للمدير: "شو أنا يعني شرابة خرج؟" قال المدير : لا، ولكن نحن نواجه موقفا خطيرا جدا، وفي هذه المنطقة المترامية الأطراف نحن بحاجة إلى همة الشباب (كنت في الرابعة والعشرين من عمري)... أنت يا د. سباسي تبقى تباشر الأعمال البيطرية الروتينية العادية الأخرى... أما مكافحة وباء طاعون الخيل يتولاها الدكتور كمال، ويجب وضع جميع موظفي مكتب بيطرة غزة تحت إمرته. ثم عرفني المدير على مساعد حاكم لواء غزة البريطاني آنذاك "المستر دافيلد" وغادر للقدس.

لم تكن العلاقة مريحة بين الدكتور سباسي وبيني في الأيام الأولى... ولكن ذلك الوضع تغير بعد أن لمس ما أكن له من الاحترام ، وبالمسايرة والتظاهر بمشاورته، وطلب النصح منه في أمور لم أكن بحاجة الى أجوبة عنها، مشعرا إياه بتقديري لسنه وخبرته ، تغير الرجل وصار يعتبرني أحد أولاده (كان ابنه طاهر بمثل سني) حتى أنه دعاني عدة مرات لتناول الغذاء في منزله وأصبحنا أصدقاء.

عين لي مساعد حاكم اللواء البريطاني بناء على طلبي (٦٠) شرطيا إضافيا براتب عشرة جنيهات شهريا لكل واحد، كانت مهمتهم ، بعد توزيعهم على مفارق الطرق، ومداخل المدن ،منع تحرك الفصيلة الخيلية على الطرق العامة بعد أن صدرت الأوامر بوجوب إبقاء الفصيلة الخيلية داخل اسطبل أو عقار، ومنع خروجه لأشعار آخر.

Digitized by Birzeit University Library

لم يكن في مدينة غزة فندق جيد. وكان قطاع غزة يعج بمعسكرات للجيش البريطاني. وكانت المسز روبنسون ، وهي سيدة بريطانية ، تدير بنسيونا لبعض الضباط البريطانيين من الرتب العالية. ووافقت المسز روبنسون على تأجيري غرفة من بنسيونها بناء على طلب من مساعد حاكم اللواء.

كنت أعمل يوميا حوالي (١٤-١٥) ساعة، وأتصل هاتفيا قبيل منتصف الليل بالمدير في القدس لتقديم التقرير اليومي.

طلبت حكومة فلسطين كميات من اللقاح الواقي ضد طاعون الخيل الأفريقي من مختبرات أوندرستبورت (Ondersteport) بجنوب أفريقيا، ووصلت أول شحنة من اللقاح بطائرة خاصة إلى مطار اللد، وكان الأطباء البيطريون بسياراتهم الخاصة، وأنا منهم في المطار بانتظار هبوط الطائرة. فلما استقرت الطائرة على مدرجها سمح للأطباء البيطريين بالدخول بسياراتهم إلى أرض المطار حيث الطائرة، ووزعت كميات مناسبة من اللقاح علينا، وانطلقنا كل من المطار فوراً لمنطقة عمله وبدأت معركة تلقيح جميع الخيل والبغال في فلسطين تلقيحا وقائيا مجانيا وبأسرع وقت ممكن.

كنت قد رسمت خطة للتلقيح الوقائي بحيث يجري العمل في العديد من القرى كل يوم. وكانت التعليمات أن يدمغ (يعلم) كل رأس يجري تلقيحه بالكي بالحديد المحمى على الكفل الأيسر دلالة على تلقيحه. كانت علامة الكي في غزة "GZ". لذلك، وبناء على أمر من مساعد حاكم اللواء، كان يرافقني يوميا شاويش شرطة يصحبني في سيارتي، وتتبعني سيارة شرطة " بيك أب" مع سائقها، والشرطي النعال (الذي كان يعتني بخيل الشرطة في مراكزها) ومعه "الكور" الذي يستعمل فيه الفحم الحجري لإحماء حديد علامة الكي لوسم الخيل والبغال الملقحة.

Digitized by Birzeit University Library

وكانت قد صدرت تعليمات مشددة من حاكم اللواء إلى جميع المخاتير بوجوب تحضير، وجلب جميع الخيل والبغال للتلقيح في الموعد والساعة التي يعينها لهم الطبيب البيطري. واستمر العمل الميداني بهمة لا تعرف الكلل وبنظام دقيق.

وفي أوائل أيام وجودي في مكتب غزة، وردتني مكالمة هاتفية من أحد مفتشي المواشي، وكان يتكلم من مركز شرطة مجدل عسقلان حيث أعلمني أنه وجد بغلة مصابة بالطاعون في قرية السوافير الشرقية، وسلّمها لمختار القرية لحين حضوري لإتلافها، أخذت مسدس قتل الحيوانات، ودفتر شيكات التعويض، وأسرعت إلى المجدل، واصطحبت مفتش المواشي إلى السوافير الشرقية. وسألت المختار عن البغلة فلم يتجاوب معي. وكان متقدماً في السن، ويتولى المخترة منذ سنوات طوال، وابن حمولة كبيرة، ويعد من مشايخ المنطقة بالأضافة للمخترة في قريته.

تركته، ورجعت إلى مركز شرطة المجدل، وهاتفت من مكتب ضابط المركز البريطاني مساعد حاكم اللواء في غزة وأعلمته بما كان. أمر مساعد الحاكم ضابط المركز أن يتحرك إلى قرية السوافير الشرقية مع دورية شرطة، وأن يحضر له في مكتبه بغزة مختار السوافير الشرقية مقبوضا عليه، وأن يترك شرطة للبحث وعن البغلة المصابة.

وقبل المساء، استدلت الشرطة على مكان وجود البغلة المصابة، وكان صاحبها قد هربها إلى قرية مجاورة، وجرى إتلافها وحرقها ثم دفنها بدون تعويض، لأن صاحبها أخفاها، وفي المساء أعلمني مساعد حاكم اللواء بما فعل مع المختار.

أدخل الشرطي المختار، بعد القبض عليه، لمكتب مساعد حاكم اللواء، وهمّ

Digitized by Birzeit University Library

المختار بالجلوس على كرسي فنهره المساعد قائلا: لم آذن لك بالجلوس، ابق واقفا... أنت مختار مش كويس... خالفت الأوامر... ذنبك كبير، أنت معزول عن المخترة... هات ختمك، وأخذ منه ختم المخترة. حكمت عليك بالسجن شهرين أو دفع (٤٠) جنيها غرامة. بهت المختار، وفوجىء بهذا الإجراء الحازم السريع. دفع الغرامة، وانصرف مذهولا.

وانتشر الخبر في جميع قرى غزة... مختار السوافير الشرقية انعزل من المخترة ودفع غرامة (٤٠) جنيها لأنه خالف أوامر الطبيب البيطري.

وقد ساعدني ذلك كثيرا عندما بدأ التلقيح الوقائي ضد المرض في إكمال التلقيح بوقت قياسي. فعندما كنت أصل إلى قرية ما بعد إبلاغ مختارها عن موعد التلقيح، كنت أجد المختار، وأعضاء لجنة القرية واقفين وجامعين جميع الخيل والبغال وأصحابها ممسكون أعنتها ينتظرون حضوري مع فريق التلقيح. واستمرت حملة التلقيح بانتظام وسرعة متناهية حتى نهايتها. "وما بجيب الرطل إلا رطلين" كما يقول المثل. انحسر الوباء، وتوقف بعد الانتهاء من حملة التلقيح الوقائي، وسلمت البلاد من شر هذا الوباء الخطير.

عندما تمت الحملة الوقائية في منطقة غزة وبئر السبع طلب إلي مدير الدائرة التوجه إلى نابلس للمساعدة في إكمال التلقيح الوقائي الذي لم يكن قد انتهى بعد ، علما بأن تعداد الخيل والبغال في منطقة غزة وبئر السبع كان أكثر من ضعفي الموجود في لواء نابلس.

قبيل مغادرتي لغزة زارني في مكتبي مختار قرية المسمية الكبيرة، (أذكر أنه كان في قرية المسمية الكبيرة وحدها مائة رأس من الخيل والبغال) ومعه ثلاثة مخاتير من كبار منطقة غزة. كان مختار المسمية الكبيرة من آل مهنا يعد من زعماء المنطقة، وينتمي إلى حمولة عريقة... جاؤوني يشكرون

Digitized by Birzeit University Library

جهودي في مكافحة الوباء ووقف خطره... ويتشفعون بمختار السوافير الشرقية... هذا رجل كبير... أخطأ ونال جزاءً قاسيا ويكفيه ما ناله ، لذلك نرجوك إعادته إلى المخترة، وأملنا كبير أن تلبي رجاءنا. قلت: تكرموا يا وجوه الخير... سأبذل كل ما استطيع.

هاتفت مساعد حاكم اللواء (المستر دافيلد) طالبا زيارته لتوديعه قبل مغادرتي غزة. قال: ما رأيك أن تتناول العشاء معي في بيتي هذه الليلة ؟ فوافقت شاكرا.

وفي بيته رويت لمساعد الحاكم زيارة المخاتير لي، وأن الوباء قد توقف الآن وزال خطره، فما رأيك أن تتكرم بإعادة ختم المخترة إلى صاحبه؟ قال المساعد: ما دمت قد سامحته، وكان لإقالته التأثير المطلوب، فلا مانع لدي من إعادته مختارا.

في اليوم التالي، استدعى المستر دافيلد مختار السوافير الشرقية، وأعاد تعيينه مختارا، وسلمه ختم المخترة بعد أن ألقى عليه درسا في وجوب تنفيذ الأوامر الرسمية.

كانت حصيلة وباء طاعون الخيل الأفريقي في فلسطين سنة ١٩٤٤ أن نفق وقتل (١٥٠٠) رأس من الخيل والبغال التي أصيبت بالمرض، وجرى تلقيح (٣٠٠٠٠) رأس تلقيحا وقائيا.

وبعد انتهاء الحملة تسلّم كل طبيب بيطري حكومي رسالة خطية موقعة من السكرتير العام لحكومة فلسطين يشكر فيها الجهود الجبارة التي بذلها الأطباء البيطريون في مكافحة الوباء وقمعه، وحماية ثروة البلاد الخيلية من الفناء، وما لها من تأثير على الاقتصاد الزراعي العام، وأضاف فيها أنه لولا جهود

Digitized by Birzeit University Library

الأطباء البيطريين في فلسطين لكانت كارثة كبيرة قد حلّت في جميع بلدان الشرق الأوسط.

عند أول زيارة لي لمدير البيطرة البريطاني في مكتبه بعد ذلك ، حملت كتاب الشكر الذي وصلني من السكرتير العام للحكومة، وقلت له مازحا: "هل أستطيع أن أصرف هذا الشيك في بنك باركليز؟!" ضحك المدير ولم يعلق. يظهر بأن النكته كان لها تأثيرها عليه ، لأنني بعد بضعة أيام تسلمت كتابا رسميا بمنحي ترقية درجة، وبأثر رجعي بأكثر من سنة ونصف، ومرفقا بشيك على بنك باركليز بقيمة (١٥٧) جنيها فلسطينيا فروقات راتبي اعتبارا من الأثر الرجعي لتاريخه. كان ذلك مبلغا محترما في تلك الأيام بالنسبة لأي موظف.

عرض مغر لتهريب المخدرات:

بعد فترة من نقلي المؤقت إلى غزة، جاءني شخص طويل القامة وحسن الهندام، وأبلغني بأنه يعرض عليّ عرضا جيداً على أن أعده بكتمان الأمر فوعدته؛ طلب إليّ أن أحمل له شنطة حشيش صغيرة مرة أو مرتين أسبوعياً بحيث أسلمها في مكان يعينه لي مقابل ٢٠٠ جنيه عن كل شنطة .

إنها مفاجأة مذهلة غير متوقعة، لقد كان راتبي ٣٦ جنيهاً شهرياً، وكنت في الرابعة والعشرين من العمر، إن الأمر مغر جداً ... إنه الامتحان الصعب ! كنت لا أخشى الامتحانات في كلية الطب البيطري، أما هذا فخشيت منه على نفسي، وقد لاحظ المهرب ترددي فحاول إقناعي بأن أبلغني أن ضباطاً من الانجليز يهربون له، كما أنني - في العادة - أحمل شنطة الأدوية وأسافر بصحبة الشرطة، فليس أمامي إلا قبول هذه الفرصة التي لا تعوّض فأجبته : " لا يا عم، أنا مش بتاع هيك شغلات " قال : إذن، هون حفرنا وهون دفنا " وانصرف من مكتبي، ولم أره بعد ذلك .

Digitized by Birzeit University Library

ولدي في خطر:

مساء آخر يوم من شهر رمضان، أي يوم الوقفة كنت لا أزال في غزة ، اتصلت زوجتي هاتفيا من نابلس مساء، وأخبرتني أن ابني البكر وضاح ، الذي كان عمره بضعة أشهر، مريض جدا، وأنها استدعت له ثلاثة أطباء من المشهورين في البلد بدون فائدة، وحالته من سيء إلى أسوأ. قلت لها: أنا قادم حالا .اتصلت بالمدير في القدس، وطلبت إجازة ليوم واحد ، يوم أول عيد الفطر (ذكرت سابقا أن الدائرة كانت في حالة طوارىء، وأن الإجازات كانت ممنوعة حتى في الأعياد) واسرعت بسيارتي أسابق الريح ليلا إلى نابلس.

وجدت ابني الطفل في حالة هزال شديد ، يراجع مهما أعطى من غذاء ، مع إسهال وحرارة مرتفعة. كان اليوم يوم جمعة. وكان الأطباء في نابلس يعالجونه بعلاج من علاجات السلفا التي كانت حينئذ في أوائل عهد استعمالها في الطب.

كنت أعرف أن الدكتور نلكن ، وهو يهودي ، من أشهر الأطباء المتخصصين بأمراض الأطفال في القدس. اتصلت به هاتفيا من نابلس، وشرحت له الحالة، وطلبت موعدا لمعالجة ابني. قال الدكتور نلكن: ولكن غدا يوم سبت، وأنا لا أداوم في عيادتي. قلت : يا دكتور، الولد في خطر. قال: إذن، احضره إلى بيتي غدا صباحا. وأعطاني عنوان بيته في رحافيا بالقدس. وفي الصباح الباكر، أخذت طفلي وزوجتي وتوجهنا للقدس. استقبلنا الدكتور نلكن في غرفة عيادة مختصرة في بيته. وزن الطفل بعد أن جرده من جميع ملابسه، ثم فحصه جيدا وقال: ألبسوه ملابسه: وتفضلوا بالجلوس. قال الطبيب: هذاالطفل كان سيموت لو استمر بضعة أيام على هذا الحال. أنا مندهش كيف أن طبيبا يعطي علاج سلفا لمثل هذه الحالة ... ذلك غلط قاتل ... أوقفوا السلفا حالا ... هذا الطفل يجب فقط أن يعطى سوائل بكثرة وبدون سكر ... استعملوا

Digitized by Birzeit University Library

السكرين بدل السكر. هذا الطفل جائع، ويحتاج إلى تنظيم نوع الغذاء، وسوف لا أعطيه أي علاج سوى بعض الفيتامينات ... وناولني ورقة وقال اكتب ... أعطوا الطفل وجبة صغيرة كل ساعتين مرة، وأملى عليّ أنواع الأغذية الواجب استعمالها: مثل موزه مهروسة مع عصير برتقال، زر بطاطا مسلوق جيدا ومهروس ، رز مسلوق بدون سمن ومهروس مع قليل من مرقة دجاج الخ. رجعنا لنابلس وطبقنا حرفيا نصائح الدكتور نلكن، وأمضيت الليلة في نابلس، ورجعت إلى غزة عند فجر اليوم التالي فكنت في مكتبي وقت الدوام كالمعتاد.

كنت أتصل هاتفيا بنابلس صباحا ومساء ، بدأ الطفل يتحسن ... توقفت المراجعة... خف الأسهال... نزلت درجة الحرارة العالية... وبدأ الطفل يسترد عافيته ولونه. وبعد خمسة أيام شفي ابني واسترد حيويته بدون علاج، وكما نصح ذلك الطبيب المتخصص الماهر ، يقول المثل العامي القديم "أعطي الخبز لخبازه ولو سرق نصه"، ومرت الأيام ثم السنين وشاء القدر إنقاذ هذا الطفل على يد طبيب ماهر من خطر محقق ليصبح إبني طبيباً متخصصا يقوم بواجبه نحو مرضاه بتوفيق من الله.

Digitized by Birzeit University Library

معركة جنين وهجوم الجيش العراقي:

بعد إنهاء الأنتداب البريطاني على فلسطين، وانسحاب الجيش البريطاني منها في ١٩٤٨/٤/١٥، تشكلت في نابلس لجنة قومية برئاسة المرحوم سليمان طوقان (أبو غالب) رئيس بلدية نابلس حينئذ لرعاية شؤون المدينة. وكان الناس في هلع وقلق بسبب موجات اللاجئين الذين وفدوا للمدينة من مدن فلسطين وقراها المختلفة هاربين بأرواحهم بعد أخبار المذابح التي حصلت في دير ياسين وغيرها. وامتلأت المدارس، والبنايات العامة بأعداد ضخمة منهم وبعضهم كان ينام في الكهوف، وتحت الأشجار يفترشون الأرض ويلتحفون السماء، وتشكلت لجان أهلية لتزويدهم بالخبز، وبعض المؤن والغذاء، وساهم كل من يقدر من أهل المدينة في ذلك.

ثم جاءت وحدات من الجيش العراقي مزودة بالمدفعية والدبابات، وتمركزت في نابلس وطولكرم وضواحيها، واحتل القائد العراقي الزعيم طاهر الزبيدي سراي الحكومة (بناية تيجارت)، حيث عمل السيد مهيب الخياط بصفته أعلى الموظفين الذين عملوا في مكتب الحاكم البريطاني السابق في مساعدة الزعيم طاهر الزبيدي في شؤون الدوائر المدنية.

ورابط الضابط العراقي العقيد طاهر يحيى في الضاحية الشرقية من مدينة طولكرم قائدا لكتيبة من الدبابات العراقية. (بعد سنوات أصبح العقيد طاهر يحيى دولة طاهر يحيى. رئيسا للوزاء في العراق (سأروي في مكان آخر من هذه المذكرات قصتي مع دولة طاهر يحيى في بغداد).

ثم وقعت معركة جنين المشهورة، هاجمت القوات الإسرائيلية مدينة جنين بقصد احتلالها. واحتلت أجزاء واسعة من المدينة، وتخطتها إلى التلال الواقعة إلى الجنوب على جانبي الطريق الخارجة من جنين إلى نابلس. وتنادى شباب نابلس المسلحون، وتجمعوا للذهاب بالشاحنات إلى جنين للدفاع عنها.

Digitized by Birzeit University Library

وتحركت فورا قوات من الجيش العراقي النظامي تساندها المدفعية والدبابات، واشتبك الجيش العراقي والمسلحون في معارك ضارية مع القوات الاسرائيلية. وزمجرت المدافع العراقية مرسلة حممها من مناطق في سهل عرابة وغيرها بغزارة على القوات الأسرائيلية، وبدأ الاسرائيليون في الأنسحاب وازداد ضغط القوات العراقية والمسلحين، واشتدت المعركة واستمرت الى أن قرر الأسرائيليون الانسحاب من مواقعهم، ومن مدينة جنين متقهقرين إلى طريق جنين -العفولة وازداد الحماس واندفعت قطاعات من الجيش العراقي مجتازة مدينة جنين ومتجهة إلى العفولة بقوة وتصميم على احتلالها ... إلا أن الهجوم العراقي توقف فجأة وراجت اشاعات كثيرة كان إحداها أن قائد الهجوم العراقي تلقى أمرا عسكريا بالتوقف، والرجوع بقواته إلى جنين ومنها أن القائد العراقي (عمر علي) تلقى إنذارا لاسلكيا من جلوب باشا، قائد الجيش الأردني، البريطاني الجنسية في ذلك الوقت بالتوقف عن الهجوم، وأنه سيقصفه بالمدفعية إن لم يمتثل للطلب. والله أعلم... ولكن الحقيقة تبقى أن الجيش العراقي توقف عن الهجوم وهو في أوج انتصاره. ولعل الأيام تبين حقيقة ما حصل إن كان هنالك من يعرف الحقيقة.

روى لي شاهد عيان وهو ابن عمي المرحوم الدكتور نصفت نديم كمال ، الذي كان مديرا لصحة جنين في ذلك الوقت أنه لجأ عند الهجوم الاسرائيلي على جنين إلى عمارة الشرطة (بناية تيجارت) الواقعة في الطرف الغربي من مدينة جنين. " هاجمت القوات الإسرائيلية عمارة الشرطة بنيران كثيفة ولكن الشرطة المتواجدين فيها الذين لم يتجاوز عددهم ثلاثين فردا دافعوا عنها دفاع الأبطال بما لديهم من أسلحة... ولم يتمكن الاسرائيليون من احتلال العمارة التي بقيت صامدة الى أن انسحب الاسرائيليون من مدينة جنين. ولا تزال آثار طلقات المدافع الرشاشة على الجدران الخارجية لعمارة الشرطة شاهدة على ذلك ".

Digitized by Birzeit University Library

مبايعة الملك عبدالله:

دعت اللجنة القومية في نابلس ، برئاسة المرحوم سليمان طوقان ، رئيس بلدية نابلس إلى اجتماع عام لوجهاء المدينة ورجالاتها في حديقة المنشية التابعة لبلدية نابلس، وحضر الإجتماع جمع غفير، وألقيت الخطب والكلمات، وأذكر أن المرحوم أحمد طوقان (أبو العبد) ألقى خطابا وافيا شرح فيه الأوضاع مقترحا مبايعة الملك عبدالله بالملك... وتقرر بالإجماع إرسال وفد من رجالات المدينة، ووجوه العائلات لمبايعة الملك عبدالله في اليوم التالي.

وتشكل الوفد برئاسة المرحوم سليمان طوقان، وكان منهم المرحوم الحاج أحمد حسن الشكعة، والمرحوم الحاج شافع عبدالهادي، والمرحوم الحاج سعيد كمال والمرحوم الأستاذ المحامي عبداللطيف صلاح، والمرحوم أحمد طوقان وغيرهم كثيرون. أقلّتهم حوالي عشرين سيارة صباح اليوم التالي، وسار الموكب إلى قصر الملك عبدالله في الشونة.

وكان المرحوم أحمد حسن الشكعة (أبو عادل)، والد زوجتي ، يعرج في مشيته بسبب خلع حصل له في مفصل الورك إثر وقوعه أرضا بعد أن تزحلق بقشرة موز في الطريق ، مما دعاه لحمل عصا للتوكؤ عليها أثناء المشي.

طلب مني عمي أبو عادل أن أذهب معه في سيارته، وكنت شابا في الثامنة والعشرين من عمري. لما وصل الموكب إلى قصر الشونة ترجل الجميع، ودخلنا عبر بوابة واسعة إلى حديقة يتوسطها دوار مزروع بالنجيل الأخضر. كان رئيس الديوان الملكي آنذاك السيد صبحي زيد الكيلاني، وكان السيد هاشم الدباس أحد تشريفاتي القصر الملكي.

خرج الملك عبدالله إلى الحديقة تحيط به حاشيته، فوقف رئيس بلدية

Digitized by Birzeit University Library

نابلس، وألقى كلمة بين يدي جلالته بايعه فيها باسم أهالي نابلس ووجوهها. ثم ألقى جلالة الملك خطابا استهله بقوله: "وأنا قبلت بيعتكم، لكم ما علينا وعلينا ما عليكم..." وكان جلالته - والحق يقال - فصيح اللسان قوي البيان.

ثم دخل الملك إلى القصر وبمعيته رئيس الديوان الملكي والحاشية، وبقي في الحديقة التشريفاتي السيد هاشم الدباس. وما أن غادر الملك الحديقة حتى قال التشريفاتي الدباس : " ياالله يا جماعة اللي سلّم على سيدنا يروّح"... كان تصرّفاً غبيا أقل ما يقال فيه أنه غير لائق... غير أن الجميع، وعلى رأسهم رئيس البلدية بدأ بالاتجاه نحو البوابة خارجاً.

كان المرحوم أحمد الشكعة يتوكأ على ذراعي وإذا بي أشعر بيده ترتجف بقوة رافعاً عصاه التي يحملها باليد الأخرى وصائحاً بأعلى صوته موجها الكلام إلى التشريفاتي الدباس... "تع جاي ولا... صحيح إنك قليل حيا ما بتستحي... إحنا جايين نبايع الملك وانت بتطحيني... هذي بدال كبابة (عصير الليمون) اللي اسقيتوني إياهي" وإذا بالسيد صبحي زيد الكيلاني ، رئيس الديوان الملكي ، الذي كان يعرف من هو الشكعة يهرع من القصر راكضا نحو أبي عادل معتذرا يهديء من غضبه... قبل ذقنه... " طنيب عليك بلاش يسمع جلالته... امسحها بوجهي... عمي أبو عادل: منشاني أنا دخيل عليك لا تؤاخذ هذا الشاب الجاهل "، والتفت نحو التشريفاتي الدباس قائلا: "إمشي من هون... واحد بتفهمش... انقشر من وجهي" وانسل التشريفاتي وغادر الحديقة. وهدأت أعصاب أبو عادل. ثم خاطب رئيس الديوان الملكي الجمع قائلا: "أرجعوا يا إخوان والله ما حدا يروح إلا بعد أن تشربوا ليموناده" وبعد فترة وجيزة خرجت صواني (عصير الليمون) المثلجة من القصر، وقدمت للوفد الذي غادر بعد ذلك عائداً إلى نابلس مشيعاً بالحفاوة من رئيس الديوان الملكي.

Digitized by Birzeit University Library

راغب باشا النشاشيبي وزير للزراعة:

بعد ضم الضفتين، تشكلت وزارة برئاسة دولة سمير باشا الرفاعي، وعين راغب باشا النشاشيبي (رئيس بلدية القدس زمن الانتداب البريطاني) وزيرا للزراعة، وكان السيد نصوح الطاهر وكيلا لوزارة الزراعة.

كان المرحوم راغب باشا يعرفني شخصيا، عندما كنت أعمل في القدس، وكانت تربطه صداقات متينة مع بعض رجالات نابلس المنتمين إلى "حزب الدفاع" الذي كان يرأسه وهو الحزب المنافس "لحزب المجلسيين" برئاسة الحاج أمين الحسيني.

وصدرت الإرادة الملكية السامية بتعييني مديرا لدائرة البيطرة في المملكة الأردنية الهاشمية، ونشر ذلك في الجريدة الرسمية. وفي عددها نفسه صدرت - أيضا - الإرادة الملكية السامية بنقل مدير الدائرة السابق ، الدكتور كمال الطاهر، إلى وظيفة طبيب بيطري في عجلون.

بدأت بالتعرف إلى أحوال الدائرة: ملاك موظفيها - لوازمها - موجودات مستودعها - الأدوية البيطرية - اللقاحات البيطرية. ذهلت، كيف يمكن للدائرة أن تقوم بواجباتها بشكل مرضٍ بمثل هذه الامكانات الهزيلة ؟ كانت كثير من الأدوية البيطرية الموجودة قديمة عفى على استعمالها الزمن ، وكانت تستعمل قبل عشرات السنين، بعد أن تقدم الطب البيطري باكتشاف أدوية حديثة فعالة وأفضل بكثير. أما ميزانية الدائرة للمواد والخدمات فحدّث عنها ولا حرج : ميزانية غير معقولة بالمرة؛ كانت من الضآلة بحيث أنها لو ضوعفت خمس مرات لما كانت كافية للقيام بالخدمات البيطرية الجدية، ومكافحة الأمراض الحيوانية العديدة وخاصة الأمراض الحيوانية السارية والمعدية، بما في ذلك الأمراض التي تنتقل من الحيوان إلى الأنسان. كان من المستحيل بالإمكانات

Digitized by Birzeit University Library

المتاحة المحافظة على ثروة المملكة الحيوانية، وحمايتها بالشكل العلمي الصحيح. ذلك بالإضافة إلى أن وكيل الوزارة بدأ يضيق بي ذرعاً بسبب تعييني مديرا للدائرة مكان قريبه الذي نقل إلى عجلون.

بعد أسبوعين من تسلمي إدارة الدائرة، قابلت معالي وزير الزراعة ، راغب باشا ، في مكتبه. قلت: يا باشا ، لقد درست أوضاع الدائرة، وتعرفت إلى أحوالها فوجدت أن الميزانية المرصودة هزيلة جدا، ولا تكفي إطلاقا لتسيير أمور الدائرة بشكل مرضٍ. قال: وماذا نستطيع أن نعمل ؟ قلت: الوضع يحتاج إلى موازنة فوق العادة. قال الباشا: "يا عمي أنت بتحسب هذه الدولة دولة؟" قلت: وما هي؟ قال: "هذه خيمة كركوز"!! يعني " لو بدي دينار نداوي فيه قفا حماره لازم آخذ موافقة هال... سمير الرفاعي ، اتكل على الله " ومد رجليك على قد فراشك ".

قلت: يا عمي الباشا، هذا معناه أن أعمل ويداي مربوطتان، وستكون النتيجة فشلا ذريعا لا أرضاه لنفسي. أنا إنسان تعودت على العمل الجدي المتقن، والنجاح في أدائه. يا باشا: هل يستطيع أحد أن يقلي البيض بالماء؟ ألا يحتاج ذلك الى بعض السمن؟ ما دام الأمر كذلك، فأرجوك يا عمي، أن تعفيني من مسؤولية هذه الدائرة، وأن تعيدني إلى نابلس وأنا شاكرٌ لك فضلك.

وعدت إلى عملي في نابلس رئيسا للأطباء البيطريين في المحافظة بضع سنوات لأعود إلى عمان مرة أخرى رئيسا لقسم تربية الحيوان بوزارة الزراعة بناء على أمر من وزير زراعة آخر كما سيأتي الحديث عنه في سياق هذه المذكرات.

Digitized by Birzeit University Library

ذكريات من أمريكا:

وفي سنة ١٩٥٤ عندما كان معالي السيد حكمت المصري وزيرا للزراعة، والسيد نصوح الطاهر لا يزال وكيلا لوزارة الزراعة ، قررت النقطة الرابعة الأمريكية (برنامج المساعدات الفنية الأمريكية) تخصيص بعثة دراسية على حسابها لإيفاد طبيب بيطري إلى الولايات المتحدة الأمريكية للتخصص في موضوع تربية وتغذية الحيوانات والدواجن.

رشح وكيل الوزارة قريبه مدير البيطرة رسميا للبعثة المذكورة. وكان هنالك لجنة تدعى "لجنة البعثات" تنعقد في وزارة التربية والتعليم باشتراك مندوب أمريكي لفحص إمكانات وقابليات مرشحي الوزارات المختلفة المقترح إيفادهم لأمريكا على حساب النقطة الرابعة الأمريكية. وكان من جملة متطلبات لجنة البعثات إرفاق علامات المرشح الجامعية التي حصل عليها سنة تخرجه من الجامعة.

رفضت لجنة البعثات الموافقة على مرشح وزارة الزراعة بسبب ضعف علاماته الجامعية، وطلبت إلى وزارة الزراعة بكتاب رسمي ترشيح طبيب بيطري آخر. علمت بالموضوع، فقدمت طلبا للبعثة المذكورة مرفقا علاماتي الجامعية عند التخرج... وكانت علامات ممتازة فوافقت فورا. علما بأنني لم أستغل نفوذ الوزير لهذه الغاية بالرغم من أن السيد حكمت المصري هو عديلي. (زوجته أخت زوجتي).

أوفدت في بعثة دراسية لمدة ثمانية أشهر إلى كلية تكساس للزراعة والهندسة ومعاهد ومحطات بيطرية أخرى في الولايات المتحدة الأمريكية، وحصلت على شهادة بأنني أكملت بنجاح برنامجا لدراسة تربية وتغذية الحيوانات والدواجن، ومعززة بشهادة تقدير أخرى مؤرخة في ١٩٥٤/٨/١٣

Digitized by Birzeit University Library

وموقعة من السيد هارولد ستاسن ، وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية آنذاك دلالة بأنني أكملت بنجاح الإشتراك في برنامج مساعدات فنية أمريكية.

أذكر أن تلك الكلية تمتلك عشرين ألف دونم من الأرض لإجراء التجارب الزراعية وغير ذلك، وأنه في سنة ١٩٥٤ التي تواجدت فيها هناك، تم إنشاء مستشفى بيطري في الكلية تكلف إنشاؤه وتجهيزه مليوني دولار . تلك هي الولايات المتحدة الأمريكية التي لا تفتقر إلى شيء مما حباه الله لهذا الكون سوى مادتي المطاط الطبيعي والبن، وفيما عدا ذلك فكل شيء متوفر... بلاد غنية واسعة حباها الله بموارد طبيعية هائلة. أذكر للمقارنة فقط أن مساحة ولاية تكساس وحدها تساوي مساحة فرنسا مثلا.

قبيل رجوعي لبلدي طلب إلي المسؤول عن بعثتي في وزارة الزراعة الأمريكية بواشنطن العاصمة مقابلته في مكتبه، وقال لي: سوف لا أسألك ما الذي أعجبك في الولايات المتحدة الأمريكية، بل إني أسألك ما الذي لم يعجبك في هذه البلاد؟ قلت : لم تعجبني أمور ثلاثة:-

أولا: أنا أستغرب أن أمريكا وهي أغنى بلاد العالم، ومن أكثرها تقدما لا تزال تستعمل في حياتها العامة، وفي التدريس في جامعاتها المقاييس والأوزان الأنجليزية المعقدة، ولا تستعمل الأوزان والمقاييس المترية. وأنني كطالب أجنبي وجدت صعوبة في التعامل أثناء دراستي مع الأونس والبوشل والدراخما والليبرة والميل والقدم الانجليزية بدلا من الكيلو غرام والغرام والطن والمتر والسنتمتر والكيلومتر الخ.

قال المسؤول الكبير في وزارة الزراعة الأمريكية: أنت محق في هذه الملاحظة الهامة، ولا غرابة في أن تبديها بعد أن قرأت تقريرا من مرجعك في إدارة كلية تكساس للزراعة والهندسة، المستر أدامز ،يقول فيه: أنك رجل تتمتع

Digitized by Birzeit University Library

بشخصية قوية وذكاء متفوق. ثم قال: أتدري كم يكلف قيامنا بتغيير المقاييس والأوزان الأنجليزية الى المترية؟ إن جميع أجهزة هذه البلاد، وماكنات مصانعها، وكل ما يتعلق بهذا الموضوع مبني على الأوزان الأنجليزية. تغيير ذلك إلى المترية يحتاج إلى بلايين بلايين الدولارات، وليس باستطاعتنا القيام بذلك الآن مع أننا نأمل أن نستطيع ذلك يوما ما.

ثانيا: التفرقة العنصرية بين البيض والسود لم تعجبني: لاحظت وخاصة في ولايات جنوبية مثلا أن لمحطات سكة الحديد بوابتين واحدة مكتوب في أعلاها الناس البيض، والأخرى الناس الملونين (Coloured People). كذلك فأن الملونين عندما تقلّهم حافلة عامة يجب أن يجلسوا في المقاعد الخلفية، ولا يسمح لهم بالجلوس في المقاعد الأمامية! وأن هنالك احتقاراً من قبل البيض نحو السود أو الملونين على وجه العموم وكأنهم ليسوا من بني البشر. وأضفت: دخلت مرة إلى مطعم وبرفقتي مبعوث آخر هندي لونه أسمر، وليس أسود فجاءت "الجرسونة" وقالت له: أنت غير مرغوب فيك هنا، وأنا لا أستطيع أن أخدمك. قلت: ولكننا نرغب في تناول الطعام. أجابت: أنت يمكنك البقاء، أما رفيقك فلا، وكل ما أستطيع عمله من أجله أن أحضر له الطعام في غلاف ليتناوله خارج المطعم!! وكم كان تأثر رفيقي الزميل المستفز المبعوث من حكومة الهند بالغا، وموقفه محرجا، وقبل أن يتطور الأمر الى ما لا تحمد عقباه قلت له: قم بنا يا صاحبي لنذهب إلى مكان آخر، وخرجنا من المطعم وصاحبي الهندي يسب ويلعن ... وشعرت شخصيا بالضيق من ظلم الأنسان لأخيه الأنسان، لأنني نشأت في بيئة يقول دينها " إن أكرمكم عند الله أتقاكم ".

أجاب المسؤول الكبير في وزارة الزراعة الأمريكية: إن الدستور، والقوانين الأمريكية تساوي بين ألوان الناس، ولكّن كثيرا منهم لا يتقبلون ذلك بالرضى. أحب أن أذكرك أن الزنوج في أوائل سنوات إنشاء هذه الدولة كانوا يباعون في المزارع في الولايات الجنوبية كحيوانات المزرعة. وبالطبع فهذا الأمر قد انتهى.

Digitized by Birzeit University Library

كذلك فان معظم الناس لا يحبون مجالسة الزنوج لأن لهم رائحة غير مستحبة؛ فكثير منهم لا يعتنون بنظافة أبدانهم، ومنهم من يحملون السكاكين ويهاجمون المارة لسرقة ما في جيوبهم وخاصة في الليل، ولا بد أنك لاحظت أن كثيرا من الزنجيات يمشين في الشوارع ليلا وهن سكارى يتطوّحْن ويتحرشْن بالمارة.

الدستور والقوانين تساوى بين الناس، ولكن لا يمكن إجبار الناس على مجالسة الزنوج بالقانون، لأن ذلك يعد - من ناحية أخرى - تعديا على الحرية الشخصية... هذه الحرية التي يقدسها الناس في هذه البلاد. ومع ذلك، فان مظاهر التمييز العنصري آخذة في الإضمحلال التدريجي، ونحن نرجو أن يأتي يوم يزول فيه بالمرة.

ثالثا: تفتيش اللحوم في المسالخ: لقد زرت عدة مسالخ اتحادية وأخرى تابعة للولايات، منها مسالخ كبيرة ومنها مسالخ صغيرة بحجم المسالخ الموجودة في بلدي، حيث يقوم أطباء بيطريون بالتفتيش على لحوم المواشي، وختم الصالح منها، وإتلاف المريض أو غيرالصالح للاستهلاك البشري. العمل وطريقة التفتيش الفني في المسالخ الكبيرة جيدة جدا ولا غبار عليها. أما في بعض المسالخ الصغيرة فيؤسفني أن أقول إن طريقة التفتيش الفني، وأسلوب العمل غير كافية، ولا تستوفي جميع المتطلبات الواجب اتخاذها لضمان سلامة الصحة العامة، بحيث أستطيع القول: إن تفتيش اللحوم في بلادي التي تعد من العالم الثالث، أو من الدول النامية أفضل مما وجدت هنا في بعض مسالخ هذا البلد الصغيرة. اهتم المسؤول في وزارة الزراعة بهذا الموضوع اهتماما بالغا، وطلب تفصيلات عنه، وسجل ملاحظاتي واعدا بتمريرها إلى المختصين. شكرني الرجل على الحديث معه، ورجا لي سفرا مريحا إلى بلدي.

Digitized by Birzeit University Library

سنوات الخدمة مع الأردن :

كما أذكر أن وزارة الزراعة كلفتني بالسفر إلى القاهرة للأشراف على طبع أربعين ألف منشور إرشادي للمزارعين كنت قد ألفتها عن تربية الحيوانات والدواجن، وعن بعض الأمراض الحيوانية المتوطنة وقررت "النقطة الرابعة الأمريكية" طبعها باللغة العربية على نفقتها في مطبعة تابعة للسفارة الأمريكية بالقاهرة.

وكان لفيف من الطلاب الأردنيين والفلسطينيين يدرسون في كلية الطب البيطري في القاهرة. استدعاني معالي وزير الزراعة ، السيد حكمت المصري ، وطلب إلي أن استفسر عن أحوال طالب في الكلية بالسنة الثانية اسمه "نظمي العبدالله" لأن ذوي الطالب التمسوا من الوزير أن يكمل دراسته بعثة على حساب وزارة الزراعة، ويود الوزير مساعدتهم بحيث أنسب للوزير ذلك بتقرير أقدمه بعد عودتي من القاهرة.

قلت للأخ الكبير "أبو سمير" ولكن ذلك سيجلب لك بعض الانتقاد وأنت في غنى عنه. قال الوزير: إن وضعهم المالي ضعيف، وأنا أرغب في مساعدتهم. قلت: سأحل لك الموضوع بشكل آخر لا يجلب لك الأنتقاد... فبدلا من بعثة واحدة سأوصي لك بعد الاستفسار عن أحوال الطلاب الفلسطينيين والأردنيين - وهم كثرة - بثلاث بعثات على حساب الوزارة على أن يكون نظمي العبدالله أحدهم، ووافق معاليه على اقتراحي فورا.

وزرت كلية الطب البيطري بالقاهرة، ولقيت حفاوة بالغة من العميد والأساتذة الذين علموني، وسألت عن أحوال طلابنا، ورجعت ونسبت لوزير الزراعة بكتاب رسمي إكمال دراسة ثلاثة طلاب كبعثة على حساب الوزارة وهم: نظمي العبدالله فلسطيني، وتيسير الأيدوني (أردني) وخليل حزبون (مسيحي

Digitized by Birzeit University Library

من بيت لحم). وافقت وزارة الزراعة على تنسيبي وتخرج ثلاثتهم أطباء بيطريين عملوا بدائرة البيطرة.

تحويل مدير دائرة البيطرة إلى المجلس التأديبي الأعلى:

كانت تعقد اجتماعات شهرية، أو كلما لزم الأمر لكبار الأطباء البيطريين برئاسة مدير البيطرة في مكتبه بعمان للبحث في أمور الدائرة. وكانت تسجل وقائع الاجتماع، وترسل نسخة منها الى معالي وزير الزراعة.

وأثناء أحد تلك الاجتماعات أعلم مدير البيطرة أنه استورد دفعة كبيرة من لقاح جدري الماعز من المختبر السوري بدمشق لتحصين ماعز المملكة ضده، ولم يكن لقاح جدري الماعز قد استعمل في المملكة قبل ذلك، ولم تكن هنالك ضرورة لاستعماله. علما بأن لقاح جدري الضأن كان يستعمل عند اللزوم، ويختلف عن لقاح جدري الماعز ولا يجوز استعماله للماعز مع أنه لا يؤدي إلى مضاعفات ضارة فهو مجرب وفعال في تحصين الضأن ضد المرض. أما لقاح جدري الماعز فشأنه شيء آخر. اعترضت على ذلك وقلت: إن استعمال لقاح جدري الماعز قد لا يخلو من الخطر، لأنه حسب معلوماتي لم ينتج أي مختبر بيطري لقاحاً مضموناً لتلقيح الماعز به تلقيحا وقائيا سليما حتى أن كثيرا من الدول الأوروبية، ومنها ألمانيا تمنع استعماله أو حتى دخوله إلى أراضيها من الخارج.

قال المدير: المختبر البيطري السوري مختبر معتمد، كما أن الذي انتج هذا اللقاح خبير أجنبي معروف يعمل هناك، وليس هنالك ما يمنع من استعمال اللقاح.

قلت: أرجو تسجيل اعتراضي وملاحظتي في وقائع جلسة الاجتماع وسجل

Digitized by Birzeit University Library

ذلك، وذهبت نسخة من وقائع جلسة الاجتماع كالمعتاد إلى معالي وزير الزراعة، وكان آنذاك معالي السيد وصفي ميرزا.

وزع المدير علينا كتبا رسمية موقعة منه للمباشرة في عملية تلقيح الماعز في جميع مناطق المملكة تلقيحا وقائيا ضد مرض جدري الماعز، وطلب إلينا تسلم الحصة المقررة من اللقاح لكل منطقة من مستودع الدائرة.

وبدأت جميع الوحدات البيطرية في المملكة تستعمل اللقاح الوقائي تنفيذا للتعليمات الرسمية. وفي محافظة نابلس تلكأت في التنفيذ، ولم يلقح إلا عدد قليل من الماعز من باب الاحتياط، وترقبا لأية مضاعفات قد تحصل.

وبعد عدة أيام من بدء حملة التلقيح الوقائي حصل الطوفان؛ طوفان خسارة المئات والآلاف من الماعز في جميع أنحاء المملكة ... أصيبت جميع قطعان الماعز التي جرى تلقيحها بمرض جدري الماعز بشكل حاد، ثم نفقت جميعا... وكانت كارثة لأصحاب تلك القطعان... طارت برقيات الشكوى للقصر الملكي، ولرئيس الوزراء ولوزير الزراعة، والحكام الإداريين، وكتبت الصحف... وكانت فضيحة كبرى لدائرة البيطرة.

كان لا بد لوزير الزراعة بصفته الوزير المختص أن يحقق في الموضوع ويفعل شيئا. قام وزير الزراعة ، معالي السيد وصفي ميرزا، بتحويل مدير دائرة البيطرة الدكتور كمال الطاهر ، إلى المجلس التأديبي الأعلى، ولم يستطع وكيل وزارة الزراعة، السيد نصوح الطاهر، أن يحول دون ذلك. وأطلع الوزير على المراسلات المتعلقة بالموضوع، ولاحظ اعتراضي على استعمال لقاح جدري الماعز المسجلة في وقائع الجلسة المذكورة آنفا.

استدعاني الوزير، وطلب إلي أن أمثل وزارة الزراعة لمحاكمة مدير

Digitized by Birzeit University Library

البيطرة، وأرسل كتابا رسميا بذلك إلى رئيس المجلس التأديبي الأعلى. وتشكل المجلس التأديبي الأعلى برئاسة معالي وزير العدلية ، السيد علي حسنا ، وعضوية اثنين من وكلاء الوزرات عينا لهذه الغاية وهما السيد زهاء الحمود ، وكيل وزارة الداخلية، والسيد محمد عوده القرعان ، وكيل وزارة المالية للجمارك، وذلك نظرا لأن الموظف المتهم كان من كبار موظفي الدولة.

وقبل أن استرسل في هذا الموضوع لا بدّ لي من الرجوع إلى الوراء قليلا لأبين وقائع أمر آخر حصل قبل فضيحة لقاح جدري الماعز بقليل يتعلق بلقاح مرض الحمى الفحمية الذي تضمنته ورقة الاتهام الموجهة إلى مدير البيطرة - أيضا - .

حصلت بعض الأصابات بمرض الحمى الفحمية بين الأغنام في منطقة نابلس، وطلبت مستعجلا كمية من اللقاح الواقي لهذا المرض من مدير الدائرة لتحصين القطعان المخالطة، وأجابني بكتاب رسمي بعدم توفر اللقاح المطلوب في الوقت الحاضر، وأنه سيجري تزويدي بطلبي عندما يتوفر اللقاح المطلوب من الخارج. كما حصلت بعض الأصابات بالحمى الفحمية في منطقة القدس، وطلب رئيس أطباء بيطرة محافظة القدس آنذاك، الدكتور هشام نسيبة ، لقاح الحمى الفحمية وأجيب بالجواب نفسه وهو عدم توفر اللقاح ... .

كان لدى مدير البيطرة عندما طلبنا اللقاح مائة ألف جرعة من لقاح الحمى الفحمية وكنا نعرف ذلك!! إذن، لماذا ادعى عدم توفر هذا اللقاح ؟؟؟! كان أمرا جاذباً للنظر حقا. واتفقت مع الدكتور نسيبة على زيارة المديرية في عمان معا لكشف سر هذا التناقض ، واجتمعنا في المديرية مع رئيس أطباء بيطرة العاصمة، الدكتور راغب كمال الذي أصبح لاحقا وبعد بعثات متعددة للخارج مدير مختبرات وزارة الصحة. ذهبنا ثلاثتنا إلى مستودع الدائرة، وطلبنا سجل عهدة المستودع بحجة التعرف على كميات بعض الأدوية قبل طلب ما نحتاجه

Digitized by Birzeit University Library

منها. ووجدنا عجبا؛ كان مسجلا في سجل عهدة مستودع الدائرة أن رصيد لقاح الحمى الفحمية كان مائة ألف جرعة وذلك بعد تاريخ كتاب مدير الدائرة بعدم توفر اللقاح باسبوع. ثم أخرج كامل الرصيد البالغ مائة ألف جرعة بكميات مختلفة إلى مناطق كالكرك، والطفيلة، ومعان، والزرقاء، وجرش والسلط الخ. بتاريخ واحد!

تقصينا وتحرينا الأمر فوجدنا عجباً آخر؛ لقاح الحمى الفحمية هذا كان تاريخ استعماله منتهيا منذ أمد بعيد ولا يجوز استعماله ... وكان ذلك طبعا مسجلاً على البطاقة الملصقة على كل قارورة لقاح ... وطبعا لم يكن بمقدور المدير تزويدي أو الدكتور نسيبه بمثل هذا اللقاح التالف والمنتهي مفعوله... إذن ما العمل؟! هداه التفكير إلى نزع جميع البطاقات الملصقة على قوارير اللقاح، وقام شخصيا وبمساعدة مأمور المستودع بنقع جميع قوارير اللقاح بالماء في برميل حتى يسهل نزع البطاقات، ثم أزالاها جميعا، وأتلفاها، ووزعت على المناطق (المأمونة) مع التأكيد من قبل المدير هاتفيا بضرورة استعمال اللقاح بسرعة، وإبداء الملاحظة بأن بطاقات القوارير سقطت لأن لصقها لم يكن جيدا...

ما الذي دعى المدير إلى اتباع هذا الأسلوب الغريب العجيب؟! لم لم تكن لديه الجرأة الأدبية لتشكيل لجنة، وإتلاف الكمية الفاسدة وإخراجها من سجل العهدة؟! خشي المدير إن هو فعل ذلك أن يسأل من قبل المالية مثلا لِمَ استورد كمية كبيرة من اللقاح، ولم يستعملها جميعها في الوقت المحدد لذلك مما سبب خسارة مالية للخزينة!!

وذهب ثلاثتنا إلى معالي وزير الزراعة السيد وصفي ميرزا ، وأطلعناه على ما جرى، ولكي يتأكد من ذلك بنفسه اصطحبنا معه إلى جرش حيث رأى بأم عينيه بواقي من قوارير لقاح الحمى الفحمية بدون أي بطاقة عليها في مكتب البيطرة، وأبلغه الطبيب البيطري هناك - وكان مصري الجنسية - بما أبلغه المدير هاتفيا بهذا الخصوص، وكما بينا لمعاليه.

Digitized by Birzeit University Library

فلما حصلت كارثة نفوق الماعز التي ذكرتها أنفا طفح الكيل، وحول الوزير المدير إلى المجلس التأديبي الأعلى.

وكان الوزير يستدعيني من نابلس عند موعد انعقاد جلسة للمجلس التأديبي الأعلى في مكتب معالي وزير العدلية لتمثيل وزارة الزراعة، وتقديم البينات والأدلة المدعمة بالمستندات اللازمة.

وقدمت لائحة الاتهام في الجلسة الأولى للمجلس وتأجلت الجلسة إلى موعد لاحق يدعو إليه رئيس المجلس. ولوحظ بأن التأجيل كان يمتد إلى مدة زمنية طويلة لحين انعقاد الجلسة التالية، وعند انتهاء الجلسة الثالثة للمجلس دعاني السيد زهاء الحمود وكيل وزارة الداخلية ، وهو شركسي، لمرافقته إلى بيته وهناك سألني: ألاحظت أن وزير العدلية يحاول التستر على المدير وحمايته؟ قلت : بلى. قال : أنا قانع بأن الاتهام صحيح، وأن الأدلة على قصور المدير الفني، ومخالفته الإدارية دامغة لا يرقى إليها الشك ، غير أنني لا أود أن اصطدم مع وزير العدلية، وسأعلم دولة رئيس الوزراء بذلك.

اتصل السيد زهاء الحمود - بينما كنت في بيته - برئيس الوزراء دولة سعيد باشا المفتي ، وأبلغه أنه متأكد من ان وزير العدلية منحاز لصالح المتهم، ويحاول تبرءته من الأغلاط الدامغة التي اقترفها، وأنه يعرف بأن صديق وزير العدلية الحميم السيد عارف عنبتاوي توسط لديه لتبرئة المدير المذنب! وتقدم وكيل وزارة الداخلية الشركسي إلى دولة رئيس الوزراء الشركسي - أيضا - برجاء أحد خيارين: إما الإيعاز لمعالي وزير العدلية باصدار حكم المجلس التأديبي الأعلى المناسب في هذه القضية الواضحة وضوح الشمس، أو إعفائه من عضوية المجلس التأديبي الأعلى تفاديا لصدام يتوقعه مع وزير العدلية، إذ أن واجبه سيضطره لمجابهة وزير العدلية.

Digitized by Birzeit University Library
مكتبة جامعة بيرزيت

أعفى رئيس الوزراء دولة سعيد باشا المفتي السيد زهاء الحمود من عضوية المجلس التأديبي الأعلى، وعين بدلا منه الدكتور شوكت المفتي وكيل وزارة الصحة، وهو الأخ لدولة الرئيس.

وحضر الدكتور شوكت المفتي المزود بتوجيهات دولة الرئيس، وأيضاحات السيد زهاء الحمود عضوا في جلسة المجلس التأديبي الأعلى. وأثناء الجلسة قال الدكتور شوكت المفتي موجها الحديث إلى رئيس المجلس بلهجته الشركسية، وبتهكم لاذع: " أنا لو محل حكومة لازم بعطي نيشان منشان مدير البيطرة ... نعم ؛ الدنيا جفاف ومحل وأصحاب الغنم مش لاقيين مرعى وعلف لأغنامهم ... قام الدكتور الطاهر بعبقريته : اكتشف طريقة لإراحة أصحابها منها " !!!

وتكهرب الجو. كانت إشارة واضحة ورسالة من أخ دولة رئيس الوزراء إلى وزير العدلية، وشعرت بالإشفاق وبشيء من الضيق لمنظر مدير البيطرة الذي اصفر لونه إثر هذا الاستهزاء والتقريع العلني.

ورفعت الجلسة لأصدار القرار في الجلسة القادمة ... وتدخلت الأقدار، ولم تعقد أي جلسة أخرى ... وبالتالي لم يصدر أي حكم على مدير البيطرة!!

تغيرت الوزارة، وجاءت وزارة جديدة كان من أعضائها معالي السيد علي الهنداوي، وزيرا للزراعة. ومرت الأيام ولم يتطرق أحد لاستئناف جلسات المجلس التأديبي الأعلى. وقام الوزير بحركة تنقلات واسعة بحيث تم نقل خمسة وستين موظفا من الزراعة والبيطرة بكتاب واحد وكنت أحدهم، بحيث نقلت من وظيفة رئيس أطباء البيطرة لمحافظة نابلس إلى وظيفة رئيس قسم تربية الحيوان في وزارة الزراعة بعمان.

استدعاني وكيل وزارة الزراعة السيد نصوح الطاهر إلى مكتبه وقال: أنا

Digitized by Birzeit University Library

وأنت والدكتور كمال من بلد واحد من نابلس، ويجب أن نكون يداً واحدة " ومش لازم ننشر غسيلنا الوسخ على الناس... ولازم نكون إخوان " ... أنت تعرف أنني أعزك وأحترمك، وأن لك عندي منزلة خاصة... لذلك سأمون عليك، وأستدعي الدكتور كمال وأصلح بينكما في مكتبي وعفى الله عما سلف. قلت: أنت تعرف أنه لا يوجد بيني وبين الدكتور كمال أي نزاع شخصي، وأنني لم أقم بما قمت به إلا بأمر رسمي من معالي الوزير... وليس لدي أي مانع من استدعاء الدكتور كمال ومقابلته في مكتبك. استدعي الدكتور كمال وحضر فورا وتصافحنا وعانقني وصفيت القلوب. ثم أصبحنا زملاء أصدقاء ولم يعكر صفونا أي شيء حتى تقاعدنا. بلغني أنه كان يقول لرئيس ديوانه وموظفي مكتبه: " ديروا بالكم، كل الأطباء البيطريين كوم، والدكتور حاتم كمال كوم لحاله... طلباته يجب أن تجاب في جميع الأحوال. وأصبح فعلا نعم الصديق - رحمه الله-.

كيف انتهت قصة المجلس التأديبي الأعلى، وماذا حل بملف القضية في وزارة العدلية؟ بعد أن تمّ الصلح بين المدير وبيني وضمنوا سكوتي، وعدم إثارة الموضوع قام أحدهم - وكما علمت فيما بعد - بسحب ملف القضية بوساطة أحد كتبة وزارة العدلية ، مقابل عشرين دينارا ، وأحرق الملف، وانتهت القضية وكأنها لم تكن!!

Digitized by Birzeit University Library

رئيس قسم تربية الحيوان بوزارة الزراعة:

نقلت إلى عمان مرة أخرى ، رغما عن إرادتي ، واستلمت قسم تربية الحيوان في وزارة الزراعة من المهندس الزراعي السيد سليم الناشف ، الذي نقل بدوره إلى وظيفة رئيس قسم الإرشاد الزراعي بوزارة الزراعة. وكان السيد صلاح جمعة الذي أصبح فيما بعد وزيرا للزراعة مديرا للحراج.

وجدت أن العلاقات بين الوزير معالي السيد علي الهنداوي ووكيل وزارته السيد نصوح الطاهر ، سيئة للغاية، حتى أن الوزير جمد أعمال الوكيل، ولم يعد يكلمه أو يستشيره في أي شيء، وكانت الأمور تجري بين الوزير ورؤساء الأقسام في الوزارة مباشرة دون أي دور للوكيل في ذلك.

وكان موقع غرفة مكتبي قرب مكتب الوزير الذي لم يكن يعرف اللغة الانجليزية، وكان كثير من المراسلات مع الهيئات الأجنبية، ودعوات السفارات المختلفة ترد باللغة الأنجليزية. فكان الوزير يستدعيني كلما أراد ترجمة رسالة أو دعوة... وقلما يمر يوم دون أن يستدعيني لمكتبه في أمر من الأمور... وبدأت ألفة بيننا.

وكان من جملة من نقلوا - أيضا - المرحوم راشد النمر (أبو طارق) الذي نقل من وظيفة مدير زراعة القدس إلى مدير زراعة العاصمة. ولما لم نكن ننوي الإقامة الدائمة في عمان فقد استأجرت بالاشتراك مع المرحوم راشد النمر غرفة في "أوتيل بارك" بعمان مكثنا فيها حوالي سبعة أشهر، وتوطدت الصداقة بيننا. ومما يذكر أن المرحوم راشد النمر أصبح في وقت لاحق وزيراً للزراعة في وزارة من الوزارات التي شكلها دولة سمير باشا الرفاعي وكنا نسافر إلى نابلس كل ظهر يوم خميس، ونعود إلى عمان في الصباح الباكر من يوم السبت إلى أن تغير الحال.

Digitized by Birzeit University Library

وذات مرة قلت للوزير ، وكنت أرغب في الرجوع إلى نابلس: إن الموظف يجب أن يكون مرتاحا نفسانيا ومستقرا حتى ينتج بالشكل الصحيح، وإن نقل أي موظف دون مبررات حقيقية، ودون اعتبار لظروفه الخاصة وأحواله الشخصية ، فذلك أمر لا يخدم مصلحته ولا المصلحة العامة، فهو يحتاج إلى مدة طويلة قد تكون سنة للتعرف على الناس والأحوال في البلد الذي نقل إليه ، وقد يكون للموظف أولاد وبنات في المدارس، فكيف يعمل والنقل حصل أثناء السنة الدراسية ؟ والموظف غالبا ما يكون مستأجرا لبيت يأويه وعائلته منذ سنوات عديدة، وبأجرة قديمة معقولة، فكيف يمكنه نقل عائلته والاستقرار في البلد الذي نقل إليه، واستئجار بيت بأضعاف أجرة بيته ؟ يا معالي الوزير: إن مفتش المواشي تقي الدين البيطار -مثلاً- كان يعمل في قضاء طولكرم منذ أكثر من خمسة وعشرين عاما، وهو من أكفأ مفتشي المواشي الذين عرفتهم في حياتي، وأكثرهم تنظيما وترتيبا... شخص ممتاز في الأعمال الحقلية، وفي واجباته المكتبية ... جميع الفلاحين وأصحاب المواشي والحيوانات في جميع قرى قضاء طولكرم تعرف "أبو عدنان البيطار" حتى النساء القرويات اللواتي يربين بضع دجاجات يعرفْن أبا عدنان الذي يخدمهن بصدق وأمانة ... هذا الرجل طراز فريد من نوعه؛ قضى كل تلك السنين يعمل باخلاص وكفاءة... نظيف اليد لدرجة أنه معروف عنه أنه في عمره لم يتناول فنجان قهوة أو كوب شاي، ولا حتى شربة ماء لدى أي مختار أو مزارع، وكان يحمل مطرته على جنبه حتى لا يكلف أحداً شربة ماء!! هذا الأنسان نقلته، معاليك، من طولكرم... البلد الذي أحب وأحبه أهلها، كبارهم وصغارهم فكيف سيعيش ؟ وكيف سيعمل في السلط وعائلته في طولكرم لا يستطيع نقلها معه ؟ ألا يحتاج إلى سنة - على الأقل - للتعرف على قرى السلط، والطرق المؤدية لها، وأصحاب المواشي والحيوانات والدواجن، وما يقتنون منها ؟ كي يستطيع خدمتهم كما اعتاد مع شعوره بالظلم وعدم الأستقرار. هذا مثل يا معالي الوزير، من أمثلة أخرى رغبت أن أسرده على معاليك راجيا إعادة النظر في موضوع النقل الذي حصل لخمسة وستين موظفا ودراسة كل حالة على انفراد لتصحيح الأمور بما يكفل مصلحة الموظف والمصلحة العامة.

Digitized by Birzeit University Library

إنك نقلت الخمسة والستين موظفا بجرة قلم وكتاب واحد (أحد الأمثلة كان نقل الدكتور هشام نسيبه القدسي الأصل من القدس إلى نابلس مكاني، ونقل الدكتور راغب كمال النابلسي الأصل من العاصمة عمان إلى القدس، ونقل مفتش المواشي تقي الدين البيطار من طولكرم إلى السلط وهكذا الخ.

وأضفت: تعلمون أن الإدارة البريطانية هي من أنظم الإدارات في العالم، وأنا أعرف عندما عملت في حكومة الانتداب البريطاني في فلسطين أنه عندما يراد نقل موظف من بلد لآخر، كان مدير دائرته يخبره بذلك قبل بضعة أشهر، ويجري النقل بعد انتهاء السنة المدرسية إن كان للموظف أولاد أو بنات في المدارس حتى يؤمن انتقالهم أثناء العطلة الصيفية إلى مدرسة مناسبة في البلد الذي ينقل إليه، وليس ذلك فحسب بل كان الحاكم الأداري في البلد المنقول اليه الموظف يبلغ سلفا من أجل إيجاد بيت مناسب لأحوال الموظف المنقول شريطة أن لا تزيد أجرته على الأجرة التي يدفعها الموظف قبل نقله ولو اقتضى الأمر أن يقوم الحاكم الأداري بتنفيذ "وضع اليد" على أي بيت خال يناسب ذلك الموظف. أجاب معاليه: يا دكتور ، أنت ستبقى معي هنا في هذه الوزارة طالما بقيت أنا وزيرا للزراعة... انت رجل صريح وكفء ولم توسط لي أحداً لإعادتك لنابلس، بينما كثير غيرك فعلوا، ولم أوافق لأي واحد بالرجوع لمركزه السابق ، وأنا أعرف أنك ترغب في الرجوع لبلدك، ولكنني أريدك أن تبقى معي في هذه الوزارة للخدمة في مجال اختصاصك .

قلت: أنا تطرقت لهذا الموضوع بشكل عام، وبينت وجهة نظري، ولم أفعل ذلك من أجلي رغم أنني لا أخفي على معاليك أنني أرغب في الرجوع إلى نابلس لأنني غير مرتاح هنا لأسباب عديدة... وسأعود لنابلس - إن شاءالله - في أقرب وقت ممكن. قال معاليه: " أنا أريد أن أعلمك فلسفة الحكم!! ، الموظف يجب أن يكون كالجندي حاضرا للنقل إلى أي مكان، وفي أي وقت كان... فان كان الموظف سيئا يكون النقل عقوبة له، وإن كان الموظف جيدا يكون النقل في صالح البلد الذي نقل إليه كي يستفاد منه !!! ".

Digitized by Birzeit University Library

لما سمعت فلسفة الحكم هذه ، بعد كل الإيضاحات والبينات التي شرحتها لمعالي الوزير، استأذنت في الانصراف من مكتب معاليه قبل أن أسمع فلسفة أخرى.

عطاء لتوريد علف للمواشي:

كان في مستنبت الجبيهة التابع لوزارة الزراعة (الآن موقع الجامعة الأردنية) قسم لتربية الأبقار الهولندية الحلوب يحوي أربعين رأسا من الأبقار الهولندية ، وكان هذا القسم تابعاً لي بصفتي رئيسا لقسم تربية الحيوان.

طرحت في الصحف المحلية عطاء لتقديم الكميات المطلوبة من مختلف الأعلاف ومن جملتها الفول ، وكان من شروط العطاء أن يقدم التاجر عينات من الحبوب المطلوبة مع الثمن الذي يطلبه لأنواع الحبوب واصلا إلى مستودع حبوب محطة أبقار مستنبت الجبيهة بالظرف المختوم. وقدمت للوزارة عروضات مرفقة بالعينات التي حفظت في مكتبي لحين رسوء العطاء على أحدهم.

ورسى العطاء على أحد تجار عمان، وورد التاجر الكميات المطلوبة من الحبوب إلى مستنبت الجبيهة. فلما كشفت على الحبوب وجدت أن الفول الذي ورده التاجر ينغل (ملآن) بحشرة السوس، ورفضت تسلّمه وأبلغت التاجر الذي رسى عليه العطاء بازالة الفول من موقع التسليم فورا. وحاول التاجر عبثا تغيير قراري، ولم يجد إلا الأصرار على رأيي.

ذهب التاجر إلى وكيل الوزارة السيد نصوح الطاهر ، شاكيا متظلما ، ويظهر أن وكيل الوزارة كان يعرف ذلك التاجر معرفة شخصية. استدعاني وكيل الوزارة إلى مكتبه وكان التاجر جالسا عنده. سألني عن سبب رفض تسلم الفول ، قلت الفول مسوس ولا استطيع قبوله. قال وكيل الوزارة: "أليست حشرة

Digitized by Birzeit University Library

السوس مادة بروتينية والبروتين عنصر مهم من عناصر التغذية؟!" معنى ذلك أن وكيل الوزارة حاول إقناعي بقبول كمية الفول الكبيرة المسوسة إرضاء للتاجر الموجود معه في مكتبه!! قلت: إن الفول المورد مخالف لشروط العطاء، ويختلف عن العينة المقدمة لهذه الوزارة، فضلا عن أن السماح بادخال الفول المسوس إلى مستودع حبوب محطة أبقار الجبيهة يعني انتشار السوس في جميع الحبوب الأخرى، بالأضافة إلى الأزعاج والضرر الذي سيسببه السوس لدى تعربشه على أجسام الأبقار إن هي تناولته. وقلت للتاجر الجالس عند وكيل الوزارة: أرجو أن تزيل الفول من مستنبت الجبيهة فورا لأنك خالفت شروط العطاء، وبخلاف ذلك سأحملك مسؤولية أي ضرر قد يحصل. وكان ذلك إشارة واضحة وحازمة لوكيل الوزارة بأن يكف عن التدخل في هذا الموضوع. ونظر وكيل الوزارة إلى التاجر نظرة من يقول: لقد حاولت... وأزيل الفول المسوس من المستنبت، وجرى بعد يومين توريد فول جيد مطابق لمواصفات العطاء.

كان كل رئيس قسم في الوزارة يوقع على كشوفات مستندات صرف رواتب موظفي قسمه. أرسل لي محاسب وزارة الزراعة آنذاك ، السيد محمد خير بطه، الكشوفات المتعلقة بموظفي قسم تربية الحيوان في محطات المملكة ومستنبتاتها. ولدى تدقيق تلك المستندات وجدت عجبا!! وجدت كشفا باسم عشرة موظفين يعملون في قسم الأبقار بمدرسة الربة الزراعية تسعة من آل المجالي وواحد، من عائلة أخرى علما بأنه كان يوجد في المدرسة المذكورة عشر أبقار هولندية بالتمام والكمال لكي يتدرب طلاب الزراعة في المدرسة على تربيتها والاعتناء بها. وأمام أسماء الأشخاص العشرة ألقاب الوظائف التي أنعمت بها الوزارة عليهم... مراقب أبقار - ملاحظ أبقار - ناظر أبقار - حلاب أبقار - خادم أبقار - حارس أبقار وسايس أبقار الخ.

كما وجدت كشفا آخر باسم ثلاثة موظفين لقسم تربية الدواجن في مستنبت عسكر بنابلس علماً بأن موجود المستنبت كان (٢٨) دجاجة فقط من

Digitized by Birzeit University Library

نوع (رود ايلاند رد) عجبت وذهلت !! ذلك لأن عاملاً واحداً يكفي للاعتناء بأكثر من عشر بقرات ... ولأن عاملاً واحداً يكفي للاعتناء بخمسمائة دجاجة وأكثر.

سألت سلفي في رئاسة قسم تربية الحيوان، الدكتور سليم الناشف، فيما إذا كان ذلك معقولاً فضحك وقال: في هذا البلد معقول، ولكن موظفي دواجن مستنبت عسكر كانوا اثنين، وأرى أنهما أصبحا ثلاثة وأضاف تسعة من موظفي الأبقار في مدرسة الربة لا يعملون إطلاقا ،يعني " بس بيجوا آخر الشهر بقبضوا المعاش فقط وهم من المشايخ الذين يلبسون (العبي) أي العباءات ".

كتبت مذكرة رسمية وأرفقتها مع المستندين المشار إليهما ذكرت فيها: "إن موظفا واحدا يكفي للعناية بالأبقار العشرة وخدمتها في مدرسة الربة الزراعية، وأن موظفا واحدا أكثر من كاف بكثير للعناية بـ (٢٨) دجاجة في مستنبت عسكر. هذا أمر غير معقول بالمرة ويعد تبذيرا في أموال الدولة. لذلك فأنني أرفض التوقيع على المستندين المرفقين. وأرجعتهما مع مذكرتي إلى محاسب الوزارة السيد محمد خير بطه.

جاء محاسب الزراعة لمكتبي محاولا تغيير رأيي ... قلت: لقد علمت من الدكتورالناشف أنه كان لدواجن مستنبت عسكر موظفان اثنان الشهر الماضي فكيف أصبحا ثلاثة؟ أجاب المحاسب: الثالث عُيّن من أول الشهر بأمر من الوزير شخصيا. قلت: والله عال ! وماذا أعمل أنا هنا ؟ ألم يكن من الواجب والأصول استشارتي - على الأقل - قبل إدراج الموظف الثالث في مستند الرواتب؟! قال: الوزير أمر بتعيينه لأنه محسوب على أحد أقربائه الذي كان يعمل بوظيفة قائمقام في جنين. قلت: إذن دع الوزير يدفع له راتبه من جيبه ... يا دكتور ... يا أبيض ... يا ... قلت هذا رأيي ولن أحيد عنه.

Digitized by Birzeit University Library

خرج المحاسب وعاد بعد دقائق بصحبة رئيس ديوان وزارة الزراعة المرحوم كامل وهبه (أبو العبد) الذي توفى بحادث سقوط طائرة بالقرب من عمان فيما بعد. حاول الاثنان عبثا إقناعي لتوقيع المستندين. قلت: يا جماعة، مستحيل لا تتعبا نفسيكما. يا دكتور: " بلاش الموضوع يصل لمعالي الوزير "، قلت: دعه يصل لستين وزيراً وإذا " الوزير مش عاجبه يعمل اللي بدو إياه ".

ذهب رئيس الديوان والمحاسب إلى الوزير وشرحا له ما حصل. علمت فيما بعد من رئيس الديوان أن الوزير طلب إليهما استدعائي لمقابلته. قالا له: نرجوك ألا تفعل ... الرجل عنيد ومصمم على رأيه ... لقد حاولنا معا بكل جهدنا ولم يستجب ... لقد وقع على مذكرة رسمية بأنه يعتبر هذا الأمر تبذيرا في أموال الدولة ...

سأل الوزير: ما العمل إذن؟ أجاب المحاسب: لا يوجد إلا حل واحد وهو أن توقع معاليك على مستندي الرواتب بدلا من رئيس القسم. قال الوزير: " هاتو المستندات " ووقعها معاليه، وبقي يوقعها طوال سبعة الأشهر التي قضيتها رئيسا لقسم تربية الحيوان في وزارة الزراعة.

بعد حوالي سبعة أشهر من نقلي إلى عمان تغيرت الوزارة، وجاءت وزارة جديدة كان فيها المرحوم هاشم الجيوسي (أبو العلا) وزيرا للزراعة. كان أبو العلا رئيسا لبلدية طولكرم في السابق، وكنا صديقين بالأضافة إلى صداقته الحميمة مع بعض أقاربي، وكان رجلا حازما شديد المراس ومشهوراً عنه أنه صديق صديقه وعدو عدوه. وفي اليوم الأول لتسلمه وزارة الزراعة دخلت مكتبه مع بقية الموظفين لتقديم التهنئة بالمنصب الوزاري. وفي صباح اليوم التالي قابلته في مكتبه منفردا، وشرحت له وضعي، ورجوته إرجاعي إلى نابلس. قال معاليه: ولكن يا دكتور مركزك هنا رئيسا لقسم في الوزارة يعد مركزا أهم من وظيفتك في نابلس. قلت: أنا لا أريد مركزا، وأنا غير مرتاح هنا من جميع

Digitized by Birzeit University Library

الوجوه. قال معاليه: "يعني هيك مصلحتك؟" قلت نعم وأكون شاكرا. سأل الوزير: ومن هو الموجود في نابلس الآن؟ قلت: الدكتور هشام نسيبه وهو أصلا من القدس، وسيرحب جدا بالرجوع إلى القدس، تمنيت على معاليه حركة تنقلات محدودة، وإرجاع الدكتور راغب كمال إلى عمان حيث بيته وعائلته، وكما كان سابقا ".

استدعى الوزير رئيس الديوان وأصدر له أمرا باجراء ما يلزم لنقلي إلى نابلس اعتبارا من اليوم (وليس اعتبارا من الغد) ولم يسأل معاليه وكيل الوزارة ولا مدير دائرة البيطرة بل بعث لهما بنسخة للعلم. هكذا كان الرجل ... حازما وصديق صديقه. وتم نقلي إلى وظيفة رئيس أطباء البيطرة بمحافظة نابلس، كما أجرى التنقلات الأخرى كما تمنيت عليه، وشكرت معاليه .

شكرت معاليه، واستأذنت، واتصلت هاتفيا بالدكتور نسيبه في نابلس، والدكتور راغب كمال بالقدس، وبشرتهما بالخبر السار الذي لم يكونا يتوقعانه بهذه السرعة فطارا فرحاً.

سلمت عهدتي الشخصية إلى رئيس الديوان، وغادرت وزارة الزراعة إلى الفندق، وحملت أغراضي إلى نابلس في اليوم نفسه. كان الدكتور نسيبه ينتظرني، وسلمني المكتب، ورجعت لقواعدي، وغادر هو لتسلم مكتب بيطرة القدس فرحا سعيدا يكاد لا يصدق ما حصل.

السيد بسام الشكعة يصل إلى سوريا لاجئاً سياسيا تحت حمل من البطيخ:

عندما كان العقيد محمود الرفاعي قائدا لمنطقة نابلس حكمت محكمة عسكرية على السيد بسام الشكعة حكماً غيابيا بالسجن مدة أربع سنوات، وكان بسام في ذلك الحين شابا عزبا ورئيسا لحزب البعث العربي الاشتراكي في محافظة نابلس وله نشاط سياسي واسع .

Digitized by Birzeit University Library

واختفى بسام، ولم تستطع الحكومة القبض عليه رغم كل الجهود التي بذلتها، وبقي مختفيا في منطقة نابلس مدة سنتين قبل أن يلجأ إلى سوريا. وكان لا يبقى وقتا طويلا في مكان واحد، ويتنقل بين بيوت متعددة ولا يعرف مكانه الا المقربون منه وبعض الأصدقاء المخلصين. واستمر في نشاطه السياسي من مخابئه وكان له مراسلون من الفتيات والفتيات الثقات يبعث معهم برسائله إلى خلايا حزب البعث ويتسلم رسائل من أعوانه.

واستمر البحث عنه، وفتش بيت والده وبيوت إخوانه، وبعض البيوت الأخرى مراراً من قبل الشرطة والمخابرات، ولم يستطيعوا القبض عليه. ومع أنني لست من هواة السياسة، ولم أنتم في حياتي لأي حزب كان، إلا أنني كنت ألتقي مع بسام أحياناً بحكم المصاهرة والصداقة، كما أنه ضافني في بيتي بضع مرات أثناء اختفائه، وكذلك نقلته ليلا بسيارتي بضع مرات من بيت لآخر.

استدعاني قائد منطقة نابلس العقيد محمود الرفاعي (الذي كان يلقب بالشيخ محمود) إلى مكتبه وبادرني بالقول : "يا دكتور، أنت موظف عندنا وأنا أريد أن أمسك بسام الشكعة، وأنت تستطيع أن تدلني على مكانه، ولك عليّ ألا يعرف أحد بذلك، كما أنني مستعد أن ألبي لك أي طلب تريده".

ضحكت في نفسي من سذاجة هذا الرجل الذي كان يكحل عينيه، ويعتقد أنه بعرضه المهين هذا يستطيع شرائي، ولكنني وضعت أعصابي في ثلاجة، وتظاهرت بالجد وقلت له : يا شيخ محمود، أنا لم أره منذ مدة طويلة، منذ أن اختفى ولا أعرف مكانه ولو كنت أعرف لأخبرتك بذلك.

قال الشيخ محمود : جرّب أن تتحرى مكانه من أهله. قلت : كلما سألت عنه يقال إنه غادر نابلس إلى بلد آخر، وبعض أهله يقولون إنه غادر البلاد إلى الخارج - والله أعلم -.

Digitized by Birzeit University Library

اصطحب قائد منطقة نابلس قوة كبيرة، إثر إخبارية وردت إليه - كما يظهر - بأن بساماً موجود في قرية دير بلوط عند المختار حسني العلي - رحمه الله - الذي كان من أصدقاء آل الشكعة الحميمين، وطوق القرية ليلا، ودخل مع بعض ضباطه إلى بيت المختار يسأله: أين هو بسام الشكعة ؟ أجاب المختار: إنه ليس هنا. وفتش بيت المختار ولم يكن بسام فيه. قال الشيخ محمود للمختار : إن بساماً في هذه القرية، وأنت تخفيه في مكان ما، دلني عليه وإلا ... .

أجاب المرحوم حسني العلي بكل جرأة : إنه غير موجود في دير بلوط ... أمامك القرية فتشها ... صدقني أنه ليس هنا، والله لو كان موجوداً لما تسلمته إلا على جثتي ... وغادر الشيخ محمود وجنوده القرية بخفي حنين.

وبعد حوالي سنتين من الاختفاء والتنقل وعدم الاستقرار، واستمرار البحث والتفتيش وافق بسام على الخروج من البلاد الى سوريا، وقام أخوه المرحوم وليد الشكعة (أبو غسان) بتخطيط وتدبير طريق الهروب واللجوء لسوريا.

كان الوقت موسم بطيخ، وكان البطيخ يصدّر إلى سوريا، قام أحد الحدادين بصنع قفص حديدي من القضبان الحديدية المتينة بقياسات معينة مناسبة، واتفق أبو غسان مع أحد سائقي سيارات الشحن الكبيرة الثقات لنقل بسام تحت حمل من البطيخ إلى سوريا.

وفي صباح اليوم المتفق عليه وضع فراش في منتصف أرضية سيارة الشحن واستلقى عليه بسام وغطي بالقفص الحديدي، وجرى تحميل السيارة بالبطيخ إلى أقصى حمولتها. وغادرت نابلس متجهة إلى سوريا، مروراً بحدود الرمثا بشكل عادي، ولما وصلت إلى مركز حدود درعا في سوريا جرى إنزال حمولة البطيخ وقام بسام وسلم نفسه لاجئاً سياسيا هناك حيث استقبل بكل حفاوة وتكريم.

Digitized by Birzeit University Library

أقام في دمشق، ثم انتقل إلى القاهرة، وبقي في هاتين المدينتين بضع سنوات إلى أن صدر العفو عنه في الأردن، وألغى حكم المحكمة العسكرية الغيابي بسجنه مدة أربع سنوات. ومما يذكر، أنه لربما كان اللاجيء السياسي الوحيد الذي أبى أن يتسلم الراتب الشهري الذي يعين عادة لكل لاجيء سياسي سواء أثناء إقامته في سوريا، أو في جمهورية مصر العربية، بينما كان غيره يطالب بزيادة المخصصات الممنوحة له.

وعاد بسام بالطائرة من القاهرة الى مطار قلنديا، وكان في استقباله جمهور غفير من الأقارب والأصدقاء والمحبين وكنت أحدهم، وسار موكب استقباله رتلاً طويلاً من السيارات متجهاً إلى بيت أخيه المرحوم وليد في نابلس، حيث ترجل الركب في باحة المنزل، ودوى أزيز الرصاص في الجو ابتهاجاً بعودته سالماً.

Digitized by Birzeit University Library

العمل في الكويت:

في سنة ١٩٥٧ تسلمت كتابا من زميلي الدكتور محمد الخرطبيل ابن الحاج خليل الخرطبيل من طبريا الذي كان يشغل وظيفة رئيس شعبة البيطرة بالكويت، يحثني فيه على الذهاب للكويت نظرا لصداقتنا وزمالتنا السابقة في كلية الطب البيطري حيث أنه كان قد تخرج قبلي بسنة واحدة.

ونظرا لأنني كنت غير مرتاح في عملي، بل أستطيع أن أقول: إنني كنت (قرفان) من ظروف العمل، وبما أن العرض كان آنذاك على جانب كبير من الأغراء، فأنني قررت قبوله حيث إنه اشتمل راتباً شهرياً يعادل (٤٥٠) دينارا أردنيا، و(٤٥) دينارا أردنيا علاوة سيارة شهرية، وبيتاً مفروشاً لمتزوج مؤثثاً تأثيثا جيدا ومكيفا، وثمن الماء والكهرباء، وثمن تذاكر الطائرة لي ولأفراد عائلتي ذهابا وإيابا، وكذلك ثمن تذاكر الطائرة لي ولأفراد عائلتي إيابا وذهابا مرة كل سنة عند الحصول على الأجازة السنوية وكان كل ذلك على حساب الحكومة. علما بأن تنكة البنزين (٢٠ لتر بنزين) الممتاز كانت تكلف ما يعادل (٢٠) قرشا أردنيا في الكويت، والبنزين العادي ما يعادل (١٦) قرشا أردنيا، أي أن السيارة لم يكن يكلف وقودها أكثر من خمسة دنانير أردنية شهريا مما يعني أن علاوة السيارة يمكن عدّها راتبا إضافيا.

قدمت استقالتي إلى وزير الزراعة، وقبلت شريطة أن أدفع للحكومة مبلغ (٥٠) دينارا أردنياً، ذلك لأنني عندما أرسلت في بعثة لأمريكا أخذت مني الحكومة الأردنية كفالة مالية بمبلغ (٣٠٠) دينار لتضمن أن أعمل معها بعد انتهاء البعثة مدة ثلاث سنوات، ولما لم يكن قد مضى على رجوعي من البعثة إلا سنتان ونصف فقد طالبوني بمبلغ الخمسين دينارا فدفعتها، وأنهيت عملي في الأردن.

Digitized by Birzeit University Library

وقررت السفر بالطائرة من مطار قلنديا (القدس) إلى الكويت وحدي حتى أُحضّر للحاق عائلتي بي فيما بعد. وعند وصولي مطار القدس فوجئت برؤية جميع موظفي مكاتب البيطرة في محافظة نابلس من أطباء بيطريين، وكتبة ومفتشي مواشٍ، وآذنة قد حضروا من نابلس وجنين وطولكرم وسلفيت وطوباس بسيارات أجرة ليودعوني، ويتمنوا لي الخير والتوفيق، وهم يعلمون أنني استقلت، ولم أعد رئيسا لهم ... وتأثرت كثيرا بتلك العواطف الصادقة والمحبة النابعة من الاحترام، وحمدت الله على هذا الموقف الصادق.

فرغم إنني شديد في إدارتي، ولا أتهاون مع أي موظف يحيد عن الطريق السوي، أو يرتكب ما يخالف نظام الخدمة المدنية ... ولكنني كنت عادلا، ولم أظلم أحداً من مرؤوسي ، بل العكس هو الصحيح ، بحيث لم أكن أبخل بالمساعدة على أحد حتى ولو كانت خارج نطاق العمل الرسمي. وكنت أحترم حتى آذنة المكاتب طالما أنهم يقومون بعملهم بشكل مرضٍ ...

وصلت مطار الكويت ووجدت الدكتور محمد خرطبيل بانتظاري ورافقني إلى "دار الضيافة الحكومية" لأقيم فيها مؤقتا لحين تسلّمي بيتا مفروشا لمتزوج. وكانت دار الضيافة التابعة لحكومة الكويت عبارة عن فندق فاخر، وسلموني غرفة بحمام مستقل، وفي الدار مطعم للوجبات الثلاثة يوميا يقدم أصنافاً جيدة من الطعام.

وفي صباح اليوم التالي، مر عليّ الدكتور خرطبيل بسيارته واصطحبني معه إلى الدائرة حيث سلّمني وظيفة "طبيب بيطري المستوصف المركزي" بمدينة الكويت. وكان يوجد في المستوصف صيدلية مجهزة بمختلف العلاجات البيطرية، يديرها صيدلاني قانوني، وبعض الموظفين، كان منهم السيد عمر أبو الجيبين اليافي الأصل يشغل وظيفة مفتش مواشٍ.

Digitized by Birzeit University Library

وكان عملي في المستوصف ينحصر في معالجات فردية معظمها لأمراض حيوانية غير معدية لمختلف أنواع الحيوانات من خيول وأبقار وأغنام ودواجن، وأحيانا معالجة غزلان مصابة بطلق ناري أثناء صيدها من قبل الشيوخ، وكذلك معالجة صقور القنص (الصيد) التي يملكها مشايخ الكويت ويستعملونها في صيد طيور الحباري في الصحراء.

وبقيت مدة شهرين في دار الضيافة على نفقة الحكومة إلى أن سلموني بيتا جديداً مفروشا جيدا في حي السالمية، وبدأت أتأقلم على الحياة في الكويت، ثم أرسلت في طلب عائلتي، وكان في الكويت عائلات كثيرة من نابلس ممن نعرفهم.

وكان أمير الكويت الشيخ العود (الكبير) رجلا متقدما في السن، وزاهدا في الدنيا، معتدلا في حياته أما عن بذخ شيوخ آل الصباح الأخرين فحدث عنهم ولا حرج. كانوا رؤساء كل الدوائر والمؤسسات الحكومية، وكان أقواهم وأشدهم نفوذا الشيخ عبدالله المبارك الصباح شيخ الجيش الكويتي والأمن العام. وكان الشيخ فهد رئيس الأشغال العامة، والشيخ خالد شيخ الميناء ... وهكذا فكلهم من العائلة الحاكمة بأمرها.

كان عدد السكان الكويتيين الأصليين قليلا نسبيا، وكانت توجد جالية إيرانية كثيرة العدد، وبعضهم يعدون من أثرياء الكويت وكبار تجارها. أما نحن - الفلسطينيين - وغيرنا من الشعوب العربية كالمصريين والعراقيين والسوريين واللبنانيين ممن بنوا دولة الكويت، وعلموا أبناءهم فكنا نعد "أيانب" * (أجانب) مرتزقة، جئنا لأخذ "بيزاتهم"** (أموالهم)، وكان مشايخ

---

* هكذا كانوا يقلبون لفظ حرف الميم إلى حرف الياء .

** من بيزيتا وهي عملة نقدية إسبانية .

Digitized by Birzeit University Library

الكويت ينظرون إلى الموظفين العرب - مهما كانت منزلتهم - كالأطباء والمهندسين ومديري ومعلمي ومعلمات المدارس وغيرهم من المناصب المحترمة ،نظرة السيد إلى عبده (خادمة) .

ولم يكن في الكويت محاكم أو قضاة أو محامون أو قوانين مكتوبة، كان كل شيخ من العائلة المالكة هو القاضي، وكلمته هي القانون الواجب التنفيذ الفوري دون أي اعتراض أو استئناف!!

وكانت المشروبات الكحولية ممنوعة في الكويت، ولكنها تباع في السوق السوداء مهربة، وكان أكبر تاجر مستورد لها هوالشيخ دعيج السلمان الصباح وكانت تبيع له بالمفرق وبأسعار عالية ستة أماكن في مدينة الكويت... ويا "ويل اللي يقرب من مصلحة الشيخ دعيج"!!

وكان السكارى يعاقبون بالجلد بالخيزرانات علنا،أذكر مرة أن الشرطة ألقت القبض على شخص عراقي ثمل، فأخذته للشيخ عبدالله مبارك الصباح في مقره بالأمن العام. وأخلت الشرطة الساحة الواقعة أمام مبنى الأمن العام، وخرج الشيخ عبدالله مبارك إلى الساحة تحيط به حاشيته، وقامت الشرطة بربط يدي المقبوض عليه بحبل، ويداه وراء ظهره، وألقته بطوله على وجهه على الأسفلت، واصطف خمسة رجال إلى يمينه وخمسة آخرون إلى يساره يحملون خيزرانات (عصى رفيعة) طويلة ، وكان عليهم أن يضربوا الشخص المعاقب عندما يرفع الشيخ يده بحيث تنهال خمس عصاء على المبطوح أرضا تتبعها العصى الخمس من الجهة المقابلة الأخرى، وتستمر عملية الجلد هكذا أمام الجمهور المتفرج إلى أن ينزل الشيخ يده حتى ولو مات المضروب قبل ذلك!! فلما صحا العراقي من السكر من شدة الضرب صاح بأعلى صوته أمام جمهور المشاهدين "الله أكبر... شيخ يبيع وشيخ يطق (يضرب) !!... ونزلت يد الشيخ عبدالله المبارك ، شيخ الأمن العام.

Digitized by Birzeit University Library

وكان هناك فلسطينيون ذوو مراكز رفيعة يعملون في دوائر الحكومة، والشركات والمؤسسات، وكان السيد هاني القدومي يشغل منصب سكرتير الشيخ عبدالله مبارك الصباح، وكان السيد زياد زعيتر يعمل في مكتب القدومي وكلاهما من نابلس. كما كان الدكتور زياد الجمل من حيفا رئيسا لأطباء الجيش والأمن العام، وفي الوقت نفسه الطبيب الخاص للشيخ عبدالله المبارك وعائلته.

وطلب الشيخ عبدالله المبارك سيارة فخمة بمواصفات خاصة من إحدى مصانع السيارات في أمريكا بحيث تحتوي على كل ما يخطر ببال أمير ثري، من الأضافات وميزات الترف والبذخ، وبحيث تكون مقابض أبوابها من الذهب ولها رفرافان ينزلقان من جانبيها للخارج بحيث يستطيع أربعة من حرس الشيخ الوقوف على جانبي السيارة ... ونقلت السيارة إلى إيطاليا لصنع فرشها الداخلي هناك، وثم نقلت جوا بطائرة خاصة إلى مطار الكويت ...!!!

وفي صيف سنة ١٩٥٧، سافر الشيخ عبدالله المبارك إلى أوروبا مصطافاً، ورافقته عائلته وحاشية كبيرة من الخدم والحراس والأتباع، وكان من جملتهم طبيبه الخاص الدكتور زياد الجمل والسيد هاني القدومي. استغرقت الرحلة حوالي ثلاثة أسابيع، وقال العارفون ممن كانوا في معية الشيخ إنه أنفق حوالي ستة ملايين دولار في تلك الرحلة ...!!

وعاد الشيخ وحاشيته إلى الكويت وكان أول ما قام به يوم رجوعه إلى الكويت أن أصدر أمرا (بتفنيش) إنهاء عمل الدكتور زياد الجمل وترحيله من الكويت على أول طائرة... ولم تنفع شفاعة أحد في تغيير رأي الشيخ؛ إذ أن كلمة الشيخ هي القانون ويجب تنفيذها، ورحل الدكتور الجمل على أول طائرة إلى غير رجعة حتى بدون أن يدفع له الشيخ راتب نصف الشهر الذي قضاه في خدمته، وبدون أي تعويض أو علاوة إنهاء خدمة !!

Digitized by Birzeit University Library

والأعجب من ذلك السبب الذي أدى إلى غضب الشيخ وتصميمه على الانتقام من طبيب محترم دمث الأخلاق كالدكتور الجمل ... إنه سبب غريب لا يمكن أن يصدر إلا عن عقل رجل جاهل لئيم خسيس قليل الأصل، لا يعرف معنى للمروءة والشهامة ... ولكنه شيخ كبير ومقتدر وكلمته مطاعة لا ترد.

كان ذنب الدكتور زياد الجمل أنه بينما كان يتمشى برفقة الشيخ العظيم في شارع الشانزليزيه بباريس سهى، ولم يعرف مقامه، ولم يحترم منزلة الشيخ، فسبق سيده بخطوة أثناء المسير ...!!!

أما الشيخ فهد ، شيخ دائرة الأشغال العامة، فكان عبدا فارع الطول يهوى الصيد. كان يمتلك ثلاثين صقرا من الصقور المدربة على صيد طيور الحباري، ولكل صقر "صقار" أي بني آدم، كل مهمته في الحياة حمل أحد الصقور، وتدريبه على القنص، والاعتناء بمأكله ومشربه ونظافته. وبنى الشيخ فهد برجاً وضع فيه (٥٠٠٠) زوج من الحمام ليطعم صقوره من زغاليلها!! مما ذكرني بأغنية "الزعني" اللبناني المشهورة التي تقول: "يا ريتني حمان في بيت سرسق ... باكل فستق باكل بندق".

ومن كثرة ما يأكل الصقر من الزغاليل الغنية بالبروتين كان يصاب بمرض يسمى النقرس (مرض الملوك) (Articular Gout) وكان من واجباتي في المستوصف البيطري أن أعالج صقور الشيخ فهد، وصقور مشايخ الكويت الآخرين من هذا المرض الذي من أعراضه انتفاخٌ في راحة رجليه بين مخالبه المخيفة نتيجة تكوّن مواد ترسبية بيضاء اللون، بحيث يصعب على الصقر أن يقف أو يمسك بمخالبه، مما يستدعي معالجته بأدوية مناسبة بالأضافة إلى إجراء عملية جراحية لراحة كفيه المملوءة، لأزالة المواد المترسبة. وتذكروا معي المثل المعروف "النذر للدير والوسخ لسمعان".

Digitized by Birzeit University Library

وكان في المستوصف رجل كويتي اسمه "أبو داود" كل عمله تقديم القهوة لكل من يحضر إلى المستوصف. وكان يصل إلى المستوصف البيطري كل غرّة شهر شوال (كيس) كبير من البن، وآخر من السكر، وزن كل منهما خمسون كيلو غراما، وهذا يفوق حاجة المستوصف. وكان أبو داود الكويتي يمتلك بيتا جيداً، ذلك أن بلدية الكويت هدمت سوراً قديماً لبيته بهدف توسيع الشارع، ودفعت مليون روبية تعويضا عن السور، أي ما يعادل مائة وخمسة وعشرين ألف دينار!!

وكان في الكويت سوق للسمك عبارة عن ساحة كبيرة مبلطة أرضيتها وبدون سقف، يوجد فيها أكوام مختلفة من أنواع السمك وأشهرها السمك الزبيدي المعروف، وجميعها معرضة لأشعة الشمس. وكان بيع السمك يستمر حتى الساعة الحادية عشرة قبل الظهر، حين يأتي عمال البلدية ويجمعون ما لم يبع من الأسماك مهما بلغ حجمها، ويلقون بها في البحر لعدم وجود ثلاجات تحفظها. لذلك كان ثمن السمك أعلى ما يكون في الصباح الباكر، ويبدأ الثمن بالنزول كلما اقتربت الساعة من الحادية عشرة مما دعى الكثيرين للذهاب لشراء السمك حوالي الساعة العاشرة.

وكان الكويتيون لا يأكلون الأعضاء الداخلية للذبائح مثل الكبد، والكلاوي، والطحال، وكذلك الخصاوي، ويرمونها من المسلخ باعتبارها (مال تشلاب) أي أكل الكلاب ... فلما كثر "الأيانب" الذين يأكلون تلك الأعضاء صار لها قيمة، وأصبحت تباع في الأسواق.

ومن عجائب ما رأيت أن الكويتيين كانوا يحضرون الماعز المريض إلى المستوصف محملا على المقعد الخلفي بسيارة كاديلاك، أو غيرها من السيارات الفاخرة كي يعالجوه، ولا يهم أن يتلوث فرش مقعد السيارة ببول وروث الماعز!! فالمال كثير والسيارات موجودة وفي متناول اليد.

Digitized by Birzeit University Library

كانت الجمارك على جميع البضائع المستوردة مهما كان نوعها ٤٪ سواء أكانت سيارات أم ملابس أم فاكهة أم ثلاجات أم أي شيء آخر ، ذلك لأن مفتي الكويت أفتى أن رسم الجمرك بأكثر من ٤٪ حرام، فضلا عن أن الأسرة المالكة لم يكن ينقصها المال.

وذات يوم حضرت امرأة كويتيه، حافية القدمين، تلبس ثوبا أسود يجر الغبار وراءها، وتختمر برقعا أسود غليظا فيه فتحتان لعينيها فقط ، تحمل دجاجة مريضة لمعالجتها. وبعد فحص الدجاجة كتبت لها وصفة طبية لصرفها من صيدلية المستوصف. وبعد دقائق بدأت المرأة الكويتية بالصراخ والسباب... وفهمت من صياحها أنها لا تريد العلاج الذي وصفته لها، وأننا الأيانب حضرنا لأخذ بيزات الكويت، ولم نصرف لها العلاج الجيد الذي يشفي دجاجتها ...!!

السيدة الفاضلة كانت قد أحضرت دجاجة أخرى مريضة منذ ثلاثة أشهر، وكنت على إدعائها قد أعطيتها علاجا وشفيت دجاجتها آنذاك وهي لا (تريد) العلاج الموصوف لها، وإنما تريد نفس العلاج الذي أخذته قبل ثلاثة أشهر!!!! ورطة ... ما العمل؟ وضعت أعصابي في ثلاجة " واللهم جيبك يا طولة الروح " !. قلت للمرأة: اتبعيني إلى الصيدلية، وغمزت الصيدلاني القانوني بعيني، أي ابق هادئا ، بعد أن كانت المرأة قد شتمته ، وقلت لها: كل هذه الأدوية من حكومتك، فاختاري منها ما يعجبك... وهدأت المرأة الفاضلة، ومرت تستعرض رفوف الأدوية واختارت علاجا أعجبها منظره، أو ظنت أنه نفس العلاج الذي كانت قد أخذته قبل ثلاثة أشهر، وطلبت من الصيدلاني إعطاؤها إياه ... ومن حسن الحظ أن ما اختارته لم يكن نوعا من السموم بل بعض الفيتامينات ... .

وبعد انصراف تلك المرأة الجاهلة بدأ الصيدلاني يسب ويلعن الزمن الذي أحوجه للقدوم إلى الكويت، وتحمل الأهانات، فهدأت من روعه قائلاً له: لو خرجت تلك المرأة غاضبة، وذهبت لشيخ دائرة الصحة شاكية لكنت أنا وأنت

Digitized by Birzeit University Library

اليوم أو غدا مطرودين من الكويت على أول طائرة مغادرة، وذكرته بما حصل للدكتور زياد الجمل الذي أبعد بسبب أقل بكثير من ذنبنا !!

الشيخ خالد الصباح ، شيخ الميناء:

تسلمت يوما، وأنا في المستوصف، رسالة هاتفية من قصر الشيخ خالد الصباح شيخ الميناء تطالب بحضور الطبيب لمعالجة إحدى أفراس الشيخ المريضة. ولما كنت لا أعرف موقع قصر الشيخ خالد، فقد طلبت من مفتش المواشي السيد عمر أبو الجيبين (من يافا) مرافقتي، إذ أنه كان يعمل في الكويت منذ بضع سنوات، ويعرف موقع قصر الشيخ. وذهبنا بسيارة المستوصف، ومعنا حقيبة علاجات بيطرية. ولما اجتزنا بوابة القصر، وجدنا صاحبه يجلس في صيوان (خيمة) كبير مقام في حديقة القصر الواسعة، وعند مدخل الصيوان كثير من (الفديوية) الحرس الشخصي للشيخ حفاة الأقدام يحملون البنادق وسلحلكات الرصاص على صدورهم، ودخلنا وسلمنا على الشيخ (طويل العمر) الذي دعانا للجلوس في ذلك الصيوان الفاخر المفروش بالسجاد العجمي الممتاز، والأرائك الفاخرة، وطلب لنا عصير ليمون وقهوة، ثم صفق بيديه فحضر أحد الخدم، وطلب منه الشيخ إحضار الفرس المريضة أمام مدخل الصيوان.

فحصت الفرس، وكانت مصابة بغشاوة بيضاء على عينيها، مرض يدعى (Opacity) سببه الرئيسي نقص حاد في (فيتامين أ). أعطيتها اياه، ووضعت علاجا يشتمل على مادة بودرة (Calomel) على عينيها. وسأل الشيخ: هل تشفى عينا الفرس؟ قلت: نعم، إن شاءالله، ولكن يا طويل العمر، علاجها يستغرق وقتا قد يصل إلى ثلاثة أسابيع، ويحتاج الأمر إلى علاجها بعلاج عام، وعلاج موضعي في العينين. ونصحته أن يضيف إلى علفها بعض البرسيم الأخضر، وأن لا يقتصر علفها على الشعير والتبن الناشف، لأنني أعتقد أن الفرس لم تتناول

Digitized by Birzeit University Library

علفا أخضر منذ أشهر عديدة. واستغرب الشيخ وسأل: ولكن، كيف عرفت ذلك؟ إنها فعلا وباقي خيلي لم تتناول برسيما أخضر منذ عدة أشهر. قلت: ذلك أمر بديهي، وإني لأنصحك باعطاء جميع خيلك البرسيم الأخضر، بالإضافة إلى العلف العادي وإلا فأنه، عاجلا أم آجلا، ستصاب الخيل الأخرى بمثل إصابة هذه الفرس نتيجة نقص فيتامين أ في غذائها. وكان الكويتيون يستوردون البرسيم الأخضر من البصرة بالعراق.

ورجوت الشيخ أن يرسل سيارة من قصره يوميا لإحضار مفتش المواشي لمتابعة علاج الفرس. شكرني الشيخ، ثم خطر بباله فجأة أن يمتحنني فسألني: كم عمر الفرس التي عالجتها؟ قلت: إنني لم أفحص أسنانها التي تدل على عمرها، فان أذنت لي قمت بذلك ... فأذن الشيخ، فقمت وفتحت فم الفرس، وفحصت أوضاع أسنانها، ورجعت وقلت لطويل العمر: طال عمرك، هذه الفرس، عمرها حوالي أربع سنوات. قال الشيخ: تمام، هذه الفرس مولودة عندي وعمرها أربع سنوات ... "زين يا طبيب زين". ثم أردف: " يا طبيب أبي (أريد) تعلمني شلون أعرف عمرالخيل "... وهنا وقعت الواقعة... ورطة ما بعدها ورطة ... كيف لي أن أعلم رجلا جاهلا مثل هذا الموضوع الصعب والمعقد ؟!! كيف لي أن أعلم هذا الأمي الذي يحمل أثقالا من الذهب عمر الخيل من وقت الولادة وسنة فسنة حتى سن الثلاثين عاما؟!! إن ذلك من رابع المستحيلات! قلت: يا طويل العمر: هذا موضوع صعب ومعقد؛ يتعلمه الطبيب في الجامعة من حيث عدد الأسنان الحليب المؤقتة أولا، ووقت ظهور كل منها، وثم وقت استبدالها بأسنان دائمة، وثم شكلها وطولها وزاوية إغلاقها على بعضها، وشكل طاولة السن، وعلامات خاصة ببعض الأسنان، وعلامات فارقة أخرى ... وكل ذلك يتغير سنة بعد سنة ... إن الموضوع طويل، ويحتاج إلى تطبيق وتدريب عملي كثير على مئات من الخيل حتى يتمكن الطبيب من معرفة هذا الموضوع.

ولم يفلح ذلك في إقناع الشيخ، وأصر على أن أعلمه "تسنين الخيل" (Dentition)

Digitized by Birzeit University Library

ولا حول ولا قوة إلا بالله! عندئذ طلبت أوراقا وقلما وقلت للشيخ: سأشرح لك سن الخيل من سنة إلى عشر سنوات، وبكلمة من طويل العمر، انتقلت قاعة من قاعات كلية الطب البيطري بالقاهرة إلى صيوانه العتيد في قصره، وبدأت المحاضرة ... والشيخ كله اهتمام، وآذان صاغية ظانا أنه سيكون بأمكانه أن يتفاخر أمام أقرانه الشيوخ فيفتح فم الفرس ويقول لهم هذه عمرها كذا، وهذه عمرها كذا !!... حلم جميل ... وبعد ساعة من الشرح المبسط والرسم على الورق، والشيخ يسأل، وأنا أجيب، ووصلنا إلى سن عشر سنوات ... وكنت أعرف أنه إذا كان البغل قد فهم يكون طويل العمر قد فهم.

ونظرت إلى طويل العمر الذي بدى عليه الضيق لأنه لم يستوعب - طبعا- ما قلت وشرحت ورسمت، وما كان منه إلا أن قال: "يا طبيب أعد". وأعدت ثانية وثالثة امتثالا لأمر طويل العمر الذي أخيرا توصل إلى نتيجة مفادها استحالة استيعاب الموضوع، واكتفى أخيرا بأن قال: "مشكور يا طبيب" ويعني ذلك أنني أستطيع أن أغادر إلى الهواء الطلق، فاستأذنت ورجعت إلى المستوصف وبرفقتي عمر أبو الجيبين. ولعنت الساعة التي جاءت بي إلى الكويت، ولكني حمدت الله أن خلصني من ذلك المأزق مع طويل العمر.

وفي صباح اليوم التالي، لم يحضر أحد من طرف الشيخ لأخذ مفتش المواشي لمتابعة معالجة الفرس، فلما قارب وقت الظهر قلت لمفتش المواشي: خذ سيارة المستوصف واذهب لمعالجة فرس الشيخ ... وما لبث أن عاد عمر أبو الجيبين وهو حانق ولما سألته عما حصل قال: "لقد طردني الشيخ شر طردة، وصاح بي "لا نبيكم ولا نبي دواكم" (لا نريدكم ولا نريد دواؤكم)" وسألت: لماذا ؟ قال عمر: "لأن أحد (فديوية) حرس الشيخ الجاهل أبلغه (أفهمه) أن دواء الطبيب لا ينفع لعين الفرس ... " هذي بدها بس ماء وملح" (محلول ملح الطعام بالماء) "!!!!

Digitized by Birzeit University Library

وأخذ الشيخ برأي رجله، وترك المعالجة العلمية الصحيحة!! قلت لعمر: لا تهتم، الله لا يرده ولكني حزين على الفرس ، كان الله في عونها ... الله أكبر ... ملح في العين ... الفرس ستصاب بالعمى، والله لو كنت صاحب سلطة في بلد متحضر، لقدمت هذا الشيخ للمحاكمة بموجب "قانون منع القسوة على الحيوان".

تلك هي الكويت كما رأيتها، وأرجو أن أكون قد بينت صورة من صور الحياة فيها مكتفيا بهذا القدر للانتقال لمرحلة أخرى. والحق يقال: أن الكويت كانت ملاذا وملجأ ورزقا طيبا لآلاف مؤلفة من الشعب الفلسطيني وغيره من الشعوب العربية، غير أن الحياة فيها لم تكن هينة؛ الطقس قاس جدا في الصيف، والوافد إليها يعيش على أعصابه، وعلى حساب صحته، وأصيب كثير بالقرحة المعدية والمعوية، وأمراض الأعصاب، وتعرض الكثير للمضايقات المتنوعة بل والأهانات أحيانا. وهكذا عدت إلى نابلس سنة ١٩٥٨ ومعي سيارة شيفروليه، ومبلغ ألف دينار أردني استطعت توفيرها أثناء عملي في الكويت سنة وأربعة أشهر فقط.

العودة إلى الأردن

في عام ١٩٥٨ كان معالي عاكف الفايز وزيرا للزراعة فأعاد تعييني رئيسا لأطباء البيطرة في محافظة نابلس، وأصبح في المحافظة أطباء بيطريون آخرون يساعدونني في كل من نابلس وجنين وطولكرم، بالأضافة إلى عدد لا بأس به من مفتش المواشي.

داء الكلب:

يوم تسلمي عملي في نابلس بلغت أن كلبا هائجا كان قد عقر (عضّ) ستة أشخاص من الحرس الوطني في مناطق قرى دير الغصون وعتيل وزيتا من

Digitized by Birzeit University Library

قضاء طولكرم، كما عضّ جملا وكذلك عقر (٢٢) كلبا آخر في القرى الثلاث المتجاورة المذكورة، إلى أن تم قتله وإرسال رأسه إلى عمان لفحصه من قبل مختبر وزارة الصحة. وكان ذلك قبل رجوعي لمكتبي بنابلس بثلاثة أيام.

تسلمت تقريرا من مختبر وزارة الصحة في عمان يفيد بأن العينة المرسلة غير مصابة بداء الكلب!!! وكان المفروض إذا كان الحال كذلك أن أبلغ طبيب الصحة بطولكرم كي يوقف تلقيح الأشخاص الستة تلقيحا وقائيا ضد داء الكلب. وكان تلقيح الأشخاص وقائيا يستدعي إعطاء حقنة تحت جلد البطن يوميا ولمدة (١٤) يوما.

وجدت أن جواب المختبر غير معقول إطلاقا، وغير قابل للتصديق، إذ أن وقائع الأمر تؤكد - دون أي شك - بأن الكلب المهاجم كان مصابا بداء الكلب إذ لا يعقل أبدا أن يقوم كلب غير مصاب بداء الكلب بمهاجمة وعقر تلك الأعداد الكثيرة من الناس والحيوانات وفي ثلاث قرى متجاورة. اتصلت هاتفيا بطبيب الصحة بطولكرم، وأكدت له ضرورة إكمال دورة التلقيح الوقائي للأشخاص المعقورين ،دون أن أذكر له أن المختبر أعطى جوابا سلبيا.

اتصل بي هاتفيا العقيد محمود الرفاعي قائد منطقة نابلس، وأبلغني أن قائد مخفر دير الغصون اتصل به لاسلكيا واخبره أن الجمل المعقور المحجوز تحت المراقبة هائج جدا، ويضرب الباب والجدران بجسمه ... طلبت من قائد المنطقة أن يرسل معي للقرية شرطيين أحدهما ببندقية والآخر بـ(توميجن) - مدفع رشاش - تحسبا لشدة هياج الجمل مما قد يضطرنا لقتله.

ولدى وصولي القرية أبلغني قائد المخفر أن الجمل قد هدأ، ولم يعد يسمع له أي صوت، فتوجهت إلى مكان احتجازه في غرفة مقفلة، فوجدت أن الأهالي قد أقاموا على الباب حاجزا حجريا خوفا من أن يخلع الجمل الباب وينطلق

Digitized by Birzeit University Library

خارجا ... طلبت هدم الجدار، وفتح الباب وطلبت إلى الشرطيين أن يقفا على أهبة الأستعداد لقتل الجمل شريطة أن ألا يصيبوه في رأسه ... فتح الباب ودخلت الغرفة فوجدت الجمل نافقا مبطوحا على الأرض بعد أن أصيب برضوض وجروح وتسلخات كثيرة في أنحاء جسمه ، فقطعت رأسه، ووضعته في صندوق، ثم أرسلته إلى المختبر في عمان لفحصه. كما تم إحراق جثته ودفنها.

والغريب في الأمر، أن المختبر التابع لوزارة الصحة في عمان أرسل نتيجة الفحص وكانت سلبية أيضا!! اعتقادي أن المختبر كان مخطئا أو أنه لم يكن بامكانه أن يفحص بدقة مثل هذه الحالات!!!

أذكر حادثة أخرى تتعلق بداء الكلب حصلت قبل احتلال الضفة الغربية، عندما كان الدكتور أنيس الايراني مديرا لصحة نابلس.

في إحدى ليالي شهر رمضان المبارك ، أبلغني الطبيب المناوب في المستشفى الوطني بنابلس أن عشرة أشخاص قد وصلوا المستشفى تباعا معقورين من كلب في منطقة باب الساحة من البلدة القديمة بنابلس الى أن قام أحد الشبان - ويعمل في محل حلويات تقي الدين المصري - بضرب الكلب بساطور حديد حتى قتله.

كان من بين المعقورين شرطي وطفلان أحدهما بعمر ٤ سنوات، والآخر خمس سنوات، وكان الطفل ذو السنوات الخمس أخرس، وقد عقرا في منطقة الرأس والرقبة ، أما الباقون فبأنحاء الجسم الأخرى، كما هشم رأس الكلب تماما بحيث لم يعد صالحا للفحص المخبري. ولدى استجواب الأشخاص المعقورين تبين أن الكلب قد هاجمهم بدون استفزاز مما يؤكد أنه مصاب بداء الكلب، وكان مدير صحة نابلس حاضرا أثناء الاستجواب.

Digitized by Birzeit University Library

وجدير بالذكر، أن إصابة الانسان في رأسه أو رقبته بعقر من حيوان مصاب بداء الكلب تتطلب أن يعطى الشخص المصاب المصل المضاد لداء الكلب، وليس اللقاح المضاد، على أن يعطى اللقاح بعد ذلك، لأن وصول الفيروس عند الأصابة في منطقة الرقبه والرأس الىالدماغ يكون أسرع منه في حالة الاصابة بمناطق أخرى من الجسم، ذلك لأن فيروس مرض داء الكلب يسري في العصب، وليس في الدم كما هو الحال في الأمراض الأخرى، فان وصل إلى الدماغ قبل حصول المناعة عند الشخص المعقور تصبح الوفاة حتمية ولا يمكن إنقاذ تلك الحالة.

إن الفرق بين المصل واللقاح أن الأول يعطي مناعة فورية ضد المرض لفترة قصيرة ، بينما اللقاح يعطي مناعة طويلة الأمد بعد مدة معينة حسب نوعه. لذلك فان أي معقور في منطقة الرقبة أو الرأس يجب أن يعطى المصل أولا ثم اللقاح. أما إذا كان مكان العقر في غير منطقة الرأس والرقبة ، كاليد أو الرجل ، فيكتفي بحقن اللقاح وحده.

أذكر أنه حتى ذلك الوقت، لم تكن وزارة الصحة في الأردن تستعمل أو تقتني المصل المضاد لداء الكلب ، بل تستعمل اللقاح المضاد لمعالجة المعقورين من قبل حيوان مصاب أو مشتبه باصابته بدليل أن عدة أشخاص كانوا قد عقروا في منطقة اربد من قبل حيوان بري مصاب أعطوا اللقاح المضاد، ولكنّ اثنين منهم كانا قد عقرا في الرأس والرقبة توفيا بعد أن أصيبا بداء الكلب.

ولما كنت عالما بحقيقة هذا الأمر أثناء بعثتي الدراسية إلى كلية تكساس للزراعة والهندسة، فقد أشرت على مدير صحة نابلس الدكتور أنيس الدين الايراني بوجوب معالجة الطفلين المصابين بواسطة المصل المقوّى ضد داء الكلب (Hyper Immune Anti-Rabic Serum) ، لأنهما لن يستفيدا إطلاقا من

Digitized by Birzeit University Library

اللقاح المضاد وحده. وفي الليلة نفسها قابلت قائد المنطقة في مكتبه، وشرحت له المشكلة ... سألني العقيد عبدالله الرافعي: "من أين يمكن الحصول على المصل المذكور؟" أجبته: حسب معلوماتي الشخصية فان هذا المصل المقوّى موجود في مكانين فقط بالشرق الأوسط: في إسرائيل وفي مختبرات الرازي بطهران (إيران).

كان قائد المنطقة العقيد عبدالله الرافعي متفهما جدا، ومتعاونا لأبعد الحدود، وقال لي: "من غير المحتمل أن نحصل على المصل من إسرائيل، ولكني سأحاول الحصول عليه من طهران ..." فقلت له إن معالجة الإصابات بهذا المصل يجب أن يتم قبل مرور ٣٦ ساعة من وقت العقر.

فكر قائد المنطقة قليلا، ثم اتصل هاتفيا قبيل منتصف الليل بوكيل وزارة الخارجية في بيته ، وكان نائما وتم إيقاظه ، طالبا جرعتين من المصل المطلوب من مختبر الرازي بطهران ... ومن المؤسف أن رد فعل وكيل الوزارة كان أن سأل عمن سيدفع ثمن المصل المطلوب!!! وللحقيقة أذكر، أن العقيد الرافعي كان شهما عندما أجابه على سمع مني بأنه سيدفع ثمن المصل من جيبه الخاص إن لم تقم وزارة الصحة بذلك، وأملاه اسم المصل الذي كنت قد كتبته له بالأنجليزية.

لم يكتف قائد المنطقة بذلك، بل اتصل هاتفيا بمدير مطار عمان مستفسرا عن موعد وصول أول طائرة من طهران ، مضيفا أنه سوف يرسل شرطيا من مكتبه لتسلم المصل من الطائرة، وإحضاره بأسرع وقت للمستشفى الوطني بنابلس. ومن الجدير بالذكر، أن العقيد الرافعي أرسل شرطيين إلى مطار عمان أحدهما بسيارة شرطة والآخر " بموتورسيكل " زيادة في الاحتياط خشية تعطّل إحداهما في الطريق.

Digitized by Birzeit University Library

قام وكيل وزارة الخارجية بالاتصال بالسفارة الأردنية في طهران، وكان سفير الأردن آنذاك معالي الاستاذ أكرم زعيتر النابلسي الأصل ، فاهتم شخصيا بهذا الموضوع، وتحقق من نقل المصل المطلوب على أول طائرة مغادرة إلى عمان، مرفقا الطرد الخاص بعبارة بخط يده "مستعجل جدا جدا ليصل إلى المستشفى الوطني بنابلس حيث حياة طفلين تعتمد على وصوله بأسرع وقت ممكن". إلى جانب ختم السفارة الأردنية في إيران.

وعند ظهر اليوم التالي، بَلَغْتُ ومدير صحة المحافظة بوصول المصل إلى مطار عمان وأنه في الطريق إلى نابلس، فتوجهنا إلى المستشفى الوطني لننتظر وصول الترياق من طهران. وحوالي العصر، وصل المصل إلى المستشفى الوطني بعد (٢١) ساعة من وقت عقر الطفلين، وذلك بهمة المعنيين الذين ساهموا في إحضاره، وبذلوا الجهد مشكورين لانقاذ حياة طفلين - جزاهم الله خيرا - .

كانت تعليمات إعطاء المصل مكتوبة بالفارسية (الإيرانية)، ولم يكن أحدنا يعرف تلك اللغة ... وللنكتة قلت للدكتور أنيس الايراني: تفضل يا دكتور إيراني ... فترجم ... فضحك الجميع. إلا أننا استطعنا معرفة مقدار الجرعة اللازمة ذلك أن اللغة الفارسية تكتب بأحرف عربية.

جهزت الممرضة الحقن (السرنجات) المعقمة، وهممت باعطاء المصل للطفلين إلا أنني استوقفتها، وطلبت إجراء اختبار حساسية للطفلين ... وكان رأيي في محله، وحقن كل طفل تحت جلد ظاهر اليد بنقطة صغيرة جدا من المصل، ولم تمض بضع دقائق حتى احمرت يد الطفل الأخرس وورمت مما يؤكد وجود حساسية عنده لذلك المصل بينما لم تظهر علامات الحساسية عند الطفل الآخر.

دبت الحيرة ... الطفل في وضع خطر فأن أعطي المصل ستحصل عنده حساسية قد تودي بحياته، وإن لم يعطِ المصل فسيقضي نحبه بداء الكلب ...

Digitized by Birzeit University Library

موقف خطير للغاية! قلت للدكتور أنيس الايراني مدير الصحة: هنا ينتهي دوري يا دكتور ... "البحر من ورائكم والعدو أمامكم" فتصرف بما ترى.

وهنا لا بد لي من أن أشهد للدكتور الايراني بحسن التفكير والتصرف، حين تناول كتابا من مكتبة المستشفى يبحث في الحساسية فطالع فيه، وعاد ليطلب من رئيسة الممرضات تنفيذ خطة قررها وجعلها مسؤولة شخصيا عن متابعتها ...

أعطي الطفل الأخرس الذي ظهرت عنده حساسية مجموعة من مضادات الحساسية بجرع وافية، ثم طلب من رئيسة الممرضات إعطاء الطفل ٠،١ (١٠/١ سم ٣) من المصل على أن تضاعف هذه الجرعة الصغيرة كل نصف ساعة حتى ينتهي إعطاء الجرعة الكاملة من المصل المقوّى. وتم إنقاذ الطفل الأخرس بفضل من الله.

Digitized by Birzeit University Library

قصتي مع المخابرات العراقية والسورية:

عندما أكمل ابني وضاح تعليمه الثانوي حصل عل معدل ٧٩،٦٪ في امتحان التوجيهي العلمي. أراد أن يدرس الطب فأرسلته إلى مصر، ولم يقبل لدراسة الطب، ولكنه قبل لدراسة الهندسة في جامعة أسيوط ولم يفلح في الدراسة التي فرضت عليه، وأصر على أن ميله هو دراسة الطب.

أخذته معي سنة ١٩٦٢، وسافرت برا بسيارتي قاطعا ألف كيلومتر إلى بغداد، حيث قدمت له طلبا للالتحاق بكلية الطب. فلما أعلنت نتائج القبول فوجئنا بقبوله في كلية العلوم وليس في الطب. واحترت في أمري.

في تلك الأثناء زارني في مكتبي صديق من طولكرم هو السيد جمال السيد، الذي كان يمتلك مزرعة كبيرة للأبقار الهولندية، وكان قد جاء يسأل عني أثناء وجودي في بغداد، وعلم أنني سافرت لإدخال ابني في الجامعة، فسألني عن الموضوع ورويت له ما حصل. قال الصديق جمال: لو أنك أخبرتني لكنت قد زودتك بكتاب إلى دولة طاهر يحيى باشا (رئيس وزراء سابق في العراق) ليدخل ابنك كلية الطب!!.

عندما دخل الجيش العراقي إلى الضفة الغربية سنة ١٩٤٨، كان العقيد طاهر يحيى قائدا لكتيبة دبابات عراقية رابطت شرقي مدينة طولكرم بالقرب من بيت السيد جمال السيد. وتعارف الرجلان وأصبحا أصدقاء، وكثيرا ما دعى جمال صديقه الضابط العراقي إلى بيته لتناول الغذاء أو العشاء، وتوطدت عرى صداقة حميمة بينهما. ومرت الأيام، فاذا العقيد طاهر يحيى يصبح دولة طاهر يحيى باشا، رئيسا لوزراء العراق ...

وحرر الصديق جمال كتابا إلى دولة الباشا في بغداد أوصاه فيه بي خيرا، ورجاه أن يدخل ابني إلى كلية الطب.

Digitized by Birzeit University Library

وكانت دائرة البيطرة بحاجة إلى بعض اللقاحات البيطرية فأقنعت معالي وزير الزراعة بعمان لطلبها من المختبرات البيطرية العراقية في أبو غريب قرب بغداد ، ووافق معالي وزير الزراعة على إيفادي في مهمة رسمية إلى بغداد لتأمين إرسال تلك اللقاحات إلى الأردن، وزودني بكتاب رسمي إلى نظيره وزير الزراعة العراقي في بغداد، وكذلك إلى السفارة الأردنية فيها.

كان الوقت صيفا، فغادرت عمان الساعة الثالثة بعد الظهر متجهاً وحدي بسيارتي إلى بغداد حيث وصلتها الساعة الخامسة صباحا، ونزلت في فندق السندباد، وكان اليوم يوم الخميس.

حصلت على رقم هاتف منزل دولة طاهر يحيى باشا من الفندق، واتصلت الظهر هاتفيا ورد عليّ رجل عرف نفسه بأنه سكرتير دولة الباشا. قلت: "أنا الدكتور حاتم كمال، وصلت اليوم من الأردن، ومعي رسالة خاصة لدولة الباشا، فمتى يمكنني التشرّف بمقابلته؟" أجاب السكرتير: "الباشا يجلس عادة في ديوانه غدا الجمعة حتى موعد صلاة الظهر فيمكنك أن تتفضل لمقابلة دولته".

كان القائم بأعمال السفير الأردني في بغداد السيد فواز أبو الغنم الذي سبق أن كان متصرفا في نابلس، وأعرفه معرفة شخصية، وكان الملحق العسكري الأردني في السفارة الأردنية ببغداد العقيد حيدر مصطفى.

زرت السفارة الأردنية، وبينت للقائم بأعمال السفير مهمتي الرسمية وسلمته كتاب وزير الزراعة الأردني، وصار الاتفاق على أن يطلب موعدا مع وزير الزراعة العراقي كي نقابله معا.

وتوجهت صباح الجمعة إلى منزل دولة طاهر يحيى باشا، وعندما وصلت وجدت ضابطا من الجيش يقف بسلاحه عند مدخل المنزل للحراسة بصفته كان

Digitized by Birzeit University Library

رئيسا للوزراء. ودخلت إلى الديوان وسلمت على الباشا وكان عنده العديد من رجالات وشخصيات بغداد، وجلست في مقعد خال. وقدم " عصير الليمون " والقهوة للزائرين الذين كانوا يتوافدون ويغادرون الديوان ... إلى أن استأذن الشخص الجالس على يمين الباشا حين طلب مني الباشا أن أجلس بقربه، وسألني عن غايتي فسلمته كتاب السيد جمال السيد وقرأه بامعان واهتمام ورحب بي أجمل ترحيب، وسألني عن أحوال صديقه جمال، وحملني تحياته وأشواقه اليه ثم قال: "ترى اليوم الجمعة عطلة ... سأكلم الدكتور عبد العزيز الدوري رئيس جامعة بغداد بخصوص ابنك ... اذهب اليه غدا صباحا في مكتبه وقل له أنا اللي دزني طاهر وإن شاء الله ما يصير إلا الخير" شكرت دولته كثيرا، واستأذنت للذهاب، فاذا به يقوم من مجلسه ويرافقني مودعا حتى باب الديوان، بينما كان بالكاد يقوم من مجلسه عندما يغادر من سبقوني في الانصراف.

وفي صباح السبت، ذهبت إلى مكتب رئيس جامعة بغداد، وعرفت نفسي إلى سكرتيره الذي كان يحمل درجة دكتوراة، الذي أفاد بأن الدكتور الدوري ينتظرني بمجرد انتهاء جلسة لعمداء الكليات كانت منعقدة في مكتبه، وإنّ الجلسة شارفت على الانتهاء، وأجلسني في مكتبه بحفاوة ريثما يتفرغ لي رئيس الجامعة.

وبعد نصف ساعة، انفضت جلسة عمداء الجامعة، وأدخلني السكرتير إلى مكتب الدكتور عبد العزيز الدوري، وكان لا يزال عنده رجلان أحدهما عميد كلية الطب والآخر عميد كلية طب الأسنان. وطلب لي رئيس الجامعة شايا أخضر (وكان ذلك أول مرة أسمع فيها أن هنالك شاياً أخضر) ثم سألني عما يستطيع أن يخدمني به ... قلت: ابني قبل في كلية العلوم بينما ميله أن يدرس الطب. سأل رئيس الجامعة: "إش قد معدله؟" قلت ٧٩,٦٪. نظر الى العميدين الجالسين في مكتبه وقال: "معدل زينه ... طبعا يدخل طب" ... ودعيت في

Digitized by Birzeit University Library

نفسي لدولة طاهر يحيى بطول العمر. وبعد سنوات من الدراسة، نجح ابني في دراسة الطب وتخرج طبيبا من طب الموصل، ثم أكمل تخصصه بجراحة الكلى والمسالك البولية في انجلترا، وحصل على شهادة زميل الكلية الملكية للجراحين "F.R.C.S.". أما عن مهمتي الرسمية فقد تكللت بالنجاح بعد أن قابلت برفقة القائم بأعمال السفارة الأردنية في بغداد السيد فواز أبو الغنم معالي وزير الزراعة العراقي الذي تكرم فأصدر أمرا إلى مدير المختبرات البيطرية العراقية في أبو غريب بتسليمي جميع اللقاحات البيطرية المطلوبة للأردن هدية من الحكومة العراقية لا مقابل لها.

دعاني السيد فواز أبو الغنم للغذاء وحضر المأدبة العقيد حيدر مصطفى الملحق العسكري الأردني في السفارة الأردنية ببغداد، وبعض موظفي السفارة، وعند شرب القهوة (أعلم) أخبر العقيد حيدر أن عائلته في عمان لذلك يدعوني غدا للغذاء في مطعم "المطعم" بشارع الرشيد. حاولت الاعتذار، ولكن الرجل أصر وقال لي : انتظرك غدا في السفارة الساعة الواحدة بعد الظهر، وتترك سيارتك هنا ونذهب بسيارتي إلى المطعم.

وفي الموعد، توجهت مع العقيد حيدر بسيارته نحو المطعم، وبعد أن سرنا في شوارع بغداد أبدى العقيد حنقه قائلا: هنالك سيارة مدنية تتبعني وأخذ يلف في منعطفات ليتأكد من ذلك. وكان يعرف شوارع بغداد جيدا وقال " أما شيء بارد " ... سوف أقدم شكوى لرئيس الأركان ... هذه السيارة التي تلاحقني لا بد وأنها من قبل المخابرات العراقية، ولكي يقطع الشك باليقين دخل بسيارته إلى دخلة تؤدي إلى ملعب مدرسة حيث أدارها بسرعة، وخرج بها من الدخلة نفسها والتقى هناك بالسيارة التي تلاحقه، وكان فيها شخصان بلباس مدني ، فأوقف سيارته سادا الطريق أمام السيارة الأخرى، وأطل برأسه من نافذة سيارته قائلا: "نحن ذاهبان إلى مطعم "المطعم" لتناول الغذاء اتفضلوا ويانا" ... ضحك الرجلان ولم يجاوبا بشيء وأفسحا الطريق، غير أنهما استمرا في ملاحقة

Digitized by Birzeit University Library

سيارة العقيد عن بعد مناسب، فلما وصلنا المطعم ترك العقيد سيارته أمامه، ودخلنا لتناول الغذاء، ووقفت السيارة المدنية الملاحقة وراء سيارة العقيد وبقي راكباها فيها.

كان العقيد حيدر (ابن صنعة) لأنه لاحظ السيارة التي تتبعنا بعد فترة وجيزة من مغادرتنا لمبنى السفارة الأردنية ثم تأكد من ذلك. وبعد الغذاء تركنا المطعم للرجوع إلى السفارة، وكانت السيارة التابعة للمخابرات لا تزال مكانها، وتبعتنا بمجرد انطلاقنا عائدين إلى السفارة الأردنية. وقال العقيد حيدر أنه سيتصل برئاسة الأركان بمجرد رجوعه للسفارة لتقديم شكوى رسمية بذلك... ولم يكن يدور في خلده، أو في مخيلتي أن المخابرات السعكرية كانت ورائي أنا وليس وراء الملحق العسكري للسفارة الأردنية!!

أخذت سيارتي، وسرت بها عائدا إلى فندق السندباد ... ونظرت في المرآة وإذا السيارة ذاتها ورائي ... ودخلت الفندق وإذا صاحبانا يدخلان ورائي ... ودخلت غرفتي وإذا هما يدخلان إلى غرفة الفندق المواجهة لغرفتي ... إذن، فأنا الذي كنت تحت مراقبة المخابرات دون أن أدري ...

علمت فيما بعد، أنني وضعت تحت مراقبة المخابرات العسكرية العراقية منذ اليوم الأول من وصولي إلى بغداد!! أي منذ اللحظة التي اتصلت هاتفيا بمنزل دولة طاهر يحيى باشا ، رئيس وزراء العراق السابق ، قائلا: "أنا فلان من الأردن ومعي رسالة خاصة لدولة الباشا...!!" وما يدريني أن هاتف دولة الباشا كان موضوعا تحت المراقبة السرية من قبل المخابرات العسكرية العراقية؟!!

اتصلت هاتفيا بالعقيد حيدر مصطفى وقلت له: الجماعة ورائي أنا وليس وراءك. قال: عرفت بعد أن اتصلت برئاسة الأركان... لا تهتم يا دكتور، لقد شرحت لهم أنك في مهمة رسمية من أجل اللقاحات، وأنك قابلت وزير الزراعة،

Digitized by Birzeit University Library

وأنك كذلك قابلت دولة طاهر يحيى من أجل إدخال ابنك في كلية الطب ... وسوف لا يصيبك أي سوء ... إنه مجرد إجراء روتيني من باب الاحتياط فلا تقلق.

واستمر رجلا المخابرات في ملاحقتي حيث أذهب ... فأن تركت الفندق سيرا على الأقدام تبعاني، وإن استعملت سيارتي كانا ورائي بسيارتهما. ثم علمت أن جميع مخابراتي الهاتفية الصادرة أو الواردة للفندق كانت تحت المراقبة - أيضا - وأن رجلي المخابرات احتلا غرفة الفندق المواجهة لغرفتي منذ اليوم الأول من وصولي إلى بغداد!! وبقي الحال على هذا المنوال إلى أن غادرت بغداد بسيارتي عائدا إلى عمان حين بقيت سيارة المخابرات التي تحمل رقم سيارة خصوصية خلفي مسافة ثلاثين كيلومترا غربي بغداد للتأكد أنني مغادر فعلا حيث توقفت المتابعة وعادت إلى بغداد.

وللحقيقة أقول: إنهم كانا مهذبين، ولم يمساني بأي سوء أو مضايقة إطلاقاً. وانتهت قصتي مع المخابرات العراقية ليكون القدر قد خبأ لي قصة أخرى مع المخابرات السورية بعد حوالي عشر سنوات.

Digitized by Birzeit University Library

المخابرات السورية:

في سنة ١٩٧٣ عزمت على السفر إلى بيروت، وثم الى الأسكندرية لحضور حفلة تخرج ابنتي الصغرى ريما وحصولها على درجة ماجستير في الاقتصاد من جامعة الأسكندرية. وكنت أحمل جواز سفر أردنياً خاصاً أحمر اللون بصفتي موظفاً بالدرجة الأولى. ولما كان تاريخ جواز سفري قد انتهى، فقد سافرت من نابلس إلى عمان للحصول عل جواز سفر ساري المفعول.

قابلت عطوفة وكيل وزارة الزراعة في عمان الذي تكرم بمخابرة مدير الجوازات هاتفيا، وأرسل جواز سفري المنتهي مع أحد السعاة، وخلال أقل من ساعة كان معي جواز سفر خاص جديد ساري المفعول. كنت عادة أسافر من عمان إلى بيروت بالطائرة، أما هذه المرة فكتب لي أن اسافر لبيروت برا عن طريق دمشق، سافرت بمقعد في سيارة من عمان إلى دمشق كي أتابع السفر إلى بيروت.

ولما وصلنا إلى مركز الحدود السوري في درعا قدم ركاب السيارة التي أقلتنا كالمعتاد - جوازات السفر، وأرجعت جميعها مختومة بالدخول ما عدا جواز سفري. فلما استفسرت عنه حضر أحد موظفي المركز السوري بلباس مدني، وأبلغني بوجوب مراجعة المخابرات العامة في دمشق، وأعطاني ورقة أن جواز سفري محجوز، وسيرسل إلى المخابرات العامة في دمشق مؤكدا ضرورة المراجعة في صباح اليوم التالي!!

ولم تكن العلاقات بين الأردن وسوريا على ما يرام آنذاك، ولم يكن في نيتي أن أبقى في دمشق، ولكن هكذا شاء القدر.

Digitized by Birzeit University Library

ونزلت في فندق أمية وهو قريب من المرجه * وفي الصباح، ذهبت بسيارة أجرة إلى المخابرات العامة ووضعوني في غرفة انتظار ومرت ساعة ... ساعتان، ثم نصف ساعة أخرى، وتذكرت التجربة السابقة لي مع الخابرات الأردنية ... الطريقة والأسلوب نفسه لتحطيم أعصاب الزبون ... وأخيرا نودي علي لمقابلة اثنين من ضباط المخابرات في غرفة مظلمة تحت مستوى الشارع تضاء بالكهرباء نهارا. وبدأ التحقيق ... وعلمت سبب استدعائي للمخابرات ... أنت تحمل جواز سفر خاص، لماذا حضرت إلى سوريا في اليوم والتاريخ اللذين حصلت فيهما على جواز السفر الخاص؟؟!! أنت من نابلس من الأرض المحتلة، ما هي الغاية من حضورك إلى دمشق؟

قلت: جواز سفري السابق انتهى تاريخ مفعوله، فاستصدرت جواز سفر جديد بدلا منه، وأنا لست قادما للبقاء في دمشق، بل كنت مسافرا إلى بيروت عن طريق دمشق، ولم أكن لأبقى فيها لولا أنكم حجزتم جواز سفري، وليس لدي أي سبب للبقاء في سوريا لأنني يجب أن أسافر إلى الاسكندرية لحضور حفلة تخرج ابنة لي في جامعة الاسكندرية بعد ستة أيام. أعطوني جواز سفري ولكم علي أن أسافر فوراً إلى بيروت.

وانهالت علي أسئلة متنوعة عديدة: عمرك ؟ عملك ؟ أقاربك ؟ أبناؤك ؟ أصدقاؤك في نابلس الخ ... وانتهت المقابلة بأن طلبا مني الرجوع غدا صباحا الساعة العاشرة.

وخرجت من المخابرات، ولم يفتني هذه المرة أن ألاحظ رجلين من المخابرات كانا يتبعاني. فكرت باللجوء إلى السفارة الأردنية في دمشق، ثم عدلت خشية أن تتعقد الأمور من سيء إلى أسوأ.

---

* أشهر ساحات دمشق واسمها الرسمي - ساحة الشهداء -.

Digitized by Birzeit University Library

ورجعت صباح اليوم التالي، ولم يطل انتظاري هذه المرة وأدخلت إلى غرفة أخرى فيها اثنان آخرين من ضباط المخابرات. وبدأ تحقيق من نوع أخر:

- **من هم الأشخاص الذين يترددون على مكاتب الحاكم العسكري اليهودي بنابلس؟**

رئيس البلدية، ورئيس الغرفة التجارية، ومدراء الدوائر، وكل من له معاملة تصريح سفر أو هوية، وكل من يستدعيهم الحاكم أو مساعده.

- **من هم العملاء في نابلس؟**

لا أعرف أحدا منهم.

- **أين تقع المطارات العسكرية في اسرائيل؟**

لا أعرف، لم اشاهد أي مطار إلا مطار اللد المدني (مطار بن غوريون).

- **أين تقع معسكرات الجيش الكبيرة في اسرائيل؟**

لا أعرف .

- **ما رأيك أن تعمل مع المخابرات السورية مقابل راتب شهري محترم بحيث تأتي الينا كل شهر مرة، ونحن نتكفل بجميع نفقات سفرك وإقامتك أيضا؟**

أنا لست مؤهلا لعمل كهذا، ولا أستطيع أن أفيدكم في شيء من هذا القبيل، فضلا عن أنني موظف، ولا أستطيع إطلاقا الحصول على إجازة شهريا لأحضر عندكم.

Digitized by Birzeit University Library

وبعد هذا، طلبوا مني الرجوع في صباح الغد، وذهبت إلى مكتب البريد، وحصلت على ورقة برقية، وكان رجلا المخابرات خلفي. وفي صباح اليوم الثالث توجهت إلى المخابرات السورية بعد أن عبّأت البرقية على النحو التالي :-

" فخامة رئيس الجمهورية السورية الأكرم ".

أنا الدكتور حاتم كمال مواطن عربي أردني كنت مسافرا من عمان إلى بيروت عن طريق دمشق، حجزت المخابرات السورية جواز سفري الخاص منذ ثلاثة أيام لاشتباههم بمجيئي إلى سوريا في تاريخ يوم صدور جواز سفري! أتظلم لفخامتكم راجيا التفضل بالإيعاز للمخابرات العامة لإرجاع جواز سفري على أن أغادر سوريا فورا."

وهذه المرة أدخلوني إلى ضابط كبير عرف نفسه أنه رئيس شعبة فلسطين في المخابرات السورية. وبادرته بالقول: إن هذا هو اليوم الثالث لحجزكم جواز سفري دون وجه حق، أنا كنت مارا من دمشق في طريقي إلى بيروت، ثم أنا مواطن أردني، ولست مواطنا سوريا. فما الذي تريدونه مني؟! أجاب "نحن حزب البعث نعتبر أنفسنا مسؤولين عن جميع العرب!!" وهنا طفح الكيل وقلت: بأي حق تعطلونني إذن، وليس لديكم أية تهمة ضدي؟! أنا لم ألجأ لسفارتي الأردنية ، كما تعلم جيدا ممن يتبعني من رجالكم ، حتى لا أزيد الأمور تعقيدا، ولكنني أقسم بالله العظيم إن لم تسلمني جواز سفري، فأنني سأرسل هذه البرقية الى - فخامة الرئيس حافظ الأسد - وأخرجت البرقية من جيبي ووضعتها أمامه. قرأها ثم قال: لا داع لأرسال البرقية، وسحب درجا في مكتبه أخرج منه جواز سفري وسلمني إياه قائلا: نحن آسفون يا دكتور لإزعاجك، وبما أننا عطلناك أرجو إعلامي عن المبلغ الذي تكلفته بسبب تأخيرنا لك في دمشق كي ندفعه لك. قلت: لا أريد منكم شيئا سوى جواز سفري، ولك علي ألا أبقى في دمشق دقيقة واحدة إلا لأخذ أمتعتي من الفندق، والسفر بأول

Digitized by Birzeit University Library

سيارة إلى بيروت. وكرر رئيس شعبة فلسطين في المخابرات السورية اعتذاره وأنا أغادر مكتبه. وغادرت دمشق ولم أدخلها مرة أخرى حتى كتابة هذه السطور بعد مضي ٢٠ عاما.

درجة ماجستير في الاقتصاد لابنته ريما :-

وسافرت في الحال إلى بيروت ثم جوا إلى القاهرة، ووصلت الاسكندرية قبل موعد حفل تخرج ابنتي ريما بيومين. كانت ابنتي قد حصلت على درجة بكالوريوس في الاقتصاد والتجارة من الجامعة الأردنية قبل حوالي سنتين من التحاقها بجامعة الاسكندرية للحصول على درجة ماجستير في الاقتصاد. وحضرت رسالة موضوعها "أثر السياحة في الاقتصاد الإسرائيلي" وكنت قد جمعت لها مجموعة كبيرة من الكتب والنشرات والمطبوعات من مكتبات القدس، ودائرة السياحة الإسرائيلية لتمكينها من تحضير الرسالة المذكورة ... وكانت أول رسالة علمية تقبل في جامعة عربية عن مجال من مجالات الاقتصاد الإسرائيلي.

وتشكلت لجنة من ثلاثة أساتذة اقتصاد برئاسة الدكتور عجميه، عميد كلية الاقتصاد بجامعة الاسكندرية ، وعميد كلية الاقتصاد بجامعة الأزهر، وأستاذ اقتصاد من جامعة الاسكندرية لمناقشة الطالبة ريما كمال في قاعة محاضرات جامعة الاسكندرية.

وفي الموعد المحدد، غصت القاعة بالحاضرين، وجلست أنظر بحنان واعتزاز إلى ابنتي وهي تجيب عن أسئلة لجنة الأساتذة الثلاثة وهم يناقشونها في موضوع رسالتها، واستمر نقاش الرسالة ساعتين كاملتين.

Digitized by Birzeit University Library

ثم تكلم عميد كلية الاقتصاد بجامعة الأسكندرية، الدكتور عجمية، قائلا:

" قررت جامعة الاسكندرية منح الطالبة ريما حاتم كمال درجة ماجستير في الأقتصاد" ويسرني بهذه المناسبة أن أعلن أن جامعة الاسكندرية هي أول جامعة عربية تمنح درجة ماجستير لرسالة تطرقت وبينت معلومات هامة عن الاقتصاد الاسرائيلي كنا نجهلها. بينت الرسالة إحصائيات ومعلومات قيمة لم يكن من الممكن الحصول عليها لولا أن الطالبة تعيش مع أسرتها في الأرض المحتلة ... إني لأشكر من على هذا المنبر والدها الموجود بيننا الذي تمكن من جمع المراجع القيمة التي بنيت الرسالة على ما جاء فيها.

وأضاف: جاء في الرسالة أن ٧٠٪ من البضائع المستوردة أو المصدرة من وإلى إسرائيل تنقل بسفن إسرائيلية، بينما وللأسف الشديد فأن ٥٪ فقط من البضائع المستوردة أو المصدرة في الدول العربية تنقل بسفن عربية ".

ثم دعاني العميد إلى المنصة لأخذ صورة تذكارية مع ابنتي والأساتذة الثلاثة، وعندما أعلن العميد منح درجة الماجستير لابنتي الصغرى لم أستطع أن أتمالك نفسي واغرورقت عيناي بدموع التأثر والفرح.

من هو الوزير؟!!

مرض الحمى الفحمية (الجمرة الخبيثة) أو ما يسمى محليا " أبو ملعون "* " Anthrax " مرض معدٍ يصيب الحيوانات بشكل حاد ويقتلها في وقت قصير، وكذلك يصيب الأنسان إما موضعيا بشكل قرحة صعبة الشفاء (الجمرة الخبيثة) أو بشكل عام خطير إن تسرب ميكروب المرض للأعضاء الداخلية وخاصة الرئتين والجهاز الهضمي.

حصلت عدة إصابات بالحمى الفحمية بين الأغنام في بعض القرى الواقعة شرقي مدينة نابلس ، مما استدعى القيام بحملة عامة لتلقيح أغنام المحافظة وقائيا ضده، علما بأن اللقاح الواقي من المرض يعطي مناعة لمدة سنة.

Digitized by Birzeit University Library

قابلت معالي وزير الزراعة السيد كامل محيي الدين، في مكتبه بعمان وكان برفقتي مدير البيطرة الدكتور كمال الطاهر. شرحت الوضع للوزير وأخذت موافقته على القيام بحملة تطعيم وقائي عامة لجميع الأغنام في محافظة نابلس للحد من الخسائر التي يسببها الوباء، إضافة لخطورته على الأنسان. وطلبت من الوزير تخصيص سيارتين من سيارات قسم الإرشاد الزراعي لمدة شهر ونصف لتمكيني من إنجاز الحملة الضرورية، وذلك بعد أن كنت قد استشرت مدير زراعة نابلس آنذاك المرحوم رشاد الشافعي الذي أبدى استعداده لإعارة سيارتين من سيارات الإرشاد الزراعي الأربعة التي كانت بحوزته ... ووافق الوزير على ذلك بحضور مدير البيطرة.

أحضرت كميات اللقاح الواقي اللازمة، ورسمت خطة لسير الحملة، وبلغت مخاتير القرى عن مواعيد التلقيح الوقائي، وأعلمت الحكام الإداريين وقائد المنطقة وقائدي المقاطعات في محافظة نابلس بالبرنامج الذي وضعته للغاية المذكورة.

وفي ظهر اليوم السابق لبدء الحملة، جاءني مدير زراعة نابلس وأعلمني بأسفه لعدم تمكنه من إعارة السيارتين، لأن مديره السيد سعيد الغزاوي، مدير الإرشاد الزراعي بوزارة الزراعة، أبلغه للتو بعدم الموافقة على إعارة السيارتين.

اتصلت هاتفيا بوزارة الزراعة، وطلبت محادثة الوزير فقيل لي إنه غادر الوزارة قبل قليل فتكلمت مع وكيل الوزارة آنذاك، المرحوم سامي أيوب ، وهو شركسي ، وشرحت له الموقف الشاذ الذي وضعت فيه بعد أن وافق الوزير، وأبلغته أنني سأقوم باستئجار سيارتي تكسي على حساب الوزارة لبدء الحملة غدا، وأنني قادم لعمان في الصباح الباكر لمقابلة معالي الوزير.

صابحت مدير البيطرة، الدكتور كمال الطاهر في مكتبه بعمان، وذهبت

Digitized by Birzeit University Library

معه لمقابلة الوزير في وزارة الزراعة. فلما دخلنا مكتب الوزير بادرته بتذكيره بالموافقة على إعارة سيارتي الإرشاد الزراعي، كما أبديت احتجاجي على تصرف مدير الإرشاد الزراعي خاصة وأن المعني بالأمر، مدير زراعة نابلس، لم يكن لديه مانع من إعارة السيارتين!! وأبلغت الوزير أنني استأجرت سيارتي تكسي على حساب الوزارة لبدء الحملة اليوم.

قال الوزير: "أترك لي الموضوع كم يوم وأنا بشوف سعيد بك"!! فما كان مني إلا أن ضربت طاولة الوزير بقبضة يدي وقلت محتدا "أنا بدي أفهم من هو الوزير أنت ولاّ سعيد بك؟! والله، الغنم لا هي لدار أبي ولا لدار عمي، بل هي مصلحة عامة للبلد وأنت سبق ووافقت ... إن لم تضع سيارتي الإرشاد تحت تصرفي إعتبارا من الساعة السابعة من صباح الغد لا يسعني، وبكل بساطة، إلا أن أصدر بلاغا رسميا بالغاء حملة التطعيم، وإبلاغ جميع الجهات الرسمية، وتحّمل معاليك مسؤولية ذلك."

وخرجت من مكتب الوزير غاضبا وبدون استئذان، ولحق بي مدير البيطرة وكان يرتجف، وقال لي: " زودتها يا دكتور ... هذا وزير " قلت وبصوت عال : " بحسب الباشا باشا أتاري الباشا زلمه والله يا دكتور اللي بحكي الحق ما بتنخزق طاقيتو ".

ودخلت ومعي مدير البيطرة مكتب وكيل الوزارة، وأبلغته بما حصل حرفيا، ورجوته أن يبلغ الوزير، على لساني، أنه إذا لم أحصل على سيارتي الإرشاد - كما وافق سابقا - فأنني بالإضافة إلى إلغاء الحملة وبيان سبب إلغائها فأنني سأطلب من نائبين من نواب مدينة نابلس أن يستجوبا معاليه تحت قبة البرلمان بهذا الخصوص.

وفي الساعة السابعة صباح اليوم التالي، كانت سيارتان من سيارات الإرشاد

Digitized by Birzeit University Library

الزراعي أمام مكتبي بنابلس وبقيتا تحت تصرفي وحتى انتهاء الحملة العامة للوقاية من مرض الحمى الفحمية ... وصدق المثل العامي الذي يقول " ما يجيب الرطل إلا الرطلين".

دولة الدكتور قاسم الريماوي:

شغل الدكتور قاسم الريماوي (أبو حاتم) ابن قرية بيت ريما/رام الله الحائز على درجة الدكتوراه في الاقتصاد من جامعة كورنيل بالولايات المتحدة الأمريكية عدة مناصب وزارية منها: وزير الزراعة مرتين، ووزير للشؤون البلدية والقروية، وفي آخر المطاف أصبح رئيسا للوزراء في الأردن ... - رحمه الله وأسكنه فسيح جناته -.

كان ثائرا حمل البندقية، وجاهد ضد الانتداب البريطاني على فلسطين. علمت بذلك صدفة عندما قام وهو ووزير للزراعة بزيارة رسمية لمحافظة نابلس ليوم كامل لتفقد خدمات الوزارة في الحقل (وليس في المكاتب). ومن جملة المواقع التي زارها قرية اللبن الشرقية حيث شاهد عملية لتلقيح الأغنام وقائيا ضد مرض الحمى الفحمية. وكان من جملة أصحاب الأغنام الحاضرين رجل يعرج في سيره من القرية ذاتها ما أن رآه معالي وزير الزراعة حتى احتضنه وعانقه بحرارة مستفسرا عن أحواله سائلاً : أما زلت تعرج يا أخي، من تلك الأصابة؟ أجاب الرجل: بلى وتبين أن هذا الرجل كان مشتركا مع الدكتور قاسم الريماوي في معركة بالسلاح الناري ضد الجيش البريطاني أثناء الانتداب، وأصيب في رجله أثناء المعركة.

الدكتور الريماوي عالم متبحر وإداري من الطراز الأول مع التواضع الجم والحزم في تسيير الأمور. أجرى تغييرات جذرية في ارتباط وإدارة مكاتب الوزارة (الزراعة والبيطرة والحراج) بحيث عين مديرا عاما لإدارة فروع الوزارة

Digitized by Birzeit University Library

الثلاثة في كل محافظة أو لواء. وكان قد تعرف على عملي مليا، وعينني مديرا لمكاتب الوزارة الثلاثة في محافظة نابلس، بالإضافة إلى كوني رئيسا لأطباء البيطرة في المحافظة بحيث أصبحت مسؤولا إداريا وماليا عن جميع فروع الزراعة، ومفتش الحراج في المحافظة، يساعدني مسؤول فني عن كل فرع من فروع الزراعة كالبستنه والفلاحة ووقاية النبات الخ ... .

العلاوة الفنية للأطباء البيطريين :

قررت الحكومة الأردنية صرف علاوة فنية قدرها ٨٠٪ من الراتب الأساسي لأطباء الصحةالعاملين في وزراة الصحة. وقدم الأطباء البيطريون الحكوميون طلبا لوزير الزراعة للحصول على علاوة فنية، ولم تستجب حكومة دولة وصفي التل حينئذ لذلك الطلب. وكان وقتئذ الدكتور قاسم الريماوي وزيرا للشؤون البلدية والقروية بعد أن كان وزيرا للزراعة في وزارة سابقة.

تشاورت مع الدكتور كمال الطاهر ، مدير دائرة البيطرة ، الدكتور راغب كمال رئيس أطباء بيطرة العاصمة والدكتور هشام نسيبه ، رئيس أطباء بيطرة محافظة القدس في الأمر، واتفقنا على عقد اجتماع لجميع الأطباء البيطريين الحكوميين في مديرية البيطرة بعمان. وخططنا لتقديم استقالة جماعية إن لم يستجب لطلب منحنا علاوة فنية. وعقد الاجتماع وتحمس الجميع، ونزلنا إلى مكتب بريد عمان، وأرسلنا برقية إلى وزير الزراعة بأننا مستقيلون من العمل الحكومي بسبب عدم منحنا علاوة فنية، ووقع جميع الأطباء البيطريين الحكوميين على البرقية وبقينا في عمان. وفي اليوم التالي، طلب معالي هزاع المجالي وكان أنذاك وزيرا للداخلية مقابلة وفد يمثل الأطباء البيطريين في مكتبه فورا ... وذهب الأربعة المذكورون آنفا لمقابلة وزير الداخلية.

Digitized by Birzeit University Library

وكانت الاستقالة الجماعية أمرا لم تألفه الحكومة ولا سابقة له. قال وزير الداخلية: تصرفكم غير مقبول ... يعني، أنا الوزير لو أردت الاستقالة لا يحق لي أن أرسل برقية لرئيس الوزراء أبلغه فيها باستقالتي، وأغادر مكتبي. هذا عمل غير لائق... عودوا لعملكم واتركوا لنا فرصة بحث الموضوع بترو... استقالتكم لم تقبل بعد، ويجب على كل منكم أن يرجع إلى مركز عمله ومسؤوليته الى أن يبت في هذا الموضوع.

أبدينا وجهة نظرنا ... ودافعنا عما نعتقد أنه حق وإنصاف... وأن عدم منحنا العلاوة الفنية يكون ظلماً لنا ... وأننا سنرجع لمراكزنا منتظرين رد الحكومة بالإيجاب.

وذهبت لزيارة الدكتور قاسم الريماوي في مكتبه بوزارة الشؤون البلدية والقروية. وما أن أبلغه سكرتيره بقدومي حتى رحب بي أجمل ترحيب. أبلغته بما حصل وقلت له: أنا أعرف أن دولة وصفي التل صديقك ، لذلك، فأننا نأمل المساعدة من معاليك باقناعه بدفع العلاوة لنا وبخلاف ذلك نحن مصممون على ترك العمل، وشل حركة دائرة البيطرة تماما...فنحن لا نرغب في مشاكل مع الحكومة، ولكننا مضطرون لركوب المركب الصعب إذا لزم الأمر. ووعد الدكتور الريماوي بتقديم مساندته لنا ودعم قضيتنا.

وبهذا قرر مجلس الوزراء، في أول اجتماع له بعد ذلك، منح الأطباء البيطريين علاوة فنية قدرها ٧٠٪ من الراتب الأساسي، ونشر ذلك في نظام قانوني في الجريدة الرسمية. ووصلتني برقية من الدكتور إياد الحموري، طبيب البيطري السلط آنذاك، يهنئني فيها على مجهوداتي التي لولاها لما نال الأطباء البيطريون علاوة فنية.

Digitized by Birzeit University Library

احتلال نابلس في حزيران ١٩٦٧:

بدأت إسرائيل عدوانها في الخامس من حزيران سنة ١٩٦٧. أذكر أن طائرة إسرائيلية حلقت في سماء مدينة نابلس صباح ٧ / ٧/ ١٩٦٧م. وألقت منشورات مطبوعة باللغة العربية تعلن أن"جيش الدفاع الاسرائيلي سيدخل المدينة بعد قليل، وتطلب من جميع السكان التزام بيوتهم وإغلاق النوافذ ورفع الأعلام البيضاء على منازلهم."

ودخلت القوات الاسرائيلية المصفحة والمدرعة من شرق المدينة صاعدة من طريق وادي البادان، وليس من غربها كما كان متوقعا، وأعلنت منع التجول، وكان الناس خائفين ولا يكادون يصدقون ما حصل ، حتى أن البعض ظنوا عند مشاهدة الدبابات وهي داخلة من شرق المدينة انها دبابات عراقية وهتفوا لها!!

بعد ذلك طلب إلى سكان المدينة تسليم سياراتهم من جميع الأنواع في السهل المقابل لسراي الحكومة شرقي المدينة وترك مفاتيحها فيها. وامتثلت الغالبية العظمى من السكان لهذا الأمر، وأنا واحد منهم، وطلب إلى السكان تسليم الأسلحة التي بحوزتهم في دار البلدية التي كان الجيش قد احتلها.

وبعد حوالي أربعة أيام حضر شرطي عربي لبيتي وأبلغني أمر الذهاب لمقابلة ضابط إسرائيلي برتبة كابتن في دار البلدية. فلما ذهبت سألني الضابط : لماذا يذبح الأهالي الأغنام في شوارع الأسواق مع ما يشكله ذلك من خطر على الصحة العامة؟ قلت: لأن مسلخ البلدية مقفل، وسيارات نقل اللحوم محجوزة، وطبيب المسلخ البيطري وموظفيه لا يداومون، وأنا لا أستطيع عمل شيء بهذا الخصوص لأن سيارتي الخاصة - أيضا - محجوزة. وطلبت منه الاتصال برئيس البلدية وإعطاء التصاريح اللازمة لموظفي المسلخ الذين يعملون فيه في الصباح الباكر، وقبل السماح للناس بالتجول كي يمكن ذبح الذبائح في المسلخ البلدي.

Digitized by Birzeit University Library

وأعطاني الكابتن تصريحا خطيا لاستلام سيارتي. وأسرعت مشيا على الأقدام ، لعدم وجود أي سيارة، إلى مكان حجز سيارات البلد شرقي المدينة، وسلمت التصريح إلى ضابط في المكان ولما اهتديت الى سيارتي وجدت أبوابها مفتوحة ومذياعها مسروق، وكذلك عدتها وقلت للضابط: عدة السيارة والراديو (المذياع) ليست موجودة، وكان جوابه: إحمد ربك أنك وجدت سيارتك!!. خذها واذهب.

وبعد حوالي أسبوع من الإحتلال، حضر شرطي عربي من مركز نابلس لبيتي وأبلغني دعوة لحضور اجتماع مع ضابط إسرائيلي في صباح الغد في دائرة الزراعة الكائنة في عمارة فيضي مقابل محكمة نابلس. وفي الموعد وجدت هناك صديقي مدير زراعة نابلس السيد خالد الفياض (أبو سلام) نجل النائب الأردني عبدالله الفياض من دير الغصون، وكذلك رؤساء أقسام الزراعة أذكر منهم: السيد كمال ياسين رئيس قسم وقاية النبات، والسيد حمدان سماره رئيس قسم الفلاحة، وإسماعيل الخطيب رئيس قسم المستنبتات والبحث العلمي، وعبدالله بشناق رئيس قسم الإرشاد الزراعي، وكذلك مفتش الحراج.

وكان جندي إسرائيلي يحرس باب العمارة، وجندي آخر عند باب مكتب مدير الزراعة، ورأس الجلسة كابتن إسرائيلي بلباسه العسكري وأمامه مدفعه الرشاش على طاولة مكتب مدير الزراعة. وكانت سنة أمطارها كثيرة، وموسمها الزراعي جيد. تكلم الكابتن باللغة الانجليزية وعرف نفسه بأنه الكابتن "إيتان يسرائيلي" المسؤول عن الزراعة في قوات جيش الدفاع الإسرائيلي، وأنه أصلا موظف بوزارة الزراعة الإسرائيلية، وأنه يود إعادة تنظيم دوائر الزراعة في المنطقة، وطلب إلينا مباشرة العمل في الدوائر اعتبارا من صباح اليوم التالي.

Digitized by Birzeit University Library

أول مجابهة مع ضابط الزراعة الإسرائيلي:

كان أمام الضابط الإسرائيلي فوق المكتب نماذج مطبوعة باللغة العربية قام بتوزيعها على الحاضرين كل حسب أعداد الموظفين لديه وقال: على كل موظف يرغب في الاستمرار في عمله الرسمي معنا أن يوقع على هذا النموذج على أن نعيد له النماذج موقعة بعد بضعة أيام ... .

قرأت ما جاء في النموذج ووجدت عبارة "دولة إسرائيل" مطبوعة في أعلى النموذج وتحتها "جيش الدفاع الإسرائيلي" ... نظرت إلى زملائي الموظفين الحاضرين فلم ألمس أي رد فعل لديهم وتسلموا النماذج في صمت.

مددت يدي بالنماذج المسلمة إلي، وأعدتها فوق مكتب الكابتن قائلاً له: "إنني أرفض التوقيع على هذا النموذج، ولن أسمح لأحد من موظفي دائرتي بالتوقيع عليه أيضا". ولما سأل عن السبب محتدا قلت له: "إن وضعنا القانوني هو أننا موظفون مدنيون أردنيون وقعنا تحت الإحتلال العسكري لجيش الدفاع الإسرائيلي ... ونحن لسنا موظفين في حكومة إسرائيل كما يدل هذا النموذج، وأضفت أنني أعتقد أن القانون الدولي يمنعك حتى من تقديم هذا النموذج إلينا".

رد الكابتن بسرعة وحدة: " أأنت محامٍ أم طبيب بيطري؟! إنني سوف أنقل كلامك هذا الى السلطات المختصة". قلت: "أنا لست محاميا، ولكن الأمر مسألة منطق بديهي". وما كان من بقية زملائي الموظفين العرب الحاضرين - بعد أن استمعوا في صمت إلى تلك المجادلة - إلا إعادة النماذج أيضا إشعارا بعدم موافقتهم على توقيعها، وانفض الاجتماع.

وبعد بضعة أيام أعيد استدعاؤنا إلى المكتب نفسه وافتتح الكابتن إيتان

Digitized by Birzeit University Library

الجلسة بأن قدم اعتذارا حول موضوع النماذج مبررا اعتذاره بأنه وقع في خطأ، وأن تلك النماذج لم تكن لموظفي الضفة الغربية، وإنما قصد بها الموظفين العرب في مدينة القدس!! وأضاف: الدكتور كمال كان على حق في رفضه التوقيع عليها... وشعرت بشيء من عزة النفس بالرغم من مرارة الاحتلال.

وبقي الكابتن إيتان ، الذي تسلّم وظيفة "ضابط القيادة لشؤون الزراعة بالضفة الغربية" لعدة سنوات يكن لي احتراما خاصا، ومعاملة متميزة طوال مدة خدمته في المنصب المذكور.

تعليمات رئيس الوزراء دولة سعد جمعة:

وباشرت دوائر الزراعة والبيطرة والحراج العمل بكل فروعها، ولم يتلق موظفوها أي راتب مدة شهر ونصف ، بعد الخامس من حزيران ، سواء من إسرائيل أو من الأردن.

سافرت إلى عمان، وكان معالي جمال حماد وزيرا للزراعة آنذاك. وكنت وإياه على صداقة سابقة، وعملنا معا في القدس زمن الانتداب البريطاني على فلسطين إذ كان هو مدير زراعة القدس عندما عملت طبيبا بيطريا فيها. وتقابلنا في مؤتمر الصحة الحيوانية للشرق الأوسط الذي عقد في قبرص سنة ١٩٥٦ عندما كنت أنا مندوب الأردن لذلك المؤتمر، وكان هو مسؤول الإعلام في المكتب الإقليمي لمنظمة الأغذية والزراعة الدولية للشرق الأوسط في القاهرة، وحضر المؤتمر - كما بينت سابقا - بالإضافة إلى علاقة قرابة نسب لكونه ابن عمومة لوالدتي كريمة الحاج نمر حماد.

وشرحت للوزير أوضاع دوائر الزراعة وموظفيها فاتصل هاتفيا بدولة رئيس الوزراء سعد جمعة، الذي طلب أن أقابله فورا مع الوزير. وتوجهت

Digitized by Birzeit University Library

بمعية وزير الزراعة إلى مكتب رئيس الوزراء، وصادف أن كان الصديق السيد حمدي كنعان رئيس بلدية نابلس، عند رئيس الوزراء - أيضا - علما بأن السيد كنعان هو خال زوجتي.

استفسر دولة رئيس الوزراء عن الأوضاع العامة، وأوضاع الموظفين، ثم سألت دولة الرئيس: أنستمر في العمل الرسمي بالدوائر الحكومية أم نترك العمل؟ أجاب دولته: "بلغ جميع مدراء الدوائر على لساني أن على جميع الدوائر التي تؤدي خدمات تأدية خدماتها للمواطنين وتابع قائلا: إن كل من يستنكف عن الاستمرار في العمل الرسمي يعد مسؤولا أمامي ... أما الدوائر التي لا تؤدي خدمات فاني أمنعها من مزاولة العمل". وطلب رئيس بلدية نابلس السيد حمدي كنعان ، صرف رواتب جهازي التربية والتعليم والشرطة، ووافق دولة الرئيس على أن يقوم رئيس البلدية بتسلم الرواتب وصرفها لمستحقيها.

وطلب دولته من معالي وزير الزراعة أن يصرف راتب شهر لجميع موظفي الزراعة والبيطرة والحراج في محافظة نابلس، ويسلمها لي لتوزيعها على مستحقيها. فرجوت دولة الرئيس أن يصرف للموظفين راتب شهرين وليس شهرا نظرا للأوضاع السيئة التي يمرون بها. واعتذر دولته عن تلبية طلبي بسبب أن النظام المالي يمنع دفع رواتب الموظفين إلا قبل ثلاثة أيام من نهاية الشهر. قلت لدولته: إن الأنظمة لا يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار عند الضرورات في حالة الحرب.

عدت برفقة وزير الزراعة إلى الوزارة حيث استدعى رئيس قسم المحاسبة (أبو الكايد) وهو سلطي طالبا إليه تحضير كشوفات رواتب موظفي الزراعة، والبيطرة والحراج لمحافظة نابلس فورا. وحاول رئيس قسم المحاسبة الاعتذار لأن الوقت كان ظهرا، وشارفت ساعات الدوام على الانتهاء إلا أن الوزير أصر على وجوب إنهاء هذا العمل حتى لو بقي جميع موظفي قسم المحاسبة في العمل حتى المساء، وذلك لأنني كنت أنوي الرجوع إلى نابلس في صباح اليوم التالي.

Digitized by Birzeit University Library

وبينما كنت في مكتب الوزير اتصل دولة رئيس الوزراء هاتفيا بوزير الزراعة، وأبلغه أنه أعاد النظر في كلامي إليه وقرر صرف راتب شهرين بدلا من شهر واحد لموظفي الزراعة والبيطرة والحراج. عدل الوزير تعليماته فورا إلى قسم المحاسبة لصرف راتب شهرين ، واتصل بمدير بنك الأردن طالبا إجراء ترتيب خاص كي أصرف الشيك الذي سيصدره وزير الزراعة.

وانتهت كشوفات الرواتب، وتم تسليمها لي، وحرر لي وزير الزراعة شيكا بحوالي ثمانية آلاف دينار أردني، وتوجهت مساء إلى الباب الجانبي لبنك الأردن في وقت محدد، ودخلت وتسلمت قيمة الشيك نقدا. وفي صباح اليوم التالي، رجعت لنابلس فوصلتها بعيد الظهر.

اتصلت بالسيد خالد الفياض مدير زراعة نابلس، وبرئيس ديوان مكتبي، السيد مختار الخماش، وطلبت إليهما التواجد في مكتبي الساعة السابعة صباحا من يوم الغد.

كان معظم الموظفين في حالة عسر مالي شديد. فلما أطلعت مدير زراعة نابلس، ورئيس ديوان مكتبي، على الأمر كادا لا يصدقان صرف راتب شهرين لكل موظف حتى رأيا المبلغ أمامهما. قلت لهما: شكلت لجنة لصرف الرواتب برئاستي وعضوية كل منكما وأرى أن نباشر توزيعها فورا وبأسرع وقت ممكن. وقلت: أنت يا مختار تتولى تسليم الرواتب، وأنت يا خالد تتولى قيام كل موظف بالتوقيع على كشف الرواتب إزاء اسمه إشعارا بتسلم استحقاقه عن شهرين، أما أنا فسأتولى مهمة إبقاء الموضوع في طي الكتمان.

وبدأت اللجنة صرف الرواتب في نابلس، وكنت أنبه كل موظف يتسلم راتبه عن شهرين - وهو سعيد وكأنه انتشل من قعر بئر - بضرورة الكتمان، حتى عن زوجته، وإلا فأنني سأوصي بقطع راتبه من الأردن.

Digitized by Birzeit University Library

وخلال اليوم نفسه تم صرف جميع الرواتب على مستحقيها في جميع مراكز دوائر الزراعة بمحافظة نابلس بما في ذلك طولكرم وجنين ومستنبت بيت قاد، ومستنبت قباطية وقلقيلية وسلفيت واستغرق ذلك (١٤) ساعة من العمل المتواصل. وكان من نتيجة توزيع المبلغ بهذه السرعة أن نقص المبلغ (١٢) دينارا أردنيا حسمت من راتبي الشخصي. أما المرحوم حمدي كنعان الذي كان قد رجع في نفس اليوم الذي رجعت فيه إلى نابلس ، فقد حصل معه شيء آخر ... ولا أدري كيف علم حاكم نابلس العسكري بأمر الرواتب التي أحضرها رئيس البلدية لجهازي التربية والتعليم والشرطة ، وطلب الحاكم تسليمه المبلغ، ورفض رئيس البلدية وحصلت أزمة، وحذر الحاكم رئيس البلدية من صرف الرواتب، وهدد رئيس البلدية بالاستقالة من منصبه ... وأخيرا اتفق على عدم توزيع الرواتب، بل إعادتها لعمان حيث حضر مسؤولون أردنيون وتسلموا المبلغ من رئيس البلدية في منطقة الجسر.

العلاوة الفنية:

كانت الحكومة الأردنية قد قررت دفع علاوة فنية لبعض فئات من الموظفين المهنيين ومنهم أطباء الصحة، والأطباء البيطريون، والمهندسون، والصيادلة، والمهندسون الزراعيون، ونشر ذلك بنظام قانوني في الجريدة الرسمية. وكانت نسبة العلاوة الفنية للأطباء البيطريين والمهندسين الزراعيين والصيادلة ٧٠٪ من الراتب الأساسي.

وعندما كان الجنرال بنيامين بن أليعيزر (فؤاد)* قائدا عاما للضفة الغربية، قررت سلطات الاحتلال فجأة تخفيض نسبة العلاوة الفنية للأطباء

---

* أصبح فيما بعد عضواً في الكنيست الإسرائيلي، وهو يشغل - الآن - منصب وزير الإسكان في حكومة رابين.

Digitized by Birzeit University Library

البيطريين إلى ٥٠٪، وتخفيض نسبة العلاوة الفنية للمهندسين الزراعيين والصيادلة إلى ٤٠٪.

دعوت الأطباء البيطريين إلى اجتماع في مكتبي بنابلس، وكان عددهم آنذاك خمسة عشر طبيبا بيطريا حكوميا يعملون في مختلف مراكز الدائرة في الضفة الغربية، وأبلغتهم بقرار السلطات.

اقترحت القيام بخطوة إجماعية للدفاع عن حقنا الوظيفي القانوني شارحا أن قوتنا ستكون باتحادنا. وقلت: يجب أن يوقع كل منكم على استقالة من العمل الحكومي مبررة بسبب تخفيض العلاوة الفنية المقررة للأطباء البيطريين بموجب نظام قانوني، على أن تكون الاستقالة نافذة المفعول بعد شهر من تاريخه بموجب نظام الخدمة المدنية الساري المفعول.

وزعت على زملائي أوراقا بيضاء، وطلبت إليهم توقيع استقالة فردية، وقمت بتوقيع استقالتي شخصيا أمامهم ... ووقع الجميع بدون استثناء، وبدون أي تردد. جمعت الاستقالات ووضعت استقالتي السادسة عشرة فوقها، وانفض الاجتماع طالبا من الجميع الاستمرار بالعمل كالمعتاد الى أن يسمعوا مني ما قد يستجد.

وفي صباح اليوم التالي، حملت الاستقالات، وذهبت إلى بيت إيل وقدمتها الى ضابط القيادة لشؤون الزراعة السيد يوري أرتسي، الذي كان رد فعله الأول أن قال: "أرفض استلام الاستقالات".

قلت للضابط: أنتم تقولون إن اضراب الموظفين في ظل الحكم العسكري ممنوع، ولكنني أعتقد أنه لا يوجد أي قانون يمنع الموظف المدني من تقديم استقالته لأن ظروف العمل التي قامت السلطة بتغييرها خلافا للقانون ، لم تعد

Digitized by Birzeit University Library

تلائمه ... ونحن تقيدنا بنظام الخدمة المدنية القانوني وأعطيناكم مدة شهر لقبول الاستقالة ... لذلك، فأنك في وضع لا تستطيع فيه رفض تسلم استقالاتنا ... وانتهت المقابلة.

أود هنا أن أبين أن ضابط القيادة لشؤون الزراعة، ودائرة الزراعة بجميع فروعها تتبع إلى رئيس قسم الاقتصاد في قيادة الضفة الغربية، وأن رئيس قسم الاقتصاد يعد من أكبر مساعدي القائد العام للضفة الغربية إن لم يكن أكبرهم فعلا. أما باقي الدوائر المدنية الأخرى وضباط قيادتها في بيت إيل فيتبعون رئيس قسم الخدمات. وكان يشغل منصب رئيس قسم الاقتصاد آنذاك الدكتور أفرايم أخيرام وهو أستاذ للاقتصاد في الجامعة العبرية.

وبعد بضعة أيام استدعيت لمقابلة رئيس قسم الاقتصاد في مكتبه ببيت إيل، بصفته المسؤول عن ضابط القيادة لشؤون الزراعة، ودائرة الزراعة بجميع فروعها، ورافقني أثناء المقابلة ضابط القيادة للشؤون الزراعية مرؤوس الدكتور أخيرام. وجرى نقاش طويل حول الموضوع، وبينت أن رواتب الموظفين العرب أصلا زهيدة وهي أقل من مثيلاتها سواء في إسرائيل أو في الأردن ... وأن الموظف إن لم يكن مستقرا ماليا فأنه لا ينتج بالشكل الصحيح وكما يجب ... وأن الأطباء البيطريين لا يستطيعون الاستمرار في العمل لأنهم يعدون تخفيض نسبة العلاوة الفنية مساً بكرامة مهنتهم إضافة لمخالفة ذلك لنظام قانوني قائم وأضفت: أنتم تقولون بأنكم تنفذون القوانين والأنظمة الأردنية، ولكنكم خالفتم نظاما قانونيا أردنيا بالإجراء الذي اتخذتموه في تخفيض نسبة العلاوات الفنية لبعض فئات الموظفين ومنهم الأطباء البيطريون.

قال رئيس قسم الاقتصاد: إن الموضوع ليس بيده، وقد صدر من جهة رسمية أعلى صلاحية منه، وإنه شخصيا متعاطف مع قضيتنا، وسيرفع تقريرا للجهات المختصة. وللحقيقة أقول: إن الدكتور أفرايم أخيرام كان لطيفا جدا

Digitized by Birzeit University Library

معي، وأنه بالرغم من رتبته العسكرية العالية ومنصبه الكبير إلا أنه أثبت أنه أستاذ جامعي رفيع التهذيب ومحترم بكل معنى الكلمة. وشعرت أنه ليس متعاطفاً في الموضوع فحسب وإنما بدا مقتنعا بما أبديت له.

وقبل نهاية الشهر (المهلة) بثلاثة أيام اتصل بي ضابط القيادة للشؤون الزراعية هاتفيا، وأبلغني طلبا لمقابلة القائد العام للضفة الغربية ، الجنرال بنيامين بن اليعزر ، الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي على أن أمر عليه على التاسعة والنصف كي أرافقه لمقابلة القائد العام.

ذهبت في الموعد المحدد حين أبلغني ضابط الزراعة ومساعده الإداري (السيد داني جبرائيل) أن القائد العام للضفة الغربية هو برتبة جنرال، وأنه يتمتع بصلاحيات قانونية تماثل تلك الممنوحة لرئيس وزراء الأردن ... وطلبا إلي أن أتكلم معه بلطف واحترام اعتبارا لمركزه الرفيع ... وليس بالطريقة التي أتكلم فيها معهما ... وكان جوابي أنني سأدافع عن وجهة نظري بكل أدب واحترام ولكنني لن أغير موقفي ولو كان وزير الدفاع نفسه موجودا.

وفي الساعة العاشرة تماماً دخلت وضابط الزراعة مكتب القائد العام وكان جالسا على رأس مكتب بشكل حرف (T) وعلى يساره شاويشة لكتابة وقائع الجلسة، وترك المقعد الذي على يمينه لأجلس عليه. وحضر الاجتماع بالإضافة إلى ضابط الزراعة رئيس قسم الاقتصاد، ومستشار القائد العام للشؤون العربية، ورئيس الجهاز الحكومي، وبعض الضباط من مساعدي القائد العام.

وعندما جلست سألني القائد العام إن كنت أرغب في شرب شاي أو قهوة فأجبته: أفضل الشاي لأن قهوتكم لا تشرب. قدم لي الجنرال سيجارة وأشعلها لي، وبدأت الجلسة باعلامي أنه سمع مؤخرا بموضوع استقالتي واستقالة جميع الأطباء البيطريين العاملين معي، وأنه يود أن أشرح له تفاصيل الموضوع.

Digitized by Birzeit University Library

قلت: "إنني عاصرت عدة حكومات أثناء عملي الرسمي الطويل ابتداء بالانتداب البريطاني على فلسطين وانتهاء بكم، وأنني بعد كل تلك السنوات صارت لدي دراية بأن كلمات الحق والعدل والأنصاف غير موجودة في قاموس المعرفة لدى كبار المسؤولين في أية حكومة وخصوصا المسؤولون عن المال، أولئك الذين يهمهم شيء واحد فقط هو قضية العرض والطلب. وأنا سوف أناقش سعادتكم من زاوية العرض والطلب فقط بغض النظر عن كون القضية قضية حق وعدل وإنصاف. واستطردت قائلاً: نحن ١٦ طبيبا بيطريا عربيا نعمل في دائرة الخدمات البيطرية الحكومية، ولا يوجد أطباء بيطريون عرب آخرون يمكن توظيفهم بدلا منا ... إن رواتب الموظفين عموما هي رواتب متدنية فلا هي بمستوى مثيلاتها في إسرائيل، وهي أقل من رواتب مثيلاتها في الأردن أيضا. ونحن لا نقبل أن تقوم السلطة بتخفيض نسبة العلاوة الفنية المقررة لنا أصلا بنظام قانوني أردني قائم ، بدلا من مكافأتنا بزيادة تلك النسبة نظرا لجهودنا المكثفة والمميزة بالارتقاء بالخدمات البيطرية إلى مستويات عليا، وفوق كل ذلك فهي مسألة كرامة مهنية لا نتنازل عنها قبل أن تكون مسألة مادية ... قد يشير على سعادتكم بعض المسؤولين بقبول استقالتنا وتعيين أطباء بيطريين إسرائيليين مكاننا ، إلا أن ذلك سيقتضي من سعادتكم إرسال سيارة حراسة عسكرية من أربعة جنود مسلحين مع كل طبيب بيطري إسرائيلي يدخل قرية عربية، إضافة إلى أنني أشك بأنكم ستجدون أطباء بيطريين إسرائيليين يرضون بالعمل في مناطقنا.

لقد قمنا رغم تدني الرواتب ، بالعمل الجدي للمحافظة على الثروة الحيوانية في منطقة الضفة الغربية التي يشكل إنتاجها أكثر من ثلث الدخل القومي من جميع مداخيل فروع الزراعة الأخرى مجتمعة ... ولا يخفى على سعادتكم أن أي وباء حيواني خطير يحدث - لا سمح الله - بين حيوانات ومواشي ودواجن الضفة الغربية ، لا يكون وبالا على اقتصاد الضفة الغربية وحدها، وانما يكون ذلك تهديدا حقيقيا للثروة الحيوانية الهائلة الموجودة في إسرائيل - أيضا - لأن ميكروبات أوبئة الأمراض الخطيرة لا تعرف حدودا.

Digitized by Birzeit University Library

وأخيرا، فأنني أود أن أقول بأننا سوف لا نأسف إذا قبلتم استقالاتنا لأنني على استعداد لأخذ جميع الأطباء البيطريين الحكوميين معي للعمل في العراق حيث نتقاضى ثلاثة أضعاف الراتب الذي تدفعونه لنا على الأقل بعد أن أصبحنا على مستوى عال من التقنية والتنظيم والأداء (كان ذلك قبل الحرب العراقية الايرانية) ... وهذا ما لدي يا سعادة الجنرال".

وسادت فترة صمت وجيزة كان الجنرال خلالها يتطلع إلى عيون مساعديه من الحاضرين، ثم رد الجنرال بن العيزر قائلا: "إنني سأكون صريحا معك مثلما كنت صريحا معي ... هذا الموضوع لا أستطيع أنا البّت فيه لأنه صدر بقرار من وزارة الدفاع، لكنني أنا الجنرال بنيامين بن أليعزر أعدك باعادة العلاوة الفنية للأطباء البيطريين كما كانت، ولكن لا تسألني متى لأنني الآن لا أعرف متى... وبما أنني أعلم أنك تستطيع السيطرة على دائرتك أطلب إليك عدم تنفيذ الاستقالات، والاستمرار في العمل كالمعتاد، وأنا قانع بأنك تستطيع ذلك".

أجبته: "بأنني أثق بوعد سعادة الجنرال، وأن الدائرة ستستمر في العمل كالمعتاد". كان ذلك في أوائل الشهر ... وفي آخر الشهر وعند تسلمّ شيكات رواتب الأطباء البيطريين، وجدت أن الجنرال بن اليعزر قد وفى بوعده وعادت العلاوة الفنية للأطباء البيطريين إلى ٧٠٪.

وعندما دققت شيك الراتب خاصتي وجدت أن العلاوة الفنية سجلت ٧٥٪، فلم أصرف الشيك، وراجعت رئيس الجهاز الحكومي السيد يعقوب بارنير، بخصوص ذلك لاعتقادي بأن ثمة خطأ مطبعياً قد حصل. قال رئيس الجهاز الحكومي (كامات منجانون): "ليس من خطأ في الأمر ... لقد أضفت لك بصفة خاصة ٥٪ علاوة إدارة، وأضاف أنا متتبع ومنذ مدة أعمالك في دائرتك والنتائج الممتازة التي حققتها في المحافظة على الثروة الحيوانية وإنمائها... وكم كنت أتمنى لو كان لدينا مدير عربي آخر أو مديران بالدوائر الأخرى في

Digitized by Birzeit University Library

مثل كفاءتك الإدارية ومستواك ... ولما استمعت إليك وانت تتحدث إلى القائد العام زاد احترامي وتقديري لك ".

صراع على علاوة :

الموظفون الذين يحتاج عملهم إلى السفر للميدان خارج مكاتبهم، والتجول في منطقتهم يقتضي أن يمتلكوا سيارة خاصة للقيام بأداء مهام أعمالهم الرسمية " Required Officers" مقابل تعرفة معينة. وكان من جملتهم الأطباء البيطريون، ومدراء الزراعة، وكثير من المهندسين الزراعيين العاملين في دائرة الزراعة.

كانت تعقد اجتماعات شهرية في مكتب ضابط القيادة للشؤون الزراعية تضم مدراء الزراعة في الضفة الغربية، ومدير الخدمات البيطرية، والمساعد الإداري لضابط القيادة، ومساعديه من الإسرائيليين، وذلك لتقديم التقارير الشهرية، وبحث الأمور الزراعية والبيطرية والمشاكل الفنية والإدارية الخ ... .

عندما كان السيد إسحق جلعين يتولى منصب ضابط القيادة للشؤون الزراعية للضفة الغربية حصل نتيجة لارتفاع أثمان السيارات والبنزين أن قامت الحكومة الإسرائيلية برفع تسعيرة العلاوة الكيلومترية للموظفين الإسرائيليين في إسرائيل (ومن جملتهم الموظفين الإسرائيليون العاملون في أجهزة الضفة الغربية) دون أن يشمل ذلك الموظفون العرب في الضفة الغربية الذين يقتنون سيارات خاصة للأعمال الرسمية، حيث استمرت السلطة بدفع التسعيرة القديمة للعلاوة الكيلومترية المتدنية للعرب مما سبب لهم خسارة مادية. والأطباء البيطريون والمهندسون الزراعيون كانوا يملكون أكبر عدد من السيارات الخاصة للاستعمال الرسمي نظرا لطبيعة عملهم الميداني بالمقارنة مع الدوائر المدنية الأخرى.

Digitized by Birzeit University Library

أشعرت مدراء الزراعة في الضفة الغربية أنني سأثير موضوع العلاوات الكيلومترية في الاجتماع الشهري طالبا مساواة تسعيرة العلاوة الكيلومترية بالتسعيرة التي أقرت للموظفين الإسرائيليين.

فلما أثرت الموضوع في الاجتماع الشهري فوجئت باحتداد ضابط القيادة للشؤون الزراعية الذي وجه كلامه إلى السيد محمد شهوان (أبو حسن) وهو مساعد المساعد الإداري الإسرائيلي للزراعة قائلا: يا "أبو حسن" كم لك من الأولاد؟ قال أبو حسن: سبعة. قال المستر إسحق جلعين: إذا أخطأ أحد أولادك، ألا تردعه باللتي هي أحسن؟ فأن لم ينفع ذلك فأنك تستعمل العصا لتصحيحه! ولم يجاوب أبو حسن بشيء وتكهرب الجو ... وكان ذلك التصرف الأحمق تهديدا واضحا للجميع قصد به ضابط القيادة للشؤون الزراعية توجيه رسالة العين الحمراء للتوقف عن البحث في الموضوع!!

ولم يكتف السيد جلعين بذلك، بل وجه كلامه إلي هذه المرة قائلاً: يا دكتور كمال: هل تستطيع أن تهدم هذا الحائط الذي أمامك؟!! وهنا شعرت بأن الرجل يتحداني قاصدا إرهابي وزيادة تكهرب الجو ...، فأجبت: يا مستر جلعين، لو كان بيدي فأس فأنني قادر على هدم هذا الحائط ثم لماذا أنت محتد هكذا بحيث احمر وجهك وتخنت رقبتك ؟ هل تظن نفسك معلماً ونحن تلاميذ أمامك؟! إن كنت تظن ذلك فانك مخطىء، فنحن رجال كبار راشدون ولا يحق لك أن تخاطبنا بهذا الشكل الذي نرفضه فضلا عن أن عدم مساواة الموظفين العرب في تسعيرة علاوة السيارات يعتبر تمييزا عنصريا ... أتمشي سيارتك بالبنزين وسيارتي بالماء؟

هنا تدخل أحد مساعدي ضابط القيادة للشؤون الزراعية ، السيد يوسف نيفي، محاولا تهدئة الجو ، وقال: يا دكتور كمال، المستر جلعين لا يقصد ما ذهبت إليه ... إنه لا يعني ذلك ... قلت يا مستر نيفي إن المستر جلعين يهددنا

Digitized by Birzeit University Library

وكأننا أطفال أمامه ... قوموا يا شباب. انفضت الجلسة ... وخرجت من الغرفة وتبعني جميع مدراء الزراعة بالضفة الغربية دون استثناء إلى غرفة أخرى في جناح دائرة الزراعة ببيت إيل.

فوجيء المستر جلعين بهذه الخطوة الجريئة التي لم يكن يتوقعها قطعا، وارتبك ولم يجاوب بأي شيء ... وما كان منه إلا أن ترك جناح دائرة الزراعة، وتوجه قاطعا الساحة إلى البناء المجاور المخصص للقائد العام للضفةالغربية في بيت إيل.

اجتمعت ومعي جميع مدراء الزراعة بالضفة الغربية في غرفة مجاورة، وبدأت أكتب مذكرة حول الموضوع موجهة إلى ضابط القيادة للشؤون الزراعية تنص على أنني وجميع الأطباء البيطريين الحكوميين، وجميع مدراء الزراعة والمهندسين الزراعيين سنقوم بالتوقف عن استعمال سياراتنا الخاصة للأعمال الرسمية اعتبارا من صباح الغد بسبب التمييز العنصري الذي لم يساوينا مع الموظفين الإسرائيليين في تسعيرة علاوات السيارات ... وإننا بذلك لا نعلن الإضراب عن العمل بل سنداوم في مكاتبنا، ولن نستعمل سياراتنا الخاصة ، التي هي ملك لنا، وليست ملكا للحكومة، في أداء أعمالنا الرسمية، وعلى الحكومة أن تزودنا بسيارات حكومية لأداء واجباتنا الميدانية ...

وإذا بباب الغرفة يدق (يقرع) ويدخل المساعد الإداري لضابط القيادة للشؤون الزراعية السيد داني جبرائيل العراقي الأصل الذي كان صديقا رفيع المستوى، وقال: دكتور كمال: هل تسمح لي بالدخول؟ قلت أهلا وسهلا داني تفضل. قال: يا جماعة، المستر جلعين قلبه طيب ... لم يكن يقصد ما قال ... هو صحيح لم يتصرف تصرفا لائقا ... أرجوكم لا تضخّموا الحكاية ... قلت له: داني أنت كنت موجودا، وسمعت كل ما قيل، ولا يمكن تفسير ما أقدم عليه المستر جلعين إلا بأنه تهديد وتحدٍ غير لائق، وأطلعته على نص المذكرة التي بدأنا في

Digitized by Birzeit University Library

توقيعها. قال داني: أرجوكم ابقوا مكانكم سأحاول تصفية الجو. واتصل داني بالمستر جلعين هاتفيا ، حيث كان يعرف أين ذهب في مبنى القيادة العسكرية. سمعنا داني وهو يتكلم هاتفيا مع رئيسه المباشر (المستر جلعين). لم أرَ داني غاضبا مثلما كان وهو يتكلم مع رئيسه وكأنه هو الرئيس وليس المرؤوس. قال له "إرجع فورا لهنا وارقع الأغلاط التي تمت بها. أنت تصرفت تصرفا أحمق، الموضوع سيكبر كثيرا، ويسبب مشاكل حقيقية وكبيرة نحن في غنى عنها. إنهم سيسلمون إنذارا بأنهم سيتوقفون اعتبارا من الغد عن استعمال سياراتهم للعمل الرسمي، وسيبقون في مكاتبهم، ويطالبون بسيارات حكومية لأداء واجباتهم الميدانية. تصرفهم هذا لا يخالف القانون، ولا يخالف نظام الخدمة المدنية. أنت تعرف ما يعني تنفيذهم لهذا الأنذار. أقول لك إرجع حالا وصحح الوضع" وقابله داني في الطريق...

بعد بضع دقائق جاء المستر جلعين وخاطبني من باب الغرفة التي كنا نجلس فيها قائلا: دكتور كمال، أيمكن أن تتفضل معي إلى مكتبي؟ قمت معه إلى مكتبه. اختلف الرجل بقدرة قادر، وتحول الى اللطف المتناهي. قال يا دكتور كمال أنت تعرف معزتك عندي، وأنني أحترمك كثيرا، ولكني أراك غاضبا. قلت له: إنني لست غاضبا، ولكنني غاضب جدا لأنك تجاوزت حدودك، وأنا لا أسمح لأي إنسان كائنا من كان أن يتحداني أو يهينني. قال ضابط القيادة للشؤون الزراعية: أنا أعتذر، أرجوك أن تقبل اعتذاري. قلت: وأنا قبلت اعتذارك، ولكنني لن أتراجع عن موقفي بالمطالبة بكل الطرق المشروعة لمحاربة التمييز العنصري، وإحقاق المساواة في العلاوات الكيلومترية للموظفين. قال المستر جلعين: أمهلني بضعة أيام لأن الموضوع ليس بيدي ولكنني سأسعى لتحقيقه.

وبعد أيام قلائل صدر بلاغ رسمي برفع العلاوات الكيلومترية للموظفين العرب في جميع دوائر الحكومة بالضفة الغربية، وليس للأطباء البيطريين

Digitized by Birzeit University Library

والمهندسين الزراعيين فقط، ومساواتها مع الإسرئيليين، وأصبح ذلك سابقة طبقت في المستقبل، كلما جرى زيادة على العلاوات الكيلومترية للموظفين في إسرائيل بحيث تطبق أوتوماتيكيا على الموظفين العرب في الضفة الغربية.

مواقف لبعض ضباط الاحتلال:

"أبو النمر" شاويش شرطة درزي عمل في مركز شرطة مدينة نابلس. كان ضخم الجثة متغطرساً يسيء معاملة أهالي المدينة. قبيل ظهر أحد الأيام حيث كان الدوار "مليئا بالحجارة " (كما كان يصيح الصبية في نابلس) كان دوار المدينة الرئيسي "دوار الحسين" ملتهبا ... إطارات مشتعلة ... رشق حجارة على الجيش ... صوت طلقات نارية وجو مكهرب للغاية.

في ذلك اليوم كنت عائداً من عمل رسمي في طولكرم سائقا سيارتي ومتجها من طريق المطحنة شرقا إلى مكتبي في شرق المدينة المجاور للسجن المركزي، والقريب من دائرة الصحة. وعند وصولي إلى دوار المستشفى الوطني بالقرب من محطة محروقات المصري وإذا الشاويش أبو النمر يقف في منتصف الطريق رافعا يده أمرا بالتوقف ... وكان يرافقه شاويش وشرطي عربيان. فلما توقفت أمامه وهو يسد الطريق كالمارد أمرني بكل غلاظة أن أتجه يمينا نحو دوار الحسين قائلا: انزل من هون ، أي نحو الدوار الملتهب. كان ملصقاً على زجاج سيارتي من الأمام ومن الخلف شارة نقابة الأطباء البيطرين. قلت له: إنني مدير دائرة حكومية وإنني متجه إلى مكتبي عبر شارع فيصل، وأن طريقي ليس إلى الدوار. هنا تدخل الشاويش العربي وقال "لأبو النمر": هذا دكتور ومدير دائرة دعه يمر ... فما كان من الشاويش أبو النمر إلا أن قال وعلى مسمعي وبكل شراسة ... "كل الدكاترة على صرمايتي" وخاطبني بعد أن نفش نفسه مثل ديك الحبش "مش عارفني مين أنا بقول لك إنزل من هون". هنا تيقنت أن هذا الرجل الذي يحمل رأسا بحجم رأس البغل يريد إيذائي، وفرض

Digitized by Birzeit University Library

غطرسته الظالمة علي ... فما كان مني إلا أن أجبته ساخرا وبكل برود "عارفك ... يظهر عليك إنك الجنرال ديان!!" وكان الجنرال ديان في ذلك الوقت وزير الدفاع. اشتد الرجل غيظا وقال: صف على اليمين وانزل من السيارة. أجبته: "لا صافف ولا نازل وعشقت الجير على الأول، وانطلقت بسيارتي نحو مكتبي".

فلما وصلت المكتب قال لي رئيس ديواني السيد درويش عثمان إن شرطة المدينة اتصلت هاتفيا تسأل عنك فأخبرتهم أنك غير موجود في المكتب، فأعلموني إبلاغك بضرورة ذهابك إلى مركز شرطة المدينة حالما تصل.

لم أذهب إلى مركز الشرطة، وباشرت أعمالي في مكتبي. وبعد حوالي ربع ساعة رن الهاتف في مكتبي وقال لي موظف المقسم: إن مركز شرطة المدينة على الخط. قال المتكلم: أنت الدكتور حاتم كمال ... قلت: نعم. قال: أنت مطلوب للحضور إلى مركز الشرطة فورا. أنا في مكتبي أؤدي واجبي الرسمي وليس لي عمل في مركز الشرطة، "واللي بدو إياني من الشرطة ييجي لعندي" ... وكنت جاهلا هوية المتكلم، وحسبته أحد شرطة الأحوال أو موظف مقسم الشرطة. ألح المتكلم وبكل غطرسة على وجوب حضوري حالا، وأن أمر الشرطة يجب أن يطاع ... وهنا نفذ صبري وقلت له: "قول لأبو النمر بتاعكم أنه واحد قليل الأدب ولا يستحي" ... فأجاب أنا أبو النمر ... قلت أنت واحد قليل الأدب ولا تستحي" وأقفلت الهاتف.

لم يجد شيء في هذا الموضوع في ذلك اليوم. حرّرت شكوى خطية بماجرى، وكما جرى موجهة إلى ضابط القيادة للشؤون الزراعية / بيت إيل ونسخة منها إلى حاكم عسكري نابلس السيد يوسف كوهن آنذاك. وفي صباح اليوم التالي ذهبت لمقابلة ضابط القيادة للشؤون الزراعية في بيت إيل السيد أصائيل بن دافيد ، ومعي كتاب الشكوى. فلما دخلت مكتبه قال لي: ما لي أراك منفعلا؟ فسردت عليه ما جرى حرفيا، وقدمت له كتاب الشكوى. استدعى

Digitized by Birzeit University Library

سكرتيرته "أفيفا" وقال لها: هاتي فنجان قهوة للدكتور كمال، وبدأ يهديء من روعي قائلاً: أنا لا أشك في صدقك، وسأعالج هذا الموضوع شخصيا مع حاكم نابلس. قلت له: إنني قدمت شكوى رسمية، فان كانت السلطة غير قادرةعلى حمايتي من أمثال هذا الشاويش، وأنا أعلى موظف في الإدارة المدنية، فكيف يعامل هذا الشاويش الفظ الأهالي؟ إن سمعته في المدينة مثل الزفت. إن استقالتي من منصبي أشرف لي إن لم يوضع حد لمثل هذا التصرف. قال: لا داعي لذلك، وسوف تكون راضيا، سأكلم حاكم نابلس ولن يحدث لك ما يسيئك بعد الآن.

بعد ثلاثة أيام، استدعيت لمقابلة حاكم نابلس العسكري السيد يوسف كوهن في مكتبه. فلما جلست قال الحاكم: قرأت شكواك، ولكن يا دكتور كمال، ألا تعرف أن الشرطي هو ملك الطريق؟ قلت: أعرف. قال الحاكم: ألا تعرف أن الشرطي يستطيع أن يوجه حتى رئيس الحكومة إلى وجهة السير؟ قلت أعرف، ولكنني يا سعادة الحاكم أعرف شيئا آخر ... أعرف أن الشرطي في أي بلد ديموقراطي، أو متحضر موجود أصلا للمحافظة على أرواح الناس وممتلكاتهم، وليس لايذائهم أو توجيههم إلى دروب التهلكة والخطر ... يعني سعادتك "إن قلت لى دب حالك من سطح هذه العمارة برد عليك" !!

قال الحاكم : أنا للآن لم أسمع القصة من "أبو النمر" ... فجاوبته حالا أنا رجل لم أتعود على الكذب لأنني اعتبر الكاذب جبانا لأنه يخشى قول الحقيقة ... وأنا لست جبانا بحمدالله، وأحب أن أقول لك: إن "صرمايتي" أصدق من "أبو النمر"، فأن كنت في شك من ذلك لا يصعب على سعادتك أن تعرف من هما الشاويش والشرطي العربيان اللذان كانا يرافقان "أبو النمر". اسألهما عما جرى كي تتأكد من صدق قولي.

فكر الحاكم قليلا ثم قال: د. كمال، ما رأيك أن استدعي "أبو النمر" إلى

Digitized by Birzeit University Library

مكتبي هنا واصلح بينكما على فنجان قهوة وينتهي الموضوع؟ قلت: يا سعادة الحاكم، "أنا هيك نوعية من البشر لا أحب رؤيته ولا الجلوس معه" ... فضلا عن أن هذا البني آدم يسيء إليكم بمعاملته الشرسة مع الناس بأكثر مما يسيء إلى الناس، لذلك، فأنني أرفض أن أصالحه حتى لو اعتذر مني ... لقد قدمت لكم شكوى رسمية، وبصفتك المسؤول عن الأمن والنظام في هذه المدينة فلك حق التصرف بما تراه مناسبا. وانتهت المقابلة.

الشاويش والشرطي العربيان اللذان كانا يرافقان "أبو النمر" على دوار المستشفى الوطني رويا ما حصل إلى زملائهم الكثيرين في مركز الشرطة، ثم قابلني الشاويش العربي وحياني بحرارة، وأبلغني كيف أن "أبو النمر" هدول أذنيه بعد الحادث. وانتشر الخبر في المدينة. توقف أبو النمر عن شراسته وكف أذاه عن الناس، ولم يمض وقت طويل حتى نقل من مدينة نابلس إلى غير رجعة.

السيد فيليب هرشبرج:

في أوائل سني الاحتلال زارني في مكتبي بنابلس السيد "فيليب هرشبرج" ، صاحب مزرعة كبيرة في منطقة جديرا قرب الفالوجة وعراق سويدان، يحمل كتاب توصية وتعريفاً شخصياً من مدير الخدمات البيطرية والصحة الحيوانية في إسرائيل يرجو مساعدة هذا المزارع الكبير في شراء أبقار بلدية يرغب في تربيتها تربية حديثة في مزرعته، وتغذيتها تغذية صحيحة، والعناية بها لتحسينها، ومعرفة المدى الذي يمكن الوصول اليه من إنتاج الأبقار البلدية.

قمت بمساعدة السيد هرشبرج بتعريفه على بعض تجار الماشية، وقام بشراء ثلاثين رأسا من الأبقار البلدية، بعد أن زار المنطقة بضع مرات مما وطّد علاقة حسنة بيننا، وتبين أنه يهودي من أصل ألماني.

Digitized by Birzeit University Library

روى لي السيد هرشبرج أنه كان ضابطا برتبة عالية أثناء حرب ال ١٩٤٨، وأنه كان له صديق عربي من آل "الخيري" المعروفة في مدينة الرملة، وأن السيد الخيري وقع أسيرا سنة ١٩٤٨، ووضع في سجن الرملة. فلما علم السيد هرشبرج بالأمر أخذ سيارة عسكرية ومعه بعض جنوده إلى سجن الرملة، وطلب إلى مدير السجن بأمر عسكري تسليمه السجين "الخيري" لأن لديه أوامر من القيادة بقتله ورمي جثته في واد. وتسلم الضابط هرشبرج السجين الذي لا أذكر اسمه الأول ثم صرف الجنود الذين كانوا يرافقونه بحجة أنه يريد أن يقتله منفردا.

وأخذ الضابط الاسرائيلي هرشبرج صديقه السجين العربي "الخيري" إلى بيته، وكان الخيري في حالة مزرية؛ رث الثياب ، شعره طويل، ذقنه غير محلوق منذ مدة، ورائحته كريهة من عدم الاغتسال والعناية الصحية ... فأدخله الحمام، وأعطاه ملابس جديدة، وحلق ذقنه وشعره، وأطعمه ليسترد عافيته ... وعندما تحسنت صحته أخذه معه بسيارة عسكرية إلى آخر نقطة في طريق اللطرون - رام الله أمكنه الوصول إليها، وأشار لصديقه إلى الطريق قائلاً له: إنفد من هنا ... وداعا: وبقي هرشبرج بعد أن سار صديقه مشيا على قدميه إلى أن غاب عن ناظريه، واطمأن أنه سيصل إلى المنطقة العربية سالما.

وكان السيد هرشبرج يدعوني لضيافته في مزرعته كلما حضر لمكتبي، وكنت أعتذر شاكرا لضيق الوقت، وبعد المسافة، ووعدته بزيارته في المستقبل.

ومرت الأيام والسنون ... وكان هنالك موظف إسرائيلي بدائرة الزراعة اسمه مناحم (أبو رافي) يعمل خبيراً في تربية الأغنام وهو من جمعية مربي الأغنام في إسرائيل التي يرأسها السيد "مردخاي" من كبار خبراء مربي الأغنام في العالم، وصاحب قطيع كبير من الأغنام الممتازة عدده ألف رأس في عين حرود قرب العفولة.

Digitized by Birzeit University Library

بعد سنوات من انقطاع أخبار السيد هرشبرج عني زارني في مكتبي أبو رافي زيارة عمل، وذكر لي أنه قابل مؤخرا السيد فيليب هرشبرج الذي يقرئني السلام، ويذكرني بوعدي له بضيافته في مزرعته بالجديرة. وقال لي أبو رافي: إن السيد هرشبرج صديق حميم جدا لحاكم نابلس العسكري آنذاك ، السيد يوسف كوهن.

وكنت قد علمت من أحد أفراد عائلتي المرحوم الأستاذ غازي كمال المحامي أن أبناء أخيه الذي توفي في اللاذقية وعددهم خمسة ليس لهم معيل، بعد أن تركتهم والدتهم، وتزوجت من شخص آخر ... وكان الأستاذ غازي متضايقاً ومحتاراً في أمره.

فلما أبدى أبو رافي تلك الملاحظة العابرة بأن فيليب هرشبرج صديق حميم جدا لحاكم نابلس العسكري، واستفسرت منه عن مدى العلاقة بين الرجلين فأجاب: "هرشبرج شخصية كبيرة، يعني "ممكن يمسك الحاكم من دانه"!!".

وهنا لمعت في عقلي فكرة مفاجئة بأن أطلب من السيد هرشبرج بذل مساعيه مع الحاكم لمنح أبناء أخ الأستاذ غازي لم شمل على عمهم ، علما بأن لم الشمل في مثل هذا الحال يعتبر من المستحيلات.

طلبت من "أبو رافي" إبلاغ السيد فيليب هرشبرج بأنني سأزوره بعد يومين في مزرعته. ولما كنت لا أعرف الطريق إلى تلك المزرعة فقد تبرع أبو رافي بانتظاري قرب مركز شرطة كفار سابا حيث يترك سيارته هناك، ويرافقني في سيارتي إلى مزرعة فيليب بالجديره. وفي الموعد المحدد وجدت "أبو رافي" بانتظاري، وتوجهنا إلى مزرعة السيد فيليب الذي حضر لي غذاء فاخرا داعيا بعض أصدقائه وجيرانه محتفيا بي بكل احترام وتكريم.

Digitized by Birzeit University Library

وعلمت أثناء المأدبة أن السيد هرشبرج اليهودي الألماني الأصل ، كان قاضياً مشهورا للعشائر البدوية العربية في منطقته!! بحيث كان يتقاضى عنده بدو المنطقة ويحل خلافاتهم حسب القانون العشائري البدوي، وأنه موضع احترام وثقة الجميع. وكان عنده خادم بدوي شاب وسيم وحسن الملبس قدم لنا القهوة العربية السادة في دلة نحاسية فاخرة.

فلما صب لي الخادم البدوي القهوة، وضعت الفنجان على الطاولة وقلت للسيد هرشبرج: إنني لا أشرب قهوتك إلا إذا لبّيت لي طلبا، فأجاب الرجل: "والله يا دكتور كمال، لو تطلب مني أجبلك لبن العصافير لفعلت!! اشرب قهوتك".

وشربت القهوة وشرحت له وضع الأبناء الخمسة الصغار السن المقطوعين في اللاذقية بعد وفاة والدهم، وأن أصلهم من مدينة نابلس، وأنه من ناحية إنسانية - ولو أنني أعرف بأن ذلك صعب جدا بالنسبة للأنظمة الموجودة - أطلب إليه أن يساعدني لدى صديقه حاكم نابلس العسكري لمنحهم لم شمل إلى عمهم الأستاذ غازي كمال. وأجاب في الحال واضعا يده على رأسه: "ما هو على راسي من هون".

وتناول الهاتف وطلب حاكم نابلس العسكري ولم يجده في مكتبه فأعام سكرتيرة الحاكم بأن تبلغه أن ينتظر فيليب هرشربج في مكتبه بنابلس غدا الساعة التاسعة صباحا. وقال اعتبر الموضوع موافقاً عليه، وأنه يأمل بأن يزورني في مكتبي الساعة العاشرة بعد مقابلة الحاكم. فما كان مني إلا أن دعوته ومن يشاء من أصدقائه ليكون ضيفي على الغذاء غدا. وحاول أن يعتذر لضيق الوقت إلا أنني أكدت أن يكون ضيفي غدا.

وفي صباح اليوم التالي وحوالي العاشرة دخل إلى مكتبي ومعه صديق له وقال قبل أن يجلس: "ابشر يا دكتور كمال قدم طلباً رسمياً للحاكم بما تريد

Digitized by Birzeit University Library

وسوف يلبي طلبك". اتصلت هاتفيا بابن عمي المرحوم الأستاذ غازي كمال وقلت له أن يقدم طلباً رسمياً بلم شمل أبناء أخيه الخمسة إلى مكتب حاكم نابلس. فلما قدم طلب لم الشمل إلى المختص في مكتب الحاكم المدعو "أبو داود" من سكان كفار يونا، وقرأ المعاملة قال للأستاذ غازي: أستاذ، هذا الطلب مستحيل، ولا يمكن الموافقة عليه. فلما أبلغه غازي أن الطلب قدم بناء على موافقة الحاكم نفسه اضطر لتسلم الطلب.

وحصلت الموافقه النهائية على لم الشمل خلال مدة قياسية جدا بعد أسبوعين من تقديم الطلب، وحضر الأبناء الخمسة ليربوا في كنف العائلة بنابلس.

Digitized by Birzeit University Library

رئيس بلدية جنين المعين:

جاء إلى مكتبي شاكيا الدكتور عبد اللطيف أحمد الحاج حسن؛ الطبيب البيطري لمسلخ بلدية جنين وقال: إن رئيس لجنة بلدية جنين شهاب الصانوري أبلغه بوقف دفع العلاوة الفنية التي يتقاضاها وقدرها ٧٠٪ من راتبه الأساسي حسب نظام العلاوة الفنية للأطباء البيطريين. وأن الرئيس قال له: كيف يجوز أن يكون راتب الطبيب البيطري أكثر من راتب رئيس البلدية؟ لذلك قرر قطع العلاوة عنه، وأبلغه ذلك بكتاب رسمي.

قلت للدكتور: اكتب لي كتابا رسميا بذلك ؛ ففعل ، اتصلت هاتفيا مع رئيس ديوان بلدية جنين الذي أعرفه منذ سنوات عديدة ، وطلبت إليه إبلاغ الرئيس الذي لم أكن أعرفه شخصيا أنني سأزوره صباح الثلاثاء القادم. وفي الموعد المعين اصطحبت معي طبيب بيطري لواء جنين الدكتور أحمد الرزي ودخلنا لمكتب الرئيس وكان عنده شخصان: أحدهما السيد زهران حسونه الذي أصبح فيما بعد مديرا للتربية والتعليم في نابلس وما زال إلى الآن، والآخر عضو في مجلس بلدية جنين.

بدأت أبحث الموضوع مع الرئيس، وتبين لي من أول وهلة أنني كنت أحكي في الشرق ويجاوبني في الغرب ... قال الرئيس: إن راتب الطبيب البيطري عال جدا، فلماذا لا يخدم الطبيب البيطري في بلديات قباطيه ويعبد وعرابه -أيضا- وتتقاسم البلديات الأربعة راتبه؟ بينت أن ذلك مستحيل لأن عمل طبيب المسلخ البيطري هو في الصباح الباكر، ويجب أن يقوم بواجبه في فحص اللحوم وإتلاف الفاسد أو المريض منها لحماية الصحة العامة في البلد، وأن الطبيب البيطري لا يستطيع تقسيم نفسه إلى أربع قطع للعمل في البلديات الأخرى. قال الرئيس: أنا عندي مفتش لحوم معه شهادة رسمية، ويستطيع العمل في المسلخ بدون الطبيب البيطري. قلت: إن مفتش اللحوم هو مساعد

Digitized by Birzeit University Library

للطبيب البيطري، وأنني أنا الذي زودته بالشهادة التي يتكلم عليها بعد دورة قصيرة في تفتيش اللحوم، وإن هنالك حالات لا يتمكن مفتش اللحوم من البت في أمرها، وأن نظام المسالخ القانوني ينص على وجوب تعيين طبيب بيطري في كل مدينة يزيد تعداد سكانها على عشرة آلاف نسمة، وأنه يوجد نظام قانوني أخر يمنح الطبيب البيطري علاوة فنية قدرها ٧٠٪ من راتبه الأساسي، وأن أي رئيس بلدية ليست له الصلاحية لإلغاء ذلك. وإذا صاحبنا يحتد ويقول: "داتا أنا مش بس بدي أقطع العلاوة ... سأطرد هذا الطبيب من البلدية". يعني "جئنا لتكحيلها رحنا عميناها" كما يقول المثل.

تبين لي أنه من العبث مناقشة هذا الإنسان. وكان الشاي الذي طلبه لنا لا يزال على الترابيزه أمامنا. قلت للرئيس: يؤسفني أنني ضيعت وقتي مع شخص مثلك "شايك مش مشروب" ، قم يا دكتور أحمد، وخرجت من مكتب الرئيس ومعي طبيب بيطري لواء جنين. وفعلا، أصدر الرئيس كتابا رسميا للدكتور عبد اللطيف حسن وطرده من البلدية!!

كتبت شكوى بينت فيها النواحي القانونية، وسخف آراء الرئيس، واستبداده بغير وجه حق ... وقدمت الشكوى باليد إلى ضابط القيادة للشؤون الداخلية المسؤول عن البلديات وميزانياتها في الضفة السيد شلومو عمار، وشرحت له الموضوع قائلا: " أنا عارف كيف بتعينوا هيك واحد رئيسا لبلدية "؟! أجاب ضابط الداخلية: "هو إحنا ملاقيين غيره يا د. كمال ... هات واحد بني أدم حتى نعينو". ثم أضاف ، اترك لي الموضوع... سأعالجه بنفسي، واتصل هاتفيا طالبا من رئيس بلدية جنين الحضور لمكتبه غدا صباحا.

وذهب رئيس البلدية للمقابلة ورجع الى جنين بعيد الظهر، وأرسل موظف بلدية بسيارة إلى قرية ميثلون لواء جنين ليخبر الدكتور عبد اللطيف بالرجوع لمزاولة عمله في المسلخ البلدي براتب كامل مع العلاوة الفنية. ولحس كتاب الطرد، وكتاب قطع العلاوة الفنية الذي سبق ووقعهما.

Digitized by Birzeit University Library

دورة دراسية في المملكة المتحدة:

كان ابني وضاح قد تخرج طبيبا من جامعة بغداد/كلية طب الموصل سنة ١٩٧١ وعمل في المستشفى الوطني بنابلس حوالي سبعة أشهر، ولم يكن مرتاحا لسير العمل في المستشفى، وطلب إرساله الى انجلترا للتخصص والحصول على شهادة .F.R.C.S (زمالة الكلية الملكية للجراحة). ومع أنني كنت أفضل أن يعمل بضع سنوات قبل إرساله للتخصص، إلا أنني وافقت لإيماني بأن العصر عصر تخصص؛ فالأطباء كثيرون ولكن المجال يكون دائما أرحب للمتفوق.

وفي أوائل السبعينيات نّسب مدير الخدمات البيطرية والصحة الحيوانية الإسرائيلي إلى القائد العام للضفة الغربية،الجنرال فاردي ، إرسالي في دورة مدتها أربعة أسابيع إلى المملكة المتحدة للاطلاع عل سير العمل في دائرة البيطرة البريطانية، والاطلاع على القوانين والأنظمة البيطرية المتعلقة بأمراض الحيوانات، وزيارة مختبري وايبردج وبيربرايت ومزارع الحيوانات والدواجن الحديثة، وغير ذلك من المراكز والمرافق البيطرية.

اتصل مدير الخدمات البيطرية والصحة الحيوانية الإسرائيلي بنظيره البريطاني الذي رحب بالفكرة، وأرسل برنامج زيارة رسمية لي بالمدن والمواقع التي سأزورها، بين فيه بدقة ، وبالتاريخ والساعة والدقيقة ، المواقع والمزارع والمختبرات البيطرية ، واسم الطبيب البيطري البريطاني الذي سيكون في استقبالي في كل مطار، أو محطة سكة حديد، أو موقع آخر، وكذلك أسماء وعناوين برنامج الزيارة ... ذلك مثل من النظام البديع، والإدارة البريطانية الممتازة ... .

وللحقيقة أقول: إن ذلك البرنامج طبق حرفيا في جميع مراحله بدقة

Digitized by Birzeit University Library

متناهية بحيث كنت أجد طبيبا بيطريا بريطانيا ينتظرني رافعا لوحة مكتوباً عليها اسمي في كل موقع ذهبت إليه يرحب بي، ويرافقني بسيارته إلى أماكن الزيارة بموجب البرنامج، ويعيدني مساء إلى الفندق حيث حجزت غرفة لي.

وكانت أول زيارة لي إلى رئيس الأطباء البيطريين البريطانيين في "تولوورث" من ضواحي لندن. شرح لي ملاك الدائرة وزودني بمجموعة من الكتب والكتيبات والنشرات المتعلقة بالقوانين والأنظمة البيطرية في بريطانيا ... وفي ذلك الحين كان يوجد (٥٠٠) طبيب بيطري بريطاني يعملون في الحكومة و (٥٠٠٠) طبيب يعملون في عيادات خاصة لحسابهم الخاص. وعلمت أن الأطباء البيطريين هناك لا يقبلون على وظيفة الحكومة لأن دخل العيادة الخاصة أكثر من راتب الوظيفة، وأن العدد الحكومي غير كاف للقيام بجميع الواجبات البيطرية الحكومية ... ومما يؤيد ذلك مثلا، أنه كان يوجد في المملكة المتحدة أحد عشر مليون رأس من البقر الحلوب ... لذلك لجأت الحكومة إلى الاستعانة - كلما لزم الأمر - ، بالأطباء البيطريين الخصوصيين ... وعندما يلزم مثلاً أخذ عينات دم من الأبقار للفحص المخبري لمرض الإجهاض البقري المعدي " Brucellosis " يطلب إلى الأطباء البيطريين الخصوصيين المساهمة كل في منطقة عمله في تقديم تلك الملايين من العينات مقابل أجرة معينة لكل عينة تقدم.

المملكة المتحدة خالية من مرض داء الكلب ، يساعدها في ذلك كونها جزيرة، والقوانين الصارمة التي تحول دون وفود داء الكلب إلى أراضيها. إن أي كلب يراد إدخاله الى أراضي المملكة المتحدة بأي طريق بحري أو جوي يجب حجزه في الحجر الصحي البيطري لمدة ستة أشهر كاملة للتأكد من خلوه من داء الكلب قبل السماح لصاحبه بادخاله، ولو كان معه كل الشهادات الطبية البيطرية، بأنه خال من المرض، أو تم تلقيحه وقائيا ضد داء الكلب، ولو كان الكلب مستوردا للقصر الملكي أو لرئيس الوزراء.

Digitized by Birzeit University Library

الشرطة البريطانية في بلدها عادة لا تحمل سلاحا، إلا أنها تمثل هيبة القانون والنظام، ولا يسمح لها بحمل السلاح إلا في حالات معينة، ولا أن تلقي القبض على أي إنسان بدون مذكرة إلقاء قبض موقعة من قاض، إلا في حالات معينة منها إن شوهد أحدٌ يضرب كلبا.

إن قانون " منع القسوة على الحيوان " مطبق بصرامة في المملكة المتحدة. أذكر أنه حصل أن بعض خيول السباق المستوردة من إيرلندا لقيت معاملة سيئة لدى نقلها من الباخرة إلى ميناء ليفربول، فقامت قيامة الصحف، وحصل استجواب في البرلمان البريطاني حول هذا الموضوع.

وتخلو الجزر البريطانية - عادة - من مرض الحمى القلاعية الذي يصيب الأبقار والماشية. الحمى القلاعية (F.M.D.) مرض فيروسي خطير وسريع الإنتشار ويسبب خسائر هائلة بالنسبة لبلد كبريطانيا. أذكر أنه سنة ١٩٦٦ تسرب هذا المرض إلى انجلترا عن طريق استيراد لحوم محفوظة موبوءة بفيروس المرض من الأرجنتين، بالرغم من جميع الاحتياطات المرعية. أعلمني رئيس الأطباء البيطريين البريطاني أنه فور اكتشاف الإصابات الأولى بالمرض، قامت الدائرة باتلاف نصف مليون رأس من الأبقار غير المصابة في دائرة قطرها خمسين ميلا حول مكان الإصابات الأولى رميا بالرصاص، وجرى حفر خنادق عمقها ثلاثة أمتار بواسطة آليات ضخمة، وأحرقت الجثث ودفنت لإنقاذ باقي ملايين الأبقار من خطر العدوى، وقامت الدائرة بدفع مبلغ خمسة وستين مليون جنيه استرليني تعويضا لأصحاب الأبقار التي أتلفت.

وسألت رئيس الأطباء البيطريين البريطاني: لماذا لا تقومون بتلقيح أبقاركم تلقيحا وقائيا سنويا ضد مرض الحمى القلاعية كما نفعل نحن في منطقتنا؟ وكان جوابه منطقيا ، قال: أنت تعرف أن للحمى القلاعية سبعة عترات (أنواع) من الفيروس، وأن أي لقاح مكون من أي عترة منه لا يمنع

Digitized by Birzeit University Library

الاصابة بأي عترة أخرى ، ونحن لا نعرف أي عترة من الفيروس ستغزوا بلدنا حتى تحصل ... فأن استعملنا سبعة أنواع من اللقاح سنويا لكل رأس من الأبقار فان ذلك يكلف الخزينة البريطانية أكثر بكثير من تكاليف قمع المرض إذا وقع، وتسرب إلينا فيروسه كل عشر أو عشرين سنة مثلا ، ونأمل ألا يتكرر ذلك مستقبلا متخذين كل الاحتياطات الشديدة التي نراعيها بدقة.

وتربية الأغنام في إنجلترا وخاصة في اسكتلندا متقدمة جدا؛ أنواعها ممتازة، وتربى في مزارع خاصة واسعة المساحة ومسيجة بحيث تكون معزولة عن غيرها، ويزرع لها صاحبها أنواعاً متعددة من الأعشاب لترعاها على مدار السنة، بالإضافة إلى الأعلاف المركزة، والعناية البيطرية الفائقة. وفي إحدى مزارع تربية الأغنام في اسكتلندا شاهدت قطيعا سمينا جدا لدرجة أن رأس الضأن إن وقع على جنبه على الأرض لا يستطيع القيام على أرجله إلا إذا ساعده شخص في ذلك!!

وأثناء وجودي في أدنبرة عاصمة اسكتلندا زرت كلية الطب البيطري العتيدة في جامعة إدنبره العريقة، وأعلمني عميد الكلية أن الدكتور فوزي الملقي تخرج من تلك الكلية، وأنه فخور بأن أحد تلاميذ الكلية أصبح فيما بعد رئيسا للوزراء في الأردن معتقدا أنه أول طبيب بيطري يصبح رئيس وزراء في العالم.

زرت حسب البرنامج المعد لي كثيرا من المدن والمواقع في انجلترا وويلز واسكتلندا، وكان برنامجا حافلا وممتعا ومفيدا حقا. كانت معظم تنقلاتي تتم بالقطارات، ويفتخر البريطانيون أن الانسان يستطيع أن يضبط ساعته على موعد قيام أو وصول قطار في بريطانيا!!

وأجمل ما في انجلترا الريف الانجليزي... ريف نظيف مناظره خلابة ...

Digitized by Birzeit University Library

يريح النفس. معظم البيوت صغيرة ولكل بيت حديقة صغيرة ملآى بالورود والرياحين، وبعضها له حديقة خلفية يزرع فيها بعض الخضار التي تلزم البيت ... وفي يوم الأحد (العطلة الأسبوعية) ترى معظم الناس في الريف يعملون في حدائقهم متباهين فيها أو يغسلون أو يصلحون سياراتهم.

في نواحي الريف مطاعم (الببس) التي تقدم مأكولات لذيذة ورخيصة نسبيا، بالإضافة إلى قضاء كثير من البريطانيين وقت المساء فيها لشرب البيرة والوسكي.

ويتهم البريطانيون الاسكتلنديين بالبخل، ومن النكات التي تروى بهذا الصدد: أن الاسكتلنديين يضعون نظارات خضراء على عيون أبقارهم ويقدمون لها التبن لايهامها بأنها تأكل البرسيم الأخضر! ولكنني وجدت أن الاسكتلنديين عموما أكرم من البريطانيين.

Digitized by Birzeit University Library

ـ تعلم اللغة العبرية (معهد الأولبان عكيفا)

دأبت الادارة المدنية بالضفة الغربية وقطاع غزه إلى إيفاد لفيف من موظفي الحكومة العرب بدوائرها المختلفة إلى دورات لتعلم اللغة العبرية في معهد الأولبان عكيفا الواقع في الشاطىء الأخضر على ساحل البحر الأبيض المتوسط على بعد بضعة كيلومترات من جنوب مدينة ناتانيا.

تدير هذا المعهد السيدة الفاضلة شولاميت كاتسينلون. وهي سيدة مثقفة تتمتع بشخصية قوية تبعث على الاحترام، وطاقة هائلة على العمل ... محدثة بارعة وتعتبر إحدى شخصيات إسرائيل المعروفة والمرموقة، بالاضافة الى نسبها العريق: فزلمان شازار أحد رؤساء دولة إسرائيل السابقين زوج عمتها (يدعى عمها باللغة العبرية) ووالدها الدكتور روبين كاتسينلسون كان طبيبا مرموقا في إسرائيل، ومن مؤسسي مستشفى هداسا، وعمل مديراً عاما له، كما كان من مؤسسي صندوق المرضى. والدة شولاميت السيدة بت شيبع كاتسينلسون كانت عضو كنيست في الكنيست الثانية من حزب الصهاينة الأحرار.

أما أخوها شموئيل تمير فكان من مؤسسي حزب المركز الحر (همركاز هحوفشي) سنة ١٩٦٦، وكان وزير العدل في حكومة بيجن، وناضل من أجل قضية قرى اقرت وكفر برعم. وقد قامت بلدية مدينة ناتانيا بافتتاح حديقة عامة في المدينة سمتها حديقة الدكتور روبين كاتسينلسون إحياء لذكراه.

حصلت مديرة المعهد شولاميت على جائزة دولة إسرائيل للتربية قبل عدة سنوات تقديرا لجهودها، وقدمت لها تلك الجائزة الرفيعة باحتفال رسمي من قبل رئيس دولة إسرائيل. كما أن عضوين في البرلمان النرويجي رشحاها سنة ١٩٩٢ لنيل جائزة نوبل للسلام، ولم يحالفها الحظ لنيل تلك الجائزة العالمية.

Digitized by Birzeit University Library

معهد الأولبان عكيفا يعقد دورات تعليمية متتابعة لمدد مختلفة أقصرها أربعة أسابيع، وهناك دورات لثلاثة أشهر، وأخرى لستة أشهر ، ولمستويات مختلفة لتعليم اللغة العربية للإسرائيليين، وتعليم اللغة العبرية للعرب. ومن أهداف هذا المعهد الرئيسية خلق جو من التعايش والحياة جنبا إلى جنب بين العرب والاسرائيليين، وتشجيع إقامة تعارف وصداقات بين الطلبة، بالإضافة الى أنه منبر حر يدعو إلى السلام بين الشعبين، وإلى محاربة العنصرية بين أبناء البشر.

وينتسب لدورات المعهد طلبة من جميع الأعمار ومن كلا الجنسين ومن جنسيات مختلفة، وليس من اسرائيل والضفة وقطاع غزة. فقط، فتجد هناك الأميركي والأنجليزي والروسي والأسترالي والهولندي والسويدي والنرويجي والزنجي وغير ذلك من الجنسيات الكثيرة.

والدراسة مركزة بحيث لا تقتصر على الدروس في الصفوف المختلفة المستويات، بل تستمر بالممارسة الفعلية، لأن نظام المعهد يقضي بأن يشترك في غرفة المنام اثنان من الطلبة أحدهما عربي والآخر إسرائيلي، أو عربية وإسرائيلية، وذلك لكي تستمر المخاطبة باللغتين بين الفرقاء بحيث يتعلم كلّ لغة الآخر بسرعة أفضل.

أوفدت سنة ١٩٧٨ لدورة أربعة أسابيع لتعلم اللغة العبرية في الأولبان عكيفا وتعرفت إلى مديرة المعهد، وبعض المدرسين والمدرسات. وكان هنالك مدرسة اسمها السيدة زميرا تتقن سبع لغات: العبرية والأيدش والعربية والإنجليزية والفرنسية والروسية والإسبانية. كما تعرفت إلى معلم اللغة العربية الأستاذ الصديق على يحيى من كفر قرع. وفي أول ليلة قضيتها في المعهد وجدت أن غرف المنام صغيرة الحجم، ألحق بها حمام واحد صغير وشاركني في الغرفة مهندس إسرائيلي شاب لطيف المعشر من بئر السبع.

Digitized by Birzeit University Library

وكنت قد طلبت من مديرة المعهد أن أنفرد وحدي في غرفة النوم فاعتذرت لأن نظام المعهد يمنع ذلك، وشعرت ببعض الضيق لضيق الغرفة، وعدم تعودي على النوم مع غرباء خاصة وأن الحمام مشترك ... وهداني تفكيري إلى حيلة لانفرادي في غرفة دون أن يشاركني فيها أحد.

بعد أن أويت وزميلي في الغرفة كل إلى فراشه، ، تناومت النوم وبدأت في الشخير مختلسا النظر إلى زميلي الذي صار يتململ في فراشه، وكلما تقلب في فراشه زدت في نغمة وشدة الشخير إلى أن رأيته يحمل غطاء فراشه ووسادته ويغادر الغرفة إذ ذهب إلى سيارته قرب الغرفة وأمال المقعد الأمامي إلى آخر مدى له إلى الخلف، وقضى الليلة نائما في سيارته ، بعيدا عن الشخير الذي توقف بطبيعة الحال.

وفي الصباح عاد صاحبي إلى الغرفة وألقى تحية الصباح بالعربية، ثم قال بالإنجليزية إنه متأسف أن تركني أنام في الغرفة وحيدا لأنه لم يستطع النوم بسبب شخيري. قلت: وهل أنا أشخر أثناء النوم؟ أنت تعرف أن النائم لا يحس أنه يشخر وأنا متأسف جدا ... وفعلا شعرت بالندم وبالأسف لما سببته لذلك الانسان الطيب اللطيف ، ولكن عذري أنني سأتضايق بأكثر مما سببته له فيما لو بقي معي في تلك الغرفة. ثم قلت لصاحبي: ما دام الأمر كذلك لم لا تذهب إلى الإدارة وتطلب نقلك لغرفة أخرى تستريح فيها مع أسفي الشديد لفقد صحبة إنسان طيب مثلك. قال: هذا ما فكرت فيه ونقل إلى غرفة أخرى.

غير أن ادارة المعهد أرسلت شخصا آخر ليشاركني الغرفة ... وبعد التعارف رويت له ما حصل في الليلة الماضية، وكيف أن رفيقي السابق في الغرفة نام في سيارته بسبب شخيري ... وغادر الغرفة مصطحبا أغراضه ولم يعد ... وقضيت مدة الدورة منفردا في الغرفة بشكل استثنائي، ولم تستطع إدارة المعهد عمل أي شيء حيال ذلك، وأكملت الدراسة في الصف الأول، وكان

Digitized by Birzeit University Library

ترتيبي أول الصف، وألقيت كلمة خريجي الصف في حفلة تخرج تلك الدفعة باللغة العبرية.

وبعد سنتين عدت إلى دورة أخرى لمدة أربعة أسابيع والتحقت بالصف الثاني، وكان أن توطدت عرى صداقة بيني وبين مديرة المعهد، وكانت تسميني بالعربية "مدير المدراء" وتقدمني، إلى كبار زوار المعهد باعتباري أعلى موظف في الإدارة المدنية للضفة الغربية، والمدير العربي الوحيد الذي لا يوجد له مستشار إسرائيلي.

وذات مرة سألتني: ما قولك أن أطلب إلى وزير الدفاع ، وكان وقتها السيد عيزر وايزمن، إعارتك لتصبح مديرا لهذا المعهد؟ قلت متعجبا! وماذا عنك أنت؟ قالت شولاميت: أصبح مساعدة لك. قلت: لا شك أنك تمزحين وتجامليننني قالت: لا، أنا جادة في هذا بعد أن تعرفت مليا على شخصيتك. قلت: شكرا لهذا الإطراء الصادر عن شخصية عظيمة مثلك، ولكنك تعرفين أن خط سيري يختلف تماما عن هذا المجال، فضلا عن أنني يجب أن أكمل واجبي المهني المؤهل له لخدمة بلدي.

وفي أحد الأيام قام سفير الولايات المتحدة الأمريكية لدى إسرائيل السيد صمويل لويس وعقيلته بزيارة رسمية للمعهد وقامت شولاميت بتقديمي له ولعقيلته، وأثناء مأدبة الغذاء التي أقيمت على شرفه في قاعة فندق الشاطىء الأخضر الملحق بالمعهد اختصتني شولاميت بمقعد على المائدة التي جلس إليها السفير وعقيلته ودار حديث متنوع ... قالت شولاميت للسفير: أنا إسرائيلية والدكتور كمال عربي، ولكننا نحاول التفاهم والتعايش معا، ومع أن آراءنا قد تختلف في بعض الأمور كقولي : " يهودا وشمرون " وقوله "الضفة الغربية من الأردن" إلا أننا نحترم بعضنا، ونحترم حرية الرأي في هذا المعهد أملين في تفاهم أفضل وتعايش بسلام ... .

Digitized by Birzeit University Library

وكان الحديث يدور باللغة الانجليزية، واستفسر السفير عن دراستي متسائلا عن إجادتي للتحدث بالانجليزية فقلت: إنني درست في الجامعة الأمريكية في بيروت أكملت دراستي المهنية بجامعة القاهرة، وثم قمت بدراسة عليا في كلية تكساس للزراعة والهندسة موفدا من الحكومة الأردنية بموجب برنامج المساعدات الفنية الأمريكية ... تناول السفير بطاقة من جيبه وقدمها لي قائلا: هذا رقم هاتفي الخاص بالسفارة الأمريكية في تل أبيب، ويمكنك الاتصال بي عليه في أي وقت ترغب فيه بزيارتي ... ولم أتصل بالسفير إطلاقا عملا بالمبدأ القائل " السلطان من لا يعرف السلطان ".

أذكر أن السيدة شولاميت ألوني ، زعيمة حركة ميرتس ، التحقت أثناء دراستي في المعهد ، لدورة لتعلم اللغة العربية. كما قام السيد شمعون بيرس بزيارة رسمية للمعهد. ودأبت شولاميت على الاتصال بي هاتفيا في نابلس، تدعونني لحضور الاحتفالات الهامة التي تقام في المعهد حتى بعد أن أحلت على التقاعد، كما أنها حضرت حفلة تكريمي التي أقيمت في رام الله بمناسبة إحالتي على التقاعد سنة ١٩٨٦. كما أنني دعيت من قبل رئيس بلدية ناتانيا لحضور حفل افتتاح حديقة عامة في المدينة إحياء لذكرى والد شولاميت الدكتور كاتسينلون.

وكانت محكمة عسكرية في نابلس قد حكمت على زوجتي ولفيف من زميلاتها العاملات في الجمعيات الخيرية بنابلس بالسجن وسجنت فعلا. ولا أدري كيف علمت شولاميت بالأمر، واتصلت هاتفيا بي عارضة مساعيها لدى الجهات المختصة لإطلاق سراح زوجتي. شكرتها على شهامتها واهتمامها وقلت: لا داع لذلك لأن زوجتي كانت قد خرجت يومها من السجن بكفالة مالية.

Digitized by Birzeit University Library

التهديد بابعادي إلى عمان

في السنوات الأولى للاحتلال وحينما كان المرحوم حمدي كنعان (أبو الطاهر) رئيسا لبلدية نابلس، كان تصدير الدجاج الحي وبيض الدجاج مسموحا به من الضفة الغربية إلى عمان على أن يحصل المصّدر على شهادة منشأ من الغرفة التجارية في بلده تفيد أن كان الدجاج المصدر أو بيضه من إنتاج الضفة الغربية، وأن يحصل كذلك على رخصة تصدير من دائرة التجارة والصناعة، وشهادة صحية بيطرية يوقع عليها طبيب بيطري حكومي على نموذج خاص.

أصدرت بلاغا بيطريا رسميا للأطباء البيطريين الحكوميين (تعليمات ثابتة) ألا يوقعوا على شهادات بيطرية صحية بهذا الخصوص إلا بعد التأكد من أن مزرعة الدجاج المصدر منها الدجاج أو البيض خالية من مرض نيوكاسل * الدواجن لمدة أسبوعين على أقل تعديل قبل تاريخ إصدار الشهادة، وأن تلك البضاعة المصدرة من مزرعة تقع في الضفة الغربية.

اتصل بي طبيب محافظة الخليل البيطري هاتفيا (الدكتور إياد الحموري) قائلا: إن فلانا يطلب شهادة صحية بيطرية لتصدير مائة ألف بيضة إلى عمان. سألت : هل لديه مزرعة كبيرة بهذا الحجم؟ أجبت : لقد وجدت لديه في قاع داره (٢٨) دجاجة بلدية!! قلت للدكتور حموري لا توقع له على شهادة ... قال: ما هو؟ ما هو؟ انت عارف؟ قلت للدكتور الحموري إياك أن توقع... وإن سألك أحد قل له إن مديري منعني من إصدار الشهادة، وضع المسؤولية على كتفي أنا ... ثم إن لديك بلاغا بيطريا ثابتا بهذا الخصوص.

---

* مرض نيوكاسل وباء شديد الخطورة يصيب الدجاج مسببا نفوقه بأعداد كبيرة قد تصل إلى ١٠٠٪، كما أنه يمكن أن يعدي الإنسان مسببا له التهاباً في العينين (رمد).

Digitized by Birzeit University Library

بعد بضعة أيام اتصل بي هاتفيا طبيب لواء جنين البيطري (الدكتور محمد الفتياني) معلماً أن أحدهم يطلب شهادة صحية بيطرية لتصدير خمسين ألف بيضة إلى عمان. قلت: هل لديه مزرعة دواجن؟ وأجبت بالنفي. كان جوابي كما أسلفت إلى الدكتور حموري بالخليل.

من المؤسف أن الغرف التجارية كانت تصدر لأولئك المصدرين شهادات منشأ من الضفة الغربية، وتضع ختمها على تلك الشهادات، وتوقيع رئيسها أو نائبه دون التحقق ألبتة وكأن المهم في الموضوع أن يدفع طالب الشهادة رسم شهادة الغرفة بمبلغ دينار واحد!!

كان ضابط القيادة للشؤون الزراعية في ذلك الوقت هو الكابتن إيتان يسرائيلي، وكانت تعقد اجتماعات شهرية تضم مدير الخدمات البيطرية للضفة ومدراء زراعتها ومدير سلطة المياه المركزية المهندس طاهر ناصرالدين ومساعدي الضابط. ويظهر أن أحد المحترمين من الموظفين أسر في أذن ضابط الزراعة : الدكتور كمال أصدر بلاغا رسميا فيه كذا وكذا ... .

بعد انتهاء الاجتماع الزراعي الشهري ، وكان هذه المرة في مكتب زراعة رام الله، طلب إلي ضابط الزراعة الإنتظار وبعد انصراف الحاضرين بقينا وحدنا في الغرفة حيث سألني ما إذا كنت قد أصدرت تعليمات فيها كذا وكذا بخصوص تصدير الدجاج والبيض، قلت: هذا صحيح. قال الضابط: كيف تجرؤ على إصدار ذلك دون علمي وموافقتي؟ قلت: هذه مسألة فنية، ومن صميم صلاحياتي، وأنا مثلما يهمني مكافحة مرض نيوكاسل الدواجن في الضفة الغربية يهمني - أيضا - ألا ينتشر أو ينقل من هنا إلى الضفة الشرقية. وأضفت إن مهلة الأسبوعين التي عينتها في بلاغي لخلو مزرعة الدواجن من مرض نيوكاسل تتفق تماما مع الاتفاقات الدولية بهذا الخصوص.

Digitized by Birzeit University Library

قال الضابط: د. كمال مسألة فنية! ... ها ... هذه مسألة اقتصادية... أتراك تظن أنك تقنعني بكلامك الفني هذا؟ وأردف يظهر يا د. كمال، أنك تحب أن تذهب وتسكن في عمان.

وفهمت طبعا ما يعنيه ... فليس هنالك تفسير آخر لكلامه غير أنه يهددني بأن ينفيني إلى عمان. وللحقيقة أذكر أن الكابتن إيتان يسرائيلي كان إنسانا ذكيا جدا، وإداريا مقتدرا سريع الفهم، وسريع التنفيذ ذا صلاحيات واسعة، وصاحب شخصية قوية. وكان في أوائل الاحتلال قد تفضل وساعدني في أمرين هامين: أدخل لي ابني الدكتور وضاح الذي كان يدرس الطب في جامعة الموصل/العراق إلى الضفة الغربية بدون معاملة لم شمل، كما ساعدني باخراج والدي الكهل من السجن بعد اتهامه بايواء أحد الفدائيين الهاربين في بيته.

ومع ذلك فلما هددني بالنفي قلت له: أنا أعرف أنك قادر على ذلك. إن عمان بلدي كما هي نابلس بلدي ... وسوف ألاقي ما هو مكتوب لي. وخرجت ورجعت إلى نابلس مكتفيا بما أجبته لأنني في الواقع كنت أحترم هذا الشخص الذي كان يتمتع بالإضافة لكفاءته بشخصية محببة إلى النفس.

وصلت بيتي، وأخبرت زوجتي بما حصل، وحضرت حقيبة ملابس صغيرة وضعت فيها قليلا من الملابس، وبعض الغيارات والأغراض الضرورية، ووضعت في جيبي بعض المال. أعترف أنني في تلك الليلة قلقت، ولم أعرف للنوم طعما، منتظرا أن يقرع الجيش باب داري لإبعادي من بلدي ... وأطل الفجر وطلع الصباح ولم يحدث شيء.

ذهبت إلى مكتبي كالمعتاد، وأنا مهموم أفكر في الوضع الذي وجدت نفسي فيه. هداني تفكيري أن ألجأ إلى زميلي وصديقي الدكتور شاي جور، المدير العام للخدمات البيطرية والصحة الحيوانية في إسرائيل. وكانت تربطني

Digitized by Birzeit University Library

به علاقة زمالة وصداقة منذ أن عملنا معا بدائرة واحدة زمن الانتداب البريطاني على فلسطين (سأذكر نبذا يبين معدن هذا الانسان الطيب ذي الشخصية الرفيعة في مجال آخر من هذه المذكرات).

اتصلت هاتفيا بالدكتور جور وقلت له أنني قادم عنده في أمر مستعجل وهام. قال: تفضل أهلا وسهلا، وكان يتكلم العربية بطلاقة. استقبلني الرجل في مكتبه بكل مودة وحفاوة وسألني: ماذا هنالك؟ لقد شغلت فكري... قلت له: إن ضابط القيادة للشؤون الزراعية للضفة الغربية، الكابتن إيتان يسرائيلي، هددني البارحة بنفي الى عمان... وسردت عليه القصة بحذافيرها ... لم أرَ في حياتي الدكتور جور منفعلا وغاضبا مثلما رأيته في تلك اللحظة ... وأضفت أنا لم أنم الليلة الماضية، وفكرت أن ألجأ اليك ... قام الرجل الشهم من مقعده، وضرب الطاولة بقبضة يده بشدة وقال "ما فشر ... مين هو إيتان يسرائيلي هذا؟ بلعن أبو دينه ... بلعن أبو ربه ... ولا تسأل في طقمه ... لا تهتم يا حاتم".

وجلسنا نتحدث في أمور فنية تتعلق بالخدمات البيطرية. لن أنسى في حياتي مروءة هذا الرجل، وكأنه قد نشلني من بئر كنت سأغوص فيه خاصة وإنه تدخل بكل قوة عملا وليس قولا فقط، ومنع ما كنت أخشاه.

وفي اليوم التالي، زرت الصديق المرحوم حمدي كنعان رئيس بلدية نابلس في مكتبه ورويت له ما حصل معي ... فسألني إن كنت أود أن يتدخل مع الحاكم في الموضوع ... قلت: لا وأعتقد إن الدكتور جور قادر على حمايتي، وأنا واثق كل الثقة أنه لن يتخلى عني ، وعلى كل حال، إن حصل مكروه فستتصل بك ابنة أختك (زوجتي) ولكن يا (أبو الطاهر) الجماعة في عمان يظهر أنهم نائمون ... والغرف التجارية لدينا ساهون ... قال أبو الطاهر اترك هذا الموضوع لي ... سأتصرف أنا.

Digitized by Birzeit University Library

وبعد ثلاثة أيام بالضبط، وكنت استمع إلى نشرة الأخبار من إذاعة عمان وإذا المذيع يقول: "أصدر معالي السيد حاتم الزعبي وزير الاقتصاد الوطني أمر دفاع منع بموجبه دخول الدواجن وبيضها من الضفة الغربية إلى الضفة الشرقية". رحمك الله يا أبا الطاهر.

Digitized by Birzeit University Library

ثلاث شخصيات عرفتها :

الجنرال فريدي زاخ :

عرفته قبل أن يصبح جنرالاً يشغل مركز نائب المنسق العام للمناطق المدارة في وزارة الدفاع الإسرائيلية بسنوات عديدة، وذلك منذ سني الاحتلال الأولى عندما كان نائباً لحاكم نابلس العسكري . انتقل حاكماً عسكرياً لجنين، ومن ثم حاكماً عسكرياً للخليل إلى أن نقل للعمل في مكتب القائد العام للضفة الغربية ببيت إيل لبضعة أشهر، وبعد ذلك رجع إلى نابلس ليصبح حاكماً لبضع سنوات .ثم عيّن رئيساً للإدارة المدنية، وحصل على رتبة جنرال، وعيّن أخيراً بمنصب نائب المنسق العام للمناطق المدارة بوزارة الدفاع في عهد الجنرال "جورن " لعدة سنوات، ولا يزال يحتل ذلك المركز الكبير.وقد استمرت علاقتي به وكانت في لقاءات تتم على فترات تقصر أو طوال طيلة مدة عمله في الضفة الغربية أثناء إشغاله لكل تلك المناصب، وخاصة عندما كان حاكماً عسكرياً لنابلس، وذلك بحكم مركزي كمدير لدائرة الخدمات البيطرية، حيث كان مجال عملي يغطي جميع مناطق الضفة الغربية .

ونشأت بيننا علاقة ود واحترام متبادل فضلاً عن العلاقة الرسمية، حتى أنه عتب عليّ مرة عندما كان حاكماً عسكرياً في الخليل لأنني كثيراً ما كنت أحضر إلى الخليل دون أن أمرّ لزيارته في مكتبه . وللحقيقة أذكر، أنني وجدت السيد فريدي زاخ ، رغم خطورة المسؤوليات العسكرية والمدنية التي شغلها ، إنساناً طيباً ،رفيع التهذيب مع التواضع والأدب الجم ، متوقد الذهن يتفهم المشاكل بسرعة، ويعمل جاهداً على حلّها . وأستطيع القول ، ويشاركني في ذلك كثير ممن عرفوه عن قرب ،إنه كان من أحسن الحكام العسكريين الذين توالوا على نابلس .

Digitized by Birzeit University Library

أذكر فيما يلي قصتين للتدليل على ما ذهبت إليه :

كان السيد موفق الحنبلي شاباً يعمل مفتش مواشٍ بدائرة البيطرة بنابلس . قُبض عليه وحكم من قبل محكمة عسكرية بالسجن الفعلي لمدة ستة أشهر بتهمة أنه علّم أحد المعتقلين - الذي إعترف عليه - كيفية طبع مناشير مستعملاً طريقة الطبع بالجلاتين .

بعد مضي حوالي شهرين على سجن الحنبلي كان السيد فريدي زاخ حاكماً لنابلس ، قابلته في مكتبه، وقلت له: إن موفق الحنبلي شاب صغير السن، وإن التهمة التي سُجن بها أصلاً بسيطة جداً، وأنه كان موظفاً في مكتبي، وأنا أعرف شخصياً أنه مسالم، ولا يشكل خطراً على الأمن، ويكفي أنه أمضى بالسجن للآن أكثر من شهرين . لذلك، فانني أرجو أن تأمر بالعفو عنه وإطلاق سراحه .

قال: أمتأكد أنت مما تقول؟ قلت: نعم، وأنا مستعد أن أكفله على مسؤوليتي. قال: سأنظر في أمره، وسجّل اسمه لديه . ولم تمضي إلا أيام قليلة وأطلق سراح السيد موفق الحنبلي من السجن، وهو يعمل الآن موظفاً في بلدية نابلس.

السيد المحامي غسان الشكعة:

حكم على السيد غسان الشكعة بالإقامة الجبرية، وعدم تخطي حدود منطقة بلدية نابلس، مع إثبات وجوده في مركز شرطة المدينة يوميا كل صباح لسنوات. ثم حكم عليه بالسجن الفعلي إداريا مدة (١٨) يوما في سجن الفارعة. ومن المعروف إن السجن الإداري كثيراً ما كان يجدد بدون محاكمة. وقبل عيد الأضحى بثلاثة أيام، قابلت فريدي زاخ ورجوته أن يأمر بالإفراج عنه ففعل.

Digitized by Birzeit University Library

وبقي أمر الإقامة الجبرية ساري المفعول، وفي هذه الأثناء ألمت بغسان وعكة صحية استدعت ضرورة معالجته في حيفا، فما كان مني إلا أن قابلت رئيس الإدارة المدنية فريدي زاخ الذي قال لي: " قل لغسان على لساني ألا يذهب إلى مركز الشرطة اعتباراً من الغد، وأن يعتبر أمر الإقامة الجبرية منتهيا، وبامكانه السفر إلى أي مكان يريد ".

الدكتور شاي جور - مدير الخدمات البيطرية والصحة الحيوانية لدولة إسرائيل:

الدكتور شاي جور من مواليد فلسطين يتكلم العربية بطلاقة، وينتمي إلى عائلة يهودية عريقة. كانت زمن الانتداب البريطاني على فلسطين، أي قبل سنة ١٩٤٨ عائلة "كروزوفسكي"، ولكنهم مثل كثير من الإسرائيليين غيروا اسم العائلة عند تأسيس دولة إسرائيل فأصبح عائلة جور.

كان شاي كروزوفسكي أصغر أبناء ثلاثة، ويشغل وظيفة اختصاصي أمراض الدواجن لجنوب فلسطين زمن الانتداب، وكان مكتبه في اللد. الأخوان الأكبران كانا اسماهما عساف وأمنون. أحدهما كان المدير العام لدائرة الزراعة والآخر المدير العام لدائرة الحراج في حكومة فلسطين. كان لهم أخت تزوجها إدوين صمويل ، مدير المطبوعات في حكومة الانتداب على فلسطين، وهو ابن السير هربرت صمويل ، المندوب السامي على فلسطين. ومع مرور الأيام أصبح إدوين صمويل في بريطانيا اللورد صمويل، وأصبحت أختهم الليدي صمويل.

كان مكتبي زمن الانتداب في القدس بعمارة البجالي القريبة من مكتب حاكم اللواء البريطاني قرب المسكوبية في الشارع الصاعد إلى دائرة المهاجرة والسفر.

Digitized by Birzeit University Library

بعد انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين سنة ١٩٤٨، أصبح الدكتور جور مديراً للخدمات البيطرية والصحة الحيوانية لدولة إسرائيل. وأصبحت أنا رئيسا لأطباء البيطرة لمحافظة نابلس بالمملكة الأردنية الهاشمية.

ومع أن الدكتور جور وأنا كنا نعيش في دولتين متعاديتين إلا أننا تقابلنا مرتين بين سنة ١٩٤٨ و ١٩٦٧ مقابلة زملاء وأصدقاء قدامى، بحيث كان كل منا يمثل حكومته رسميا للاتفاق على إجراء بيطري مشترك يتعلق بالأرض الحرام التي كانت تفصل دولة إسرائيل عن المملكة الأردنية الهاشمية، ذلك أن تلك الأرض الحرام أصبحت مرتعا للكلاب الضالة، وغيرها من الفصيلة الكلبية كبنات آوى وغيرها، بحيث أصبح هذا الوضع يهدد بانتشار مرض "داء الكلب" في كلتا الدولتين.

قابلته أول مرة في مكاتب هيئة الأمم المتحدة في بوابة مندلبوم بالقدس، وذلك بترتيب بين لجنة الهدنة المشتركة الأردنية والحكومة الإسرائيلية بوساطة مكتب هيئة الأمم المتحدة. كان يرافقني قائد "كابتن" من قوات هيئة الأمم المتحدة، كما يرافق الدكتور جور قائد "كابتن" آخر من الهيئة نفسها.

وفي المرة الثانية كان اللقاء ، وبالترتيب نفسه المذكور بأعلاه ، تحت صف شجر الكينا الضخمة الموجودة على الحد الغربي من مدرسة خضوري الزراعية بطولكرم.

ومرت الأيام ... وبعد الاحتلال الإسرائيلي للضفة الغربية سنة ١٩٦٧ بحوالي عشرة أيام، وبينما كنت في مكتبي بنابلس وإذا الدكتور شاي جور يدق باب مكتبي مستأذنا بالدخول ، والتقينا لقاء زملاء وأصدقاء قدامى.

Digitized by Birzeit University Library

تعييني مديرا للخدمات البيطرية للضفة الغربية:

بعيد الاحتلال ببضعة أسابيع طلبت قيادة الضفة الغربية العسكرية من مدير الخدمات البيطرية الإسرائيلية، الدكتور جور، انتداب أحد الأطباء البيطريين الإسرائيليين للإشراف على الأعمال البيطرية بالضفة الغربية. وانتدب لهذه الغاية الدكتور كنان، طبيب رعنانا البيطري باسرائيل، وكان يحضر لزيارة المكاتب البيطرية الرئيسية ساعة أو ساعتين من الزمن كل بضعة أيام. استمر هذا الوضع حوالي أربعة أشهر، بعد ذلك حضر ضابط القيادة للشؤون الزراعية ، "الكابتن" إيتان يسرائيلي إلى مكتبي بنابلس، حيث كنت أشغل وظيفة رئيس أطباء البيطرة لمحافظة نابلس قائلا: كلفتني القيادة بابلاغك بتعيينك مديرا للخدمات البيطرية للضفة الغربية. قلت: شكرا لهذا التقدير، ولكنني أعتذر عن قبول هذا المنصب ... فوجيء الرجل ... وقال: ولكن هذا منصب رئيسي كبير، ولم أتخيل أنك ترفض مركزا كهذا. قلت: يا "كابتن"، إن تعييني من الأردن هو رئيس بيطرة محافظة نابلس فقط، وليس مديرا للبيطرة للضفة الغربية، وأنت تعلم أن محافظة نابلس هي أكبر محافظات الضفة الغربية، وأنا في غنى عن وجع الرأس، وتحمل مسؤولية أكبر. قال الكابتن: على كل حال لا تتسرع في الجواب ... فكر على مهلك، وسأمهلك أسبوعا ثم أحضر مرة أخرى لتلقي جوابك النهائي، وأرجو أن يكون بالإيجاب.

بعد يومين سافرت إلى عمان، وقابلت مدير البيطرة الأردني الدكتور كمال الطاهر ، وأعلمته بما حصل. وبعد فترة لم تطل كان الجواب الرسمي إيجابيا، وقال الدكتور الطاهر: نحن موافقون ... فليس لدينا بدائرة البيطرة بالضفة الغربية من هو أفضل منك، فأنت موضع ثقة، فتوكل على الله ومبارك.

رجعت لنابلس، وبعد بضعة أيام حضر الكابتن يسرائيلي، ولم يسألني عن جوابي ... بل قال: طلبت إلى القيادة إبلاغك أنك مدير دائرة الخدمات البيطرية

Digitized by Birzeit University Library

للضفة الغربية اعتبارا من اليوم ... فاما أن تقبل، وإما أن تترك العمل في الحكومة. قلت: قبلت، ولكن لي بعض التحفظات ... قال أتشترط على الحكومة؟ قلت: اسمعني، فاما أن توافقني، أو أسلمك مفتاح هذه الدائرة وأترك العمل. قال: "هات لنشوف" ... قلت:

أولاً : أنا سأدير الدائرة من مكتبي هذا بنابلس، ولست مستعداً للانتقال إلى أي بلد آخر. قال: موافقون.

ثانياً : أنا رجل أعرف مهنتي جيدا، ولست في حاجة إلى مستشار إسرائيلي، أو ناصح ليقول لي اعمل كذا ولا تعمل كذا، فضلا عن أن طبيعة تكويني لا تحتمل وجود رقيب علي، فأن أخطأت فحاسبوني ... .

ثالثاً : يجب أن أكون حر التصرف بدائرتي فنيا وإداريا وماليا. قال الكابتن: نحن موافقون.

وكنت والدكتور جور نجتمع دوريا كل بضعة أسابيع، وكلما لزم الأمر -أحيانا- في مكتبه وأحيانا في مكتبي للتنسيق والبحث في الأمور الفنية المشتركة، وتقديم طلباتي من الأجهزة والأدوية واللقاحات والأمصال البيطرية المختلفة كي تقوم المختبرات البيطرية بتزويدي بها حسب الطلب، وفي الأوقات المناسبة. وساد اجتماعاتنا جو من الصداقة والصدق في القول والعمل، ومعاملة الند للند باحترام ومودة.

Digitized by Birzeit University Library

الدكتور دفني

عند إحالة الدكتور جور على التقاعد عين الدكتور دفني مديرا للخدمات البيطرية والصحة الحيوانية لإسرائيل. قبل سنة ١٩٤٨ كان اسمه فندمنسكي، وتغير إلى دفني بعد تأسيس إسرائيل. وكان يعمل طبيباً بيطرياً في طبريا زمن الانتداب.

كان الدكتور دفني منطويا على نفسه ومكرساً كل وقته لأداء واجباته بدقة، وعلى رأي أحد كبار الأطباء البيطريين الإسرائيليين الذي كان يشغل وظيفة مدير المختبرات البيطرية الإسرائيلية، فان الدكتور دفني عندما يرى صورة جميلة لحرش أشجار يانعة، يدقق النظر قائلاً: في هذه الشجرة ورقة صفراء ذابلة. وعلى رأي طبيب بيطري إسرائيلي آخر فانه كان عندما يود أن يسلي زوجته في البيت يأخذ معه إضبارات مكتبه، ويسألها أن تساعده في تنظيم الأوراق الرسمية. والدكتور دفني حاقد على العرب عموما؛ كانت تسكن عائلته في مدينة الخليل، وكان أبوه يعمل في تقطير الخمور، وفي سنة ١٩٢٩ عندما حدثت احداث الخليل قتلت عائلته من جملة من قتل، وكان وقتها يدرس الطب البيطري في بريطانيا. وأعدم الزير وجمجوم وحجازي من جراء تلك الحوادث - رحمهم الله جميعاً -.

كانت علاقتنا رسمية ناشفة بعكس العلاقة التي سادت مع الدكتور جور تماما، وبعكس العلاقات الطيبة التي استمرت بيني وبين مدير المختبرات البيطرية الإسرائيلية، ورؤساء الأقسام ، وكنت أتحاشى الاجتماع معه إلا وقت الضرورة، وأقضي مصالح دائرتي مع مدير المختبرات، ورؤساء الأقسام البيطرية مباشرة.

كان الترتيب أن أرسل "طلب شراء محلي" (هازمانا بالعبرية) (Local

Digitized by Birzeit University Library

Purchase Order) باللوازم أو الأدوية أو اللقاحات البيطرية التي أحتاجها إلى مدير المستودعات كورت ميمن ، الذي يعلمني هاتفيا عند تجهيزها للتسليم، فأرسل سيارة الدائرة لاستلامها، ويرسل لي مدير المستودعات فاتورة حساب أصدق عليها وأوقعها وأرسلها إلى محاسب ضابط القيادة للشؤون الزراعية في بيت إيل لدفع قيمتها إلى دائرة البيطرة الإسرائيلية.

أرسلت مرة طلب شراء محلي لتزويدي بأربعين ألف جرعة من علاج اسمه سيتارين (Citarin) من صنع شركة باير الألمانية المستعمل في علاج الأغنام من مرض ديدان الرئة وغيرها من الطفيليات الداخلية. وتأخرت الطلبية أكثر من المعتاد، ولدى زيارتي المختبرات سألت مدير المستودعات عن ذلك. فقال لي إنه آسف للتأخير، وكنت أريد أن أبحث هذا الموضوع معك. الدكتور دفني أمرني أن أزودك بخمسة ألاف جرعة فقط، وأنت تعرف أنني موظف عنده، ويجب أن أطيع تعليماته، فما رأيك؟ قلت: أنت متأكد أن الدكتور دفني قال لك ذلك؟ قال: نعم. قلت: أنا ذاهب إليه ولن أتسلم إلا الكمية المطلوبة جميعها.

وذهبت لمقابلة الدكتور دفني في مكتبه وأنا مصمم على أن أوقفه عند حده. وعندما جلست قلت له: أصحيح أنك قلت لكورت ميمن ألا يسلمني إلا خمسة آلاف جرعة سيتارين؟ قال: نعم. قلت: وبأية صفة؟ قال: "بصفتي مسؤولاً عن المحافظة على أموال دولة إسرائيل"!! وهنا طفح الكيل فقلت له: أتراني أبذر في أموال دولة إسرائيل؟ قال: خذ خمسة الآلاف وبعدها أرى ما سيكون. قلت: لن آخذها، أنت تعرف أنه يوجد في الضفة الغربية حوالي نصف مليون رأس من الأغنام، وأن كثيرا منها مصاب بمرض ديدان الرئة. اسمع د. دفني، إذا كنت تفكر بأنني طبيب بيطري أعمل لديك فأنت واهم؛ أنا لست موظفا عندك، أنت مدير في إسرائيل، وأنا مدير في الضفة الغربية. أنا المسؤول عن ميزانية البيطرة في الضفة الغربية ولست أنت ... إنك تحاول إهانتي بعدم تشريفك لتوقيعي على طلب الشراء... فأنا الذي يعرف ما يلزمني، وما أنا قادر

Digitized by Birzeit University Library

على تحويل ثمنه ... أنا لا أحتمل مثل هذه المعاملة، فان صممت على رأيك فسوف أقطع كل علاقة رسمية بيني وبينك ... وقمت غاضبا، وصفقت باب مكتبه في وجهه وخرجت.

في صباح اليوم التالي، توجهت إلى بيت إيل لمقابلة ضابط القيادة للشؤون الزراعية وكان وقتها السيد أصائيل بن دافيد، رجل قوي الشخصية، محنك ومجرب بوظائف رئيسية سابقة في إسرائيل.

رويت له ما حصل بيني وبين الدكتور دفني وقلت: له هذا الرجل حاقد على الأمة العربية، وأنا لا أطيق التعامل معه؛ فاما أن يوقف عند حده، أو تجد لي شخصا آخر أتعامل معه بدائرة البيطرة الإسرائيلية، أو تقبل استقالتي. طيب السيد بن دافيد خاطري، وهاتف د. دفني، ودار بينهما حديث مطول.

في صباح اليوم التالي، اتصل مأمور المستودعات كورت ميمن ، هاتفيا معي طالبا إرسال سيارة لتسلم أربعين ألف جرعة سيتارين، وتنفست الصعداء. بعد ذلك امتنع الدكتور دفني عن مجادلتي أو التدخل في أي طلب أطلبه من مستودعاته إلى أن أحيل على التقاعد، وحل مكانه الدكتور شمشوني.

استيراد الأغنام الحية

بعد الاحتلال، وبعد أن انتظم السفر ونقلت بعض البضائع عبر جسري العبور اللنبي ودامية ، سمحت السلطات المختصة بوزارة الزراعة الإسرائيلية باستيراد الأغنام (الضأن والماعز) الحية من الضفة الشرقية إلى الضفة الغربية، لغايات الذبح فقط لتزويد المنطقة باللحوم الحمراء ليس إلا، وخولتني صلاحية تنظيم ذلك، والإشراف الفعلي للتأكد من أن جميع الأغنام المستوردة تذبح في المسالخ العامة التابعة لبلديات الضفة الغربية تحت إشراف الأطباء البيطريين.

Digitized by Birzeit University Library

كان الترتيب أن تُجَلب الأغنام إلى جسر العبور يومين في الأسبوع، ثم أصبحت ثلاثة أيام في الأسبوع، وخصص لي مكتب في كل جسر، وساحة فسيحة لإنزال الأغنام عند وصولها وفحصها بيطريا، للتأكد من خلوها من الأمراض السارية أو المعدية، وكنت أنتدب طبيبا بيطريا حكوميا للقيام بتلك المهمة في كل جسر، وتعليمها بعلامة ثابتة بقرط طرف من أُذنها اليمنى بمقرط يترك علامة مميزة. وكانت التعليمات واضحة بارجاع شحنة الأغنام بكاملها إن وجد بينها أي مرض.

وكانت الأغنام تنقل بالسيارة الشاحنة إلى الكرنتينه (مكان الحجر الصحي للأغنام) المقرر لكل منطقة، إذا لم تبدو عليها مظاهر المرض، ومن ثم تحجر مدة ثلاثة أيام تحت المراقبة البيطرية للتأكد من خلوها من الأمراض، وبعد ذلك تنقل في سيارات شاحنة إلى المسالخ البلدية حيث تذبح ويسجل عددها المذبوح، ويحصل التاجر مستوردها على شهادة خطية موقعة من طبيب المسلخ البيطري تبين عدد الأغنام المستوردة المذبوحة حتى يسدد التاجر ضريبة الأغنام المستوردة تحت طائلة المسؤولية إن هو خالف ذلك، بالإضافة إلى حرمانه من الاستيراد إن هو خالف أي شرط من شروط الاستيراد.

وكان هنالك تجار كثيرون من مختلف مدن الضفة الغربية يتعاطون هذه التجارة. بتاريخ ١٩٧٠/٦/٢٤ أعلمني ضابط القيادة للشؤون الزراعية الكابتن إيتان يسرائيلي أن وزارة الزراعة الإسرائيلية قررت منع دخول الماعز من الضفة الشرقية إلى الضفة الغربية منعا باتا بحيث يقتصر الاستيراد على الضأن فقط. وجرى تبليغ جميع تجار الأغنام بهذا الأمر.

وفي أحد الأيام وكنت قد انتدبت الطبيب البيطري الدكتور رفعت إسكندر لفحص الضأن القادمة للضفة في جسر دامية، صادف أن كان جسر اللنبي مغلقا لعطل ما، وتحول العبور إلى جنوب الضفة وشمالها إلى جسر دامية.

Digitized by Birzeit University Library

كان الأمر بمنع دخول الماعز قد عمم على قادة الجسور - أيضا- بالإضافة إلى الأطباء البيطريين. وأحضر أحد تجار الأغنام من مدينة الخليل * شحنة كبيرة من الأغنام نصفها من الماعز، ونصفها من الضأن ضاربا بالتعليمات الرسمية عرض الحائط ظانا أنه بمركزه يستطيع إدخال الماعز.

حصل جدال ومشادة بينه وبين الدكتور إسكندر، وأصر الطبيب على وجوب إرجاع جميع الماعز إلى عمان فجن جنون الرجل ... فما كان من الدكتور إسكندر إلا أن استدعى قائد جسر دامية (الذي كانت التعليمات واضحة لديه) فنفذها بارجاع جميع الماعز إلى عمان مما سبب له ضررا وخسارة.

صمم الرجل على الانتقام فتظلم إلى سماحة الشيخ الجعبري، رئيس بلدية الخليل ... الذي قدّم شكوى إلى الجنرال ديان عند زيارته مدينة الخليل، فأوعز إلى ضابط القيادة للشؤون الزراعية للضفة الغربية ، الكابتن إيتان يسرائيلي ، لتقصي الحقيقة وتقديم تقرير له بذلك.

في صباح اليوم التالي وإذا الكابتن إيتان يسرائيلي يدخل مكتبي دون موعد سابق، ويعلمني أنه كلف من قبل الجنرال ديان لمعرفة سبب إرجاع أغنام صاحبنا الخليلي، وأن الشيخ الجعبري مهتم بهذا الموضوع، واشتكى رسميا للجنرال ديان ... فضحكت ... قال الكابتن الجنرال ديان يريد جوابا ... قلت: ألست أنت الذي أعلمتني أنه تقرر منع دخول الماعز إلى الضفة الغربية؟ قال: بلى. قلت: المسألة بكل بساطة تتمثل في أن هذا التاجر الخليلي أحضر ماعزاً من عمان وقام الطبيب البيطري المكلف بارجاعها من جسر دامية إلى عمان بموجب التعليمات. انبسطت أسارير الكابتن يسرائيلي وقال: أنت تعرف يا

---

* (صادف أنه عضو في مجلس بلدي الخليل أيام أن كان سماحة الشيخ محمد علي الجعبري رئيسا لبلدية الخليل).

Digitized by Birzeit University Library

د. كمال أن الشيخ الجعبري رجل كبير، ونحن لا نريده أن يزعل ... هذا الموضوع يؤكد لي أن تصرفك لا غبار عليه، وأنا سوف أشرح للجنرال ديان ما حصل واعتبر الموضوع منتهيا.

ولكـــن الموضوع لم ينته عند هذا الحد، ذلك أنني بعد هذا بشهر سافرت إلى عمان ، وعندما قطعت الجسر ووصلت إلى النقطة الأردنية قدمت جواز سفري وتصريحي كالمعتاد. وتأخر رجوع جواز سفري كثيرا ... وأخيرا، حضر أحد رجال المباحث بلباس مدني وطلب مني الذهاب معه، وأدخلوني إلى غرفة في المركز وقالوا لي: أنت مطلوب للمخابرات العامة في السلط ... قلت: خيراً إن شاء الله ... فنظر إلي رجل المباحث بارتياب وكأنه يقول: ومن أين يأتي هذا الخير؟ ثم سألني: أتحب أن نرسلك بسيارة عسكرية أم تستأجر سيارة تكسي على حسابك؟ قلت: بل استأجر سيارة تكسي. وأرسلوا معي أحد رجال المباحث كي لا أهرب منهم، ولم يعطوني جواز سفري، بل سلموه لرجلهم لتسليمه إلى مدير مباحث السلط. ولم يخطر ببالي أي سبب يدعو المباحث أو المخابرات العامة لاستدعائي أو للقبض علي. ومع ذلك فان المخابرات العامة والمباحث ليست من الكلمات المحببة إلى النفس، واستدعاؤهم لأي شخص لا أظنه يبشر بخير.

كان جواز سفري جواز سفر أردني خاصاً ذا لون أحمر كالذي كان يمنح لفئات معينه من جملتهم كبار الموظفين الحكوميين من الدرجة الأولى. عندما وصلنا إلى مدير مباحث السلط سألته عن سبب القبض علي فقال الرجل بأدب أنا لا أعرف ولكنك مطلوب إلى المخابرات العامة في عمان. سأحتفظ بجواز سفرك لإرساله اليوم إلى المخابرات العامة في عمان، وعليك أن تراجع المخابرات غدا الساعة العاشرة صباحا. وأطلق سراحي.

قبيل الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي كنت أمام بوابة عمارة

Digitized by Birzeit University Library

المخابرات العامة الضخمة في عمان ، ذكرت اسمي وأنني مطلوب، فرافقني شاويش إلى الداخل وأدخلني إلى غرفة بالطابق الأرضي فيها بعض المقاعد وطلب أن انتظر، وأقفل باب الغرفة، وتركني وحدي، وانتظرت وانتظرت ... مضت الدقائق بطيئة ثقيلة ... نصف ساعة ... ساعة ... ساعة ونصف ... ساعتان ولا حس ولا خبر. يظهر أن المخابرات تتعمد ذلك قاصدين تحطيم معنويات الزبائن (نفس الأسلوب الذي أتبع معي من قبل المخابرات السورية في دمشق سنة ١٩٧٣ (كما بينت سابقا !!) ويظهر أن المخابرات العربية قارئة على شيخ واحد، أما المخابرات العراقية فكانت أكثر حذرا وانتباها سنة ١٩٦٥ كما سيتبين القارىء من سياق هذه المذكرات ... وكان قدري أن يكون لي قصة مع المخابرات العربية الثلاث.

تبعت الشاويش في ممرات "كازينو أبو رسول" كما كان أهل عمان يسمون بناية المخابرات العامة الضخمة.

فأدخلني غرفة بالطابق الثالث وكان فيها شخصان بملابس مدنية * أجلساني على مقعد، وكان جواز سفري الخاص الأحمر أمامهما على الطاولة، وبدأت الأسئلة والتحقيقات ... وكنت واثقا من نفسي، وصممت على أن أبدو هادئا ومطمئنا أمام الرجلين المتفحصين لكل كلمة أقولها. أين تذهب الأغنام التي ترسل للضفة الغربية؟ لماذا ترسلها إلى مدن العدو لتموينه باللحوم؟ أنت من كبار موظفي الدولة فكيف تستبيح لنفسك مثل هذا العمل؟

---

* (علمت فيما بعد أنهما من كبار ضباط المخابرات العامة وأن أحدهما السيد نذير رشيد والذي أصبح في وقت لاحق مدير المخابرات العامة الأردنية).

Digitized by Birzeit University Library

ضحكت، وبينت للرجلين الخطوات المتبعة منذ وصول الأغنام إلى الجسر وحتى ذبحها في المسالخ البلدية،وكيف أنه ليس لي جهاز شرطة لمتابعة الأغنام بعد أن تخرج من الحجر الصحي، ويتسلمها صاحبها ... وأنه مع ذلك كنت أدقق كشوفات المسالخ البلدية للتأكد من أن كل شحنة كانت تذبح في مسالخ الضفة. ولم يفتني أن أذكر في حديثي أنه حصل قبل حوالي شهر أن أحد أعضاء المجلس البلدي في الخليل الذي يستورد الأغنام إلى الضفة أحضر شحنة من الماعز التي أرجعت إلى عمان بموجب أوامر السلطة العسكرية. وتقصدت أن تبدو هذه الملاحظة عرضا ... ونظر الاثنان إلى بعضهما نظرة لم يفتني مغزاها ... سأل أحدهما: وهل منعت السلطات العسكرية دخول الماعز إلى الضفة الغربية؟ ومتى كان ذلك؟ قلت: منذ أواخر شهر حزيران سنة ١٩٧٠. عندئذ قلت: يا إخوان، أظن أنني عرفت ما تهدفان إليه ... ولكي يطمئن بالكما أحب أن أبين حقائق أعرفها وأنتما لا تعرفانها:

أولا: إن إسرائيل ليست بحاجة إلى لحوم الأغنام لأن لديها الكفاية منها.

ثانيا: إن معظم الشعب الإسرائيلي يستهلكون لحوم الأبقار، وأن قلة منهم تستهلك لحوم الأغنام.

ثالثاً: يوجد في إسرائيل ثلاثة مراكز لحفظ لحوم الأبقار المجمدة ، المستوردة من الحبشة وأمريكا الجنوبية، كمخزون غذائي استراتيجي؛ فبناية كل محطة من محطات التبريد بمساحة ملعب كرة القدم، ومبردة بدرجة حرارة ثلاثين تحت الصفر، أي، أنه يمكن الاحتفاظ بتلك اللحوم صالحة للاستهلاك لمدة طويلة جدا. وقد دخلت شخصيا أحد تلك المخازن بعد أن لبست رداء من الفرو، وغطاء للرأس، وكفوفاً لليدين لأن درجة الحرارة خارج المخزن كانت (٣٠) فوق الصفر وداخله (٣٠) تحت الصفر، أي، أن الفرق هو ٦٠ درجة حرارة مئوية،ويعني الدخول إلى مخزن من هذا النوع بدون تدفئة الجسم الإصابة بالتهاب الرئة.

Digitized by Birzeit University Library

وأضفت أن كل مخزن من تلك المخازن الثلاثة يحوى خمسة آلاف طن من لحوم الأبقار المجمدة، أي أن المخزون الاستراتيجي من لحوم الأبقار المجمدة في إسرائيل لا يقل عن خمسة عشر ألف طن.

يا سادة: أرجو أن أكون قد بينت لكما ما فيه الكفاية، وأن تكونا قد اقتنعتما بأن التهمة الموجهة إلي باطلة من أساسها. نظر ضابطا المخابرات الكبيران إلى بعضهما ... ثم قال السيد نذير رشيد: لقد أزعجناك يا دكتور، نحن آسفان، تفضل جواز سفرك. قلت: يا إخوان، آمل مثلما "تمرمطان وتزعجان الناس الشرفاء أن تحاسبا من يدلي إليكما بإفادات كاذبة وملفقة". أجاب السيد رشيد: هذا شغلنا، ومع السلامة يا دكتور.

استيراد الأغنام الحية من رومانيا:

نظرا لأن الضأن المستوردة من الضفة الشرقية هي أصلا مستوردة من تركيا التي تعتبر منبع مرض الحمى القلاعية (Foot & Mouth Disease) فقد اكتشفت بعض حالات هذا المرض بين شحنات الضأن المستوردة إلى الضفة الغربية،وأعيدت من جسري العبور إلى عمان. وبعد ورود أنباء عن ظهور وباء الطاعون البقري في لبنان وسوريا تقرر اعتبارا من تاريخ ١٩٧٠/٨/٢٤ منع استيراد الأغنام من الضفة الشرقية منعا باتا، وظل المنع ساري المفعول حتى الآن،واستعيض عن ذلك باستيراد الضأن الحية بالبواخر من رومانيا حسب الشروط التالية:

١ - وجود طبيب بيطري إسرائيلي في رومانيا لفحص الأغنام قبل الشحن.

٢ - إرفاق شحنة الأغنام بشهادة صحية بيطرية من السلطات الرومانية تشهد بأن الأغنام المصدرة خالية من أمراض معينة، وأن رومانيا بكاملها خالية من تلك الأمراض للأشهر الثلاثة السابقة لتاريخ الشحن على الأقل.

Digitized by Birzeit University Library

٣ - أن تكون الأغنام ذكورا فقط؛ ذلك للتأكد من ذبحها، وعدم إبقائها للتربية في حالة استيراد الأناث.

٤ - فرض الحجر الصحي البيطري على الأغنام عند وصولها لمدة سبعة أيام، ثم نقلها ووضعها تحت المراقبة البيطرية في خانات خاصة ، موافق عليها ، لحين ذبحها جميعا في المسالخ البلدية، مع عدم السماح بذبحها في القرى أو خارج مسلخ بلدي.

٥ - منع الاستيراد من رومانيا اعتبارا من أول أذار وحتى نهاية تموز من كل عام لإتاحة المجال لبيع الإنتاج المحلي بأسعار مناسبة محافظة على دخل المزارعين من أصحاب الأغنام.

تشكلت شركات من تجار الأغنام بالضفة الغربية لاستيراد الخراف من رومانيا. كانت الخراف تشحن ببواخر خاصة مجهزة لنقل الأغنام، حمولة كل منها تتراوح بين (٣-٤) آلاف رأس وذلك من ميناء كونستنزا الروماني على البحر الأسود إلى ميناء حيفا، حيث تستغرق الرحلة البحرية حوالي خمسة أيام بلياليها.

وكان من واجبي أن أصعد إلى ظهر الباخرة لفحص الأغنام والتأكد من خلوها من الأمراض السارية أو المعدية قبل السماح بنزولها من الباخرة، علما بأن لي الحق القانوني بموجب "قانون أمراض الحيوانات" الأردني أن آمر بإرجاع الباخرة بحمولتها من الخراف إلى رومانيا إن وجدت مرضا ساريا أو معديا بينها.

تراوح عدد الخراف المستوردة سنويا من رومانيا من (٥٤٣٦٧) إلى (١٢١٩١٢)، واستمر هذا الوضع حوالي ست سنوات حيث وصلت آخر باخرة

Digitized by Birzeit University Library

أغنام بتاريخ ١٩٧٦/٢/٢٩، وتوقف الاستيراد من رومانيا نهائيا. ثم نفذت خطة أخرى لزيادة اللحوم الحمراء من الأغنام المحلية للاستغناء عن الاستيراد - كما سأبين لاحقا -.

لم تصدر السلطات المختصة أمرا رسميا بمنع استيراد الخراف من رومانيا، وإنما لجأت إلى فرض رسوم جديدة عالية بحيث تصبح تكاليف الاستيراد أعلى بكثير من ثمن الناتج المحلي، بحيث لا يفكر أحد بالاستيراد. أعتقد أن سبب ذلك يعود إلى توازن الميزان التجاري مع رومانيا، ورغبة السلطات المختصة في تسويق فائض الخراف الذي حصل في الكيبوتسات الإسرائيلية في الضفة الغربية،وتوفير العملات الصعبة.

تسمين الأغنام المحلية:

كانت العادة السائدة أن تذبح الحملان والجديان وهي صغيرة السن، وقليلة الوزن بحيث تذبح وهي تزن (١٠-١٥) كيلوغراماً (اللحم الأوزي) ظنا من الفلاحين، وأصحاب الأغنام أن ذلك أربح لهم بتوفير تكاليف العلف الخ. ولما كان الفلاح ومربي الأغنام لا يثق بالإرشاد الكلامي كثيرا، وكما يقول المثل "الفلاح يسمع بعينيه" فقد رؤى اتباع خطة جديدة تشجيعية اختيارية لتسمين الحملان والجديان بحيث لا تذبح قبل أن يصل وزنها لى (٤٥) كيلوغراماً للحملان و (٣٠) كيلوغراماً للجديان.

قامت الخدمات البيطرية والإرشاد الزراعي بحملة توعية وإرشاد ضخمة لحث أصحاب الأغنام للاشتراك في خطة التسمين. أعلنت دائرة الخدمات البيطرية أنها ستدفع دينارا أردنيا عن كل رأس من الحملان،أو الجديان التي يقوم أصحابها بالاشتراك الطوعي في حملة التسمين،بالغا ما بلغ عدد الحملان والجديان التي يتعهد صاحبها بتسمينها لتصل الوزن المعيّن. كما أعلنت عن

Digitized by Birzeit University Library

ثلاث جوائز مالية لأحسن ثلاثة من مسمني الأغنام في كل لواء، وجائزة مالية كبرى لأحسن مسمن في الضفة الغربية من بين الفائزين الأوائل من كل لواء.

اشترك عدد لا بأس به من مربي الأغنام الواعين في كل لواء، ووقعوا على اتفاقات خاصة وضعت للغاية المذكورة في السنة الأولى. وقام المشتركون من مربي الأغنام بتقديم الأعلاف المركزة الموزونة، وجرى تركيز الخدمات البيطرية لمكافحة أمراض تلك الأغنام، وخاصة قمع الأمراض الطفيلية الداخلية والخارجية، والإشراف على التغذية الصحيحة علميا من قبل مرشدي تربية الحيوان من المهندسين الزراعيين.

اقتنع من اشترك في الخطة عمليا بأن هذه الطريقة أكثر ربحا له بالرغم من تكاليف العلف الذي استعمله. وأعيد تنفيذ الخطة سنة أخرى، وتضاعف الإقبال على الاشتراك فيها، وتوقيع الاتفاقات مع الدائرة بشكل واسع، ودفعت الدائرة مبالغ محترمة في سبيل إنجاح مشروعها. ونجحت الخطة بإقبال منقطع النظير، واقتنع مربو الأغنام بعد أن "سمعوا بعيونهم" ولم يعد هنالك داع لاستمرار الدعم المالي التشجيعي لسنة ثالثة.

بذلك، استعيض عن استيراد الأغنام من الخارج بزيادة الناتج المحلي بحيث أصبح الوزن الإجمالي المتحقق من نفس تعداد الثروة الغنمية المحلية ثلاثة أضعاف ما كان عليه سابقا، وأصبحت اللحوم الحمراء متوفرة في الضفة الغربية، واستغنى عن الاستيراد نهائيا. ولعل زيادة توفر اللحوم البيضاء من الدجاج، وديك الحبش، وكذلك الأسماك كان عاملا مساعدا في تخفيف الطلب على اللحوم الحمراء، خاصة وأن لحوم الدجاج وديك الحبش أرخص ثمنا بكثير من ثمن اللحوم الحمراء.

Digitized by Birzeit University Library

عروض رفضتها:

إثر إقالة بعض رؤساء البلديات سنة ١٩٨٢، ومنهم آخر رئيس منتخب لبلدية نابلس السيد بسام أحمد الشكعة استدعيت لمقابلة القائد العام للضفة الغربية بمكتبه في بيت إيل الذي طلب إلي بحضور مستشاره للشؤون العربية إبداء رأيي في تعييني رئيسا للجنة بلدية نابلس.

فوجئت فعلا بهذا الموقف المحرج، غير أنني تماسكت وبقيت هادئا رغم أن فكري كان يعمل بسرعة وانتباه ... وكنت أعرف طبعا أن للحكومة أو السلطة الحق بموجب نظام الخدمة المدنية القانوني الأردني أن تكلف أي موظف بالقيام بأي عمل ترتئيه مهما كان ذلك العمل بعيدا عن مهنة أو طبيعة عمل الموظف الأساسية. لذلك لم يكن منطقيا أن أرفض العرض ، وهداني تفكيري إلى اتباع سبيل آخر ... .

شكرت القائد العام على الثقة التي أولانيها وقلت: أنا لا أتخلى عن خدمة بلدي، ولكن يجب أن تتوفر شروط أرى أنها ضرورية جدا لذلك. وعند الاستفسار عن تلك الشروط قلت:

أولا: يقتضي أن توافق الحكومة الأردنية على تعييني هذا. قال القائد العام: لا مانع لدينا، سافر إلى عمان واحصل على الضوء الأخضر. قلت: لا، فالمثل يقول: "كل معروض مهيون" وأنا غير مستعد للسماح لنفسي بفعل ذلك ، وأرى أن تقوموا أنتم بالحصول لي على الضوء الأخضر، وأنتم لا تعدمون وسيلة للاتصال بعمان بطرقكم الخاصة.

ثانيا: أنا أعرف أن بلدية نابلس مفلسة ماليا، ويقتضي أن تقوموا أنتم أو عمان أو كلاكما بتغطية جميع العجز الحاصل في ميزانية البلدية، لأنني غير مستعد لتسلم مسؤولية مؤسسة مفلسة.

Digitized by Birzeit University Library

ثالثا: يقتضي الاتفاق مسبقا بينكم وبيني على الأشخاص الذين سيعينون لعضوية لجنة المجلس البلدي حتى يسود الانسجام في عمل المجلس.

وأخيرا وليس آخرا: يجب عدم تدخل السيد شلومو عمار ضابط الداخلية في عملي إلا في حدود ما نص عليه القانون.

وبعد حوالي أسبوع، استدعاني مساعد حاكم نابلس إلى مكتبه، وأبلغني أنني مطلوب لمقابلة وزير الدفاع في مكتبه بتل أبيب غدا الساعة (١١) قبل الظهر ، واتصل بي مساعد الحاكم صباحا باكرا في بيتي يعلمني أن الاجتماع قد أُجّل لانشغال وزير الدفاع، وكان وقتها السيد أرنس. وبعد فترة، عُيّن لي موعد آخر مع وزير الدفاع، وألغى في ا للحظة الأخيرة كسابقه لأسباب لا أعرفها. ولكنني حمدت الله على أن جنبني القيام بتلك المسؤولية في أوقات عصيبة، وأنقذني من إحراج بأن أكون بديلا معينا لرئيس بلدية منتخب مقال، هو نسيبي ... وتذكرت المثل القائل " إن كنت لا ترغب في تزويج ابنتك غلي مهرها".

وتسلم المرحوم ظافر المصري رئاسة البلدية،وأدارها بهمة لا تعرف الكلل، وكرس وقته لخدمة بلده بكل إخلاص.

عرض لإدارة ديوان للمظالم:

صباح ١٩٨٦/٨//٢، أي في اليوم التالي لتقاعدي من الخدمة، دعيت لمقابلة القائد العام للضفة الغربية، الجنرال أفرايم سنيه (حاليا عضو كنيست وزير الصحة) في مكتبه ببيت إيل الذي شكرني على إنجازاتي المميزة في إدارة دائرة الخدمات البيطرية للضفة الغربية، وفي رئاسة اللجنة الزراعية العليا، وعرض عليّ إقامة حفلة رسمية تكريمية لي بمناسبة إحالتي على التقاعد. شكرته على تقديره واعتذرت منه عن قبول العرض.

Digitized by Birzeit University Library

قال الجنرال أفرايم سنيه: هنالك موضوع آخر هام أود أن أعرضه عليك. يوجد في إسرائيل، وفي معظم الدول المتحضرة دائرة لتلقي شكاوى الجمهور، والتحقيق فيها من أجل إنصاف المظلومين ... وأنا أفكر في إنشاء دائرة جديدة لذلك في الضفة الغربية أسند رئاستها لشخصية قوية قادرة عرفت بالكفاءة الإدارية والنزاهة، علما بأن هذا المنصب في إسرائيل لا يقل أهمية عن منصب قاضي القضاة.

وبما أن عملك قد انتهى في دائرة الزراعة، فأنت أول شخص فكرت في إسناد إدارة هذه الدائرة له،وأنا مستعد لأن أعين لك مساعدين، أحدهما قانوني والآخر إداري، وهيئة من الموظفين اللازمين، ولك أن تختار موقع ومكان المكتب الذي تريده، بحيث يكون ارتباطك معي مباشرة، وبدلا من تشريع قانون خاص لهذه الدائرة فإنني سأخولك جميع الصلاحيات التي يتمتع بها رئيس الجهاز الحكومي، وصلاحيات رئيس ديوان المحاسبة مجتمعة لتمكينك من أداء هذه المهمة ... علما بأنني أراعي سنك، ولا أطلب إليك أن تتقيد بأوقات الدوام الرسمي للموظفين، ولك أن تداوم كما تريد تاركا ذلك لضميرك.

لقد فوجئت بهذا العرض الهام وتكريمي بهذه الثقة العظيمة، وشعرت بالغبطة لتقديري بهذا الشكل الممتاز من قبل إنسان طبيب قبل أن يكون جنرالا يحتل المركز الأول في الضفة الغربية. وكنت خالي الذهن عن هذا الموضوع، واستفسرت عن طبيعة العمل. فكانت تلقي الشكاوي من أي شخص من الجمهور يشعر أنه ظلم من أي موظف حكومي، أو مدير دائرة حكومية، وكذلك النظر والتحقيق في أية خلافات بين الموظفين أنفسهم. أعجبت بهذه الفكرة وملت إلى قبول هذا العرض فعلا... غير أن تفكيري إتجه إلى عدم التسرع بالقبول حتى تتضح الصورة من زوايا أخرى. وطلبت مهلة عشرة أيام للتفكير في الأمر، وثم أعود وأبلغه برأيي.

Digitized by Birzeit University Library

استشرت بعض الأصدقاء من الشخصيات في نابلس، وكان منهم من حبذ، ومنهم من تحفظ، ومنهم من نصحني بعدم القبول معتبرا ذلك مقدمة للحكم الذاتي!! وصديق حميم نصحني أن أستشير الحكومة الأردنية أولا. فكلّفت أحد الأصدقاء من وجهاء نابس المزمع على الذهاب إلى عمان باستشارة وزير الأرض المحتلة على لساني بهذا الأمر فيما إذا كان لديهم مانع من قبولي لهذا العرض.

وبعد بضعة أيام عاد ذلك الصديق بجواب من وزير الأرض المحتلة: "نحن لا نقول نعم، ولا نقول لا، وسنحكم على الموضوع ، إذا قبله الدكتور حاتم فسنرى ما سيكون بعد الممارسة، " كما أعلمني الصديق أن الوزير أبدى استغرابه ... فكيف يسند هذا المنصب إلى طبيب بيطري؟!!

ذهبت إلى الجنرال سنيه واعتذرت عن قبول العرض مع تقديم وافر شكري، وعميق امتناني للثقة التي أولاني إياها.

عرض لمنصب مدير سلطة حماية الطبيعة للضفة الغربية:

وقبيل تقاعدي بفترة وجيزة طلب مقابلتي مسؤول كبير في سلطة حماية الطبيعة بإسرائيل، وجرى اللقاء في مكتب ضابط القيادة للشؤون الزراعية ببيت إيل وبحضوره. عرض علّي المسؤول الإسرائيلي أن أتولى إدارة دائرة جديدة لسطلة حماية الطبيعة بالضفة الغربية بعد تقاعدي ، شكرته واعتذرت.

عرض لإدارة مكتب إقليمي للصحة الحيوانية في الشرق الأوسط :

انتدبتني الحكومة الأردنية سنة ١٩٥٦ لتمثيل الأردن في مؤتمر الصحة الحيوانية للشرق الأوسط الذي عقد في بلدة "برودهرومست" بقبرص بإشراف منظمة الأغذية والزراعة الدولية الذي اشتركت فيه جميع بلدان الشرق الأوسط

Digitized by Birzeit University Library

والدول العربية (ما عدا إسرائيل). وحضره مندوبون عن إنجلترا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية بصفة مراقبين. ترأس جلسات المؤتمر الذي استمر أربعة أيام ، السير توماس دالنج الأسكتلندي الأصل الذي كان يشغل منصب رئيس قسم الإنتاج الحيواني بمنظمة الأغذية والزراعة الدولية بروما.

وزع على المندوبين جدول أعمال المؤتمر للمصادقة عليه في أول جلسة. نص البند الأول من جدول الأعمال على أنه "يحق لكل دولة في الشرق الأوسط حضور هذا المؤتمر. كان بجانبي مندوبا مصر والعراق. همست لهما رأيا وافقاني عليه. رفعت يدي طالبا الإذن بالكلام فأذن لي الرئيس بذلك.

قلت: أطلب باسم حكومتي تعديل المادة الأولى من جدول الأعمال بحيث تصبح: "يحق لكل دولة في الشرق الأوسط حضور هذا المؤتمر شريطة أن يوافق ثلثا عدد المندوبين الحاضرين على ذلك". قام مندوب مصر وثنى على اقتراح التعديل، وكذلك فعل مندوب العراق. وقام مندوب تركيا بالاعتراض على التعديل المقترح قائلا: هذا مؤتمر علمي مهني ولا علاقة له بالسياسة ، واشتد الجدل. طلبت الكلام مرة أخرى وقلت لرئيس المؤتمر: "لقد اقترحت تعديلا على المادة الأولى من جدول الأعمال وثني على طلبي فأصبح من واجبك ، كرئيس للجلسة ، أن تطرح الاقتراح على التصويت، وعدم إضاعة الوقت في النقاش".

كنت أصغر المندوبين سنا حيث كنت في السادسة والثلاثين من عمري. نظر إلّي السير توماس دالنج نظرة متفحصة ... ولم يكن أمامه بموجب أصول إدارة الجلسات الرسمية ، إلا أن يحيل اقتراحي على التصويت. وصوت مندوبو الدول المختلفة تصويتا ساحقا بتأييد التعديل... وعدلت المادة الأولى كما طلبت.

Digitized by Birzeit University Library

وكان من جملة جدول الأعمال اقتراح من منظمة الأغذية والزراعة الدولية لتأسيس مكتب إقليمي للصحة الحيوانية بالشرق الأوسط على غرار المكتب الإقليمي للزراعة في الشرق الأوسط ومركزه في القاهرة. وقال رئيس المؤتمر: إن المنظمة مستعدة للمساهمة ماليا، على أن تقوم دول الشرق الأوسط بتغطية ما يترتب عليها من باقي نفقات المكتب. وجرت مناقشة طويلة للموضوع، وكان هنالك نقطتان أساسيتان: تعيين الدولة المضيفة للمكتب، ومقدار المساهمة المالية التي يترتب على كل دولة أن تساهم بها في نفقاته.

واقترح مندوب تركيا أن يكون المكتب في أنقره/تركيا. واقترح غيره بلدانا أخرى. كما اقترح أحد المندوبين أن تساهم كل دولة بنسبة معينة حسب ميزانيتها العامة واقترح آخر أن تقوم المنظمة بدراسة الموضوع مع كل دولة، والاتفاق على مبلغ مساهمتها ... طلبت الكلمة وقلت: أقترح أن يكون مركز المكتب في القاهرة لأن المكتب الإقليمي للزراعة موجود فيها، ولا يخفى على أحد الارتباط الوثيق بين الزراعة والثروة الحيوانية ، نظرا لاعتماد كل منهما على الآخر، لذلك يقتضي أن يكونا جنبا إلى جنب لينسجم التنسيق بينهما . كذلك فإني أقترح أن تساهم كل دولة في الشرق الأوسط بنسبة تعتمد على تعداد الثروة الحيوانية فيها عملا بقاعدة "الغنم بالغرم". ولقي اقتراحي استحسانا من رئيس المؤتمر والمندوبين إلا مندوب تركيا.

دعاني السير توماس دالينج لتناول العشاء معه تلك الليلة، ودار بيننا حديث متشعب ... ثم سألني: "هل توافق على أن تتولى إدارة المكتب الإقليمي للصحة الحيوانية للشرق الأوسط في حالة إنشائه؟" أنا سأرشحك لهذا المنصب. وكان ذلك شرفا عظيما لم أكن أتوقعه، أو حتى أحلم به خاصة وأنه صادر من شخص يعتبر حجة عالمية في الطب البيطري والصحة الحيوانية ، وأسعدني حقا أنْ وقع اختياره عليّ دون مندوبي دول الشرق الأوسط. قلت: إن ذلك يسعدني جداً وأعتبره أعظم تقدير نلته في حياتي خاصة أنه أتى من شخصية

Digitized by Birzeit University Library

عظيمة مثلك. قال رئيس المؤتمر: لا تشكرني ... أنا قانع أنك تستحق ذلك، وواثق أنك - رغم صغر سنك - قادر على إدارة المكتب ... وسأطلبك رسميا من حكومتك عند تأسيسه. ولكن لم يكتب له أن تكتتب دول الشرق الأوسط في إنشائه.

التقاعد والتكريم:

لما بلغت الستين من عمري (سن التقاعد بموجب قانون التقاعد الأردني) رأى معالي السيد مروان دودين الذي كان وزيرا للزراعة تمديد خدمتي، وكتب كتابا لرئاسة الوزراء طالبا تمديد خدمتي مدة سنة ووفق على طلبه.

وقبيل موعد إحالتي على التقاعد ذهبت لعمان وقابلت معالي وزير الزراعة، وكان لا يزال السيد مروان دودين الذي عرض عليّ أن يمدد خدمتي سنة أخرى. قلت: أرجوك ألا تفعل ، مع شكري وامتناني لمعاليك. قال معاليه: الناس يرجونني تمديد خدماتهم وأنا أعرض عليك ذلك دون أن تطلب، وترفض!! قلت: أنا أتقاضى الراتب الأساسي فقط كما تعلم وبعد التعديل الذي جرى مؤخرا على قانون التقاعد سيزيد مبلغ تقاعدي بحوالي (٢٨) دينارا على مبلغ راتبي الأساسي. قال معاليه: ما دام الأمر كذلك فالحق معك، وتمنى لي حياة سعيدة.

أُحلت على التقاعد من الأردن بتاريخ ١٩٨١/٦/٣٠، وأرسلت وزارة الزراعة المستندات المتعلقة بذلك إلى وزارة المالية. معاملة التقاعد كانت تأخذ وقتا لدى لجنة التقاعد بوزارة المالية يصل إلى أسبوعين أو أكثر لإتمام المعاملات والتدقيقات، وتمر المعاملة على عدة أقسام وموظفين ومدققين، وكنت على معرفة شخصية بوزير المالية ، معالي السيد سالم المساعده (أبو محمد) حيث أنه الأخ الأصغر لنسيبي زوج أختي الدكتور أحمد المساعده مدير

Digitized by Birzeit University Library

مستشفى البشير في عمان آنذاك. نظرا لاضطراري للرجوع إلى الضفة الغربية لاستئناف عملي الرسمي، فقد اهتم رئيس لجنة التقاعد بإنهاء جميع المعاملات في مدة قياسية لم تتجاوز ثلاثة أيام.

وفي آخر مرحلة من مراحل معاملة التقاعد حصلت مفاجأة مذهلة وطريفة حقا؛ سلمني موظف مختص بوزارة المالية نموذجا رسميا اسمه " نموذج تفقد الحياة" طالبا وجوب توقيع ذلك النموذج من مختار حارتي (منطلقتي) وإعادته له لإتمام معاملة التقاعد، ولدى الاستفسار عن ذلك قال الموظف: هذا لإثبات أنك لا تزال في قيد الحياة!!! قلت: يا أخي، هأنذا أمامك حي أرزق بحمدالله، وهذا هو جواز سفري، ألا يكفي ذلك لإثبات أنني لم أمت بعد. قال: لا، وهذا هو نظام رسمي، ولا بد من ختم النموذج من مختار حارتك. قلت: وهل يجب أن أعود إلى نابلس لختمه من مختار حارتي؟ قال: نعم!!! شعرت أن هذا الكلام تركي ولا بد أنه من مخلفات العهد العثماني ... ولكنه نظام قائم فعلا!!! وذهبت مندهشا لمراجعة رئيس لجنة التقاعد حول هذا الأمر الذي أكد لي وجوب توقيع النموذج من مختار يشهد أنني لا أزال حيا! ولكنه قال: لا لزوم للسفر إلى نابلس لتوقيعه من مختار حارتك... يمكنك أن تذهب غدا صباحا إلى المقهى القريب من المحاكم حيث يتواجد عادة بعض المخاتير ... اختمها من أي مختار تجده هناك.

وذهبت صباح اليوم التالي إلى المقهى وسألت: أيوجد هنا مختار؟ أجاب أحد الجالسين على رصيف المقهى أنا مختار. أعطيته نصف دينار قائلا: اختم لي هذه المظبطة. تناول ختمه بسرعة وختم النموذج دون أن ينظر إلى محتوياته وحتى لم يطلب مني أي وثيقة لإثبات الشخصية! قلت: ألا تريد يا مختار أن تتأكد مما ختمت عليه؟! قال المختار مستغربا: "مش قبضنا، الله يجعل استفتاحك مبارك".

وانتهت معاملة تقاعدي في وزارة المالية بعد تسليم "نموذج تفقد الحياة" الموقع بختم مختار لا يعرفني ولم يكلف نفسه حتى أن يسألني عن اسمي!!!.

Digitized by Birzeit University Library

استمرار العمل في الإدارة المدنية للضفة الغربية:

قبيل بلوغي الستين من عمري ببضعة أشهر وجهت كتابا رسميا إلى ضابط القيادة للشؤون الزراعية أذكره بقرب بلوغي سن التقاعد القانوني،وأطلب اتخاذ الإجراء اللازم لإحالتي على التقاعد. لم يلق طلبي قبولا. وقام كلا من ضابط القيادة للشؤون الزراعية، ومدير الخدمات البيطرية والصحة الحيوانية لحكومة إسرائيل بإقناعي بتمديد خدمتي ... وهكذا بقيت أعمل بعقد سنوي يتجدد باتفاق الطرفين حتى بلغت السادسة والستين من عمري سنة ١٩٨٦، حين صممت على إحالة نفسي على التقاعد بالرغم من رجاء ونصيحة مدير الخدمات البيطرية والصحة الحيوانية لاسرائيل ، الدكتور شمشوني ، لتمديد خدمتي سنة أخرى. وهكذا انتهت قصة عملي طبيباً بيطرياً مدة ٤٥ عاماً .

قمت لدى أول زيارة لي بعد تقاعدي للدائرة بإهداء مكتبتي الخاصة التي جمعتها خلال خدمتي الطويلة والمتعلقة بشتى مواضيع الطب البيطري وتربية الحيوان إلى مكتبة الدائرة، حيث وضعها الدكتور حسونه في خزانة خاصة بمكتبه مع الإشارة بأنها هدية من الدكتور حاتم كمال ، المدير السابق للدائرة.

وهكذا انتهت قصة عملي كطبيب بيطري استمرت (٤٥) عاماً ، وإنصافا للحقيقة، لا بد لي من الإشارة إلى أنني لم أكن بقادر على إنجاز ما أنجزت من تطوير الخدمات البيطرية،وإنماء الثروة الحيوانية في الضفة الغربية التي شكل ناتج دخلها القومي أكثر من ثلث الناتج القومي لجميع فروع الزراعة المتنوعة، خلال العشرين عاما الأخيرة من حياتي المهنية ، لولا الميزانيات العادية الكافية التي كانت الإدارة المدنية تخصصها لدائرتي بالتشاور معي سنويا، والميزانيات فوق العادة (الطارئة) التي كانت تقدم عند وقوع حالات طارئة،أو تهديد محتمل لوباء خطير حصل في البلدان المجاورة.

Digitized by Birzeit University Library

كذلك، لم أكن لأنجز ما أنجزت لولا الصلاحيات الواسعة المطلقة التي منحتني إياها قيادة الإدارة المدنية في تسيير جميع أمور دائرتي تطبيقا لقانون أمراض الحيوانات والأنظمة الصادرة بمقتضاه. وللحقيقة أذكر أن جميع المسؤولين الإسرائيليين حافظوا على الوعد الذي اشترطته لقبول وظيفة مدير الخدمات البيطرية للضفة الغربية في أول عهد الاحتلال، بعدم التدخل في أمور دائرتي الداخلية وموظفيها، وعدم تعيين مستشار أو خبير إسرائيلي كمرجع لي، كما حصل في جميع الدوائر المدنية الأخرى.

ولا يقل عن ذلك أبدا ما لمسته من التعاون الفني الصادق، والتنسيق الوثيق، والاتصال المباشر (بدون وساطة قيادة الضفة الغربية ، الأمر الذي لم يكن له مثيل في أية دائرة مدنية أخرى) بين مدير الخدمات البيطرية والصحة الحيوانية بوزارة الزراعة الإسرائيلية وبيني،من أجل مصلحة مشتركة قوامها الحفاظ على الثروة الحيوانية. وساد التعاون الفني المخلص، والتنسيق التام وبخاصة في عهد الدكتور شاي جور والدكتور شمشوني. ولم يكن ذلك التعاون ممكنا بالمستوى نفسه وقت كان الدكتور دفني مديرا للدائرة في إسرائيل نظرا للسبب الذي سبق وذكرت في سياق هذه الذكريات.

ومما ساهم في تطوير الخدمات البيطرية بالضفة الغربية تقديم الخدمات المخبرية الممتازة للمختبرات البيطرية الإسرائيلية في بيت دجن (قرب تل أبيب) إلينا. هذه المختبرات تعتبر بحق من أشهر المختبرات البيطرية في العالم قاطبة وتشمل (١٢) قسما متخصصا تضم علماء وباحثين وأساتذة رفيعي المستوى الفني، والتأهيل العلمي في تخصصات الطب البيطري المختلفة. منهم من يعمل في البحث العلمي،ومن يعمل في قسم الباثولوجي والبكتيريولوجي والبراسيتولوجي التوكسيكولوجي،وتحضير اللقاحات البيطرية أو فحص صلاحيتها للاستعمال الخ.

Digitized by Birzeit University Library

لعبت جميع المساعدات المختلفة التي قدمتها الإدارة المدنية للضفة الغربية، ودائرة الخدمات البيطرية الإسرائيلية، والمختبرات التابعة لها دورا هاما،وقادرا لبناء دائرة الخدمات البيطرية بالضفة الغربية لبنة لبنة حتى اكتمل تطويرها بما هي عليه الآن من مستوى تقني وفني محترم، وتم ذلك بإخلاص وصدق في المعاملة من أجل مصلحة مشتركة للمحافظة على الثروة الحيوانية في الضفة الغربية،وإنمائها باعتبارها مجاورة ومؤثرة على الثروة الحيوانية الهائلة في إسرائيل. ويكفي أن نعلم مثلا أن موجود الضفة الغربية من الأبقار الهولندية حوالي أربعة آلاف رأس، بينما يصل في إسرائيل إلى أكثر من أربعمائة ألف رأس.

قالوا ... بمناسبة إحالتي على التقاعد:

بعد إحالتي على التقاعد اتصلت بي محررة من صحيفة "يوديعوت أحرونوت" الإسرائيلية الواسعة الانتشار طالبة تعيين موعد لحديث صحفي، بعد أن كانت قد سألت رئيس الإدارة المدنية، الجنرال أفرايم سنيه، وكذلك الدكتور شمشوني ، مدير الخدمات البيطرية والصحة الحيوانية لإسرائيل عن رأييهما فيّ، ثم سجلت ذلك بمقال شغل ثلاث صفحات من عدد الصحيفة رقم ١١٨٩ الصادر بتاريخ ١٩٨٦/١١/١٤ تحت عنوان:

الدكتور كمال (٦٦) سنة الطبيب البيطري الأول في الضفة الغربية يعتزل الخدمة الحكومية. عمل خلال ثلاث حقب: مع الانجليز والأردن وإسرائيل برأس مرفوع،وإليكم بعض ما جاء في ذلك المقال الطويل :-

"لقد عرف الدكتور كمال كيف يحافظ على استقلاله الشخصي والقومي، وعلى كبريائه المهنية والقومية". رأي أفرايم سنيه في الدكتور كمال: "إنه رجل وجيه محترم جدا، يعمل بصورة عقلانية ، ومواطن من الدرجة الأولى ... إن

Digitized by Birzeit University Library

رئيس الإدارة المدنية يمتدحه بشكل واضح وجلي ولطيف قائلا: أنا لا أعرف ما هي تطلعاته وآراؤه السياسية، إذ لم يكن لها أية علاقة في عمله المهني ، ولكن أعماله كلها تستحق الاحترام، وفي الإدارة المدنية ما زلنا ندرس كيفية وإمكانية استغلال مواهبه بعد أن ترك العمل ، أقصد وظيفة أو مهمة تتناسب مع مواهبه".

رأي مدير الخدمات البيطرية والصحة الحيوانية لإسرائيل في الدكتور كمال:

"لقد شعرت معه أن هذا هو المغزى الحقيقي والصحيح للتفاهم اليهودي العربي، وليس تعاونا كأني أكلت وهو قد غسل الصحون ، ولكن مشاركة مهنية متحررة من القيود والإحباط والمعوقات".

لغته العبرية - حسب ما وصفها - تتناسب مع الصف الثاني(إبتدائي ، أما إنجليزيته فممتازة ... وكان قد عين مديرا لدائرة البيطرة في الأردن، وأقام في عمان مدة قصيرة، فلما لم يمنح حرية وإمكانات العمل الجاد طلب إلى وزير الزراعة أن يعود لنابلس، وعاد إلى مسقط رأسه. وحينما سألناه: ماذا يربطك بنابلس بعد ما زرت كثيرا من بلدان العالم؟ أليست نابلس صغيرة بالنسبة لك؟ أجاب: هنا جذوري، وهنا عائلتي.

وبعد حديث متشعب سألت الصحفية عن رأيي السياسي فقلت: أنا لست رجلا سياسيا، ولم أنتم في حياتي لأي حزب من الأحزاب، ولا أحب الخوض في هذا الموضوع، وكان شعاري في الحياة "أن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه". أصرت الصحفية فغيرت سؤالها إلى:هل تؤمن بالسلام؟ قلت: سأجيبك شريطة أن تنشري ما أقول حرفيا. قالت: لك أن تتأكد من ذلك.

Digitized by Birzeit University Library

قلت: إني أؤمن بالسلام العادل والدائم المبني على منح الحقوق لكلا الطرفين. مثل هذا السلام لا يمكن أن يفرض بالقوة أو من خلال اتفاقية. إن السلام يجب أن يتوطد في قلوب الناس، وهذه مسألة وقت، وموضوع إيمان من كلا الجانبين أن السلام خير لهما.

إنني أؤمن أن الكرة الآن في الساحة الإسرائيلة وبالذات لدى الحكومة الإسرائيلية ، وما لم يتمتع الفلسطينيون بحقهم في تقرير المصير، فلن يكون هناك أي سلام. إن أي مفاوضات للسلام يجب أن تجري عبر جلالة الملك حسين جنبا إلى جنب مع الشخصية الفلسطينية وتحت مظلة الدول الخمس الكبرى ...

وماذا عن عرفات؟

"إنه زعيم منظمة التحرير الفلسطينية، ولا أرى مانعا يحول دون اشتراكه بالمفاوضات. دعونا نجلس إلى طاولة المفاوضات، ونتكلم بصراحة، فإما أن نتفق وإما لا. لماذا لا نحاول؟".

Digitized by Birzeit University Library

احتفال تكريمي بمناسبة إحالتي على التقاعد:

مع اعتذاري لإقامة حفلة تكريم على نطاق القيادة بمناسبة إحالتي على التقاعد فإنني - بناء على إلحاح الزملاء وبعض المسؤولين - قبلت حضور حفلة تكريمية أقيمت لي في متنزه ومطعم البردوني في رام الله.

قام ضابط القيادة للشؤون الزراعية ، السيد يوري أرتسي، بإهدائي نص الكلمة التي كان قد ألقاها في حفلة تكريمي بعد تقاعدي، وبعد أن ترجمها إلى العربية السيد أسعد عرايضة، ضابط التربية والتعليم للضفة الغربية ، ضمن بروازين أنيقين باللغتين العربية والعبرية. وفيما يلي نص ذلك بالعربية:

إهداء

حضرة الصديق والزميل الدكتور حاتم كمال.

ما سر العمل الجماعي لتنفيذ الالتزامات؟
ما جوهر المشاركة في العمل لتحدي الصعوبات ؟
ما الشجاعة لكسر المألوف من العادات ؟
ما أسس النجاح في تأدية المهمات ؟

كلها عرفتها...

حكمة المهنة ، ومعرفة جبارة.
وفرة التجربة ، وحاسة نادرة.
اجتهاد عظيم ، وفي حينها تأتي المبادرة.
إدارة حكيمة بلا شك ،وبيد قادرة.

Digitized by Birzeit University Library

كلها برهنتها...

بعد إنهاء الخدمة جاءت أعمال الخير والبر.
ومداعبة الأحفاد الصغار في الكر والفر.
للاستقرار والهدوء قصة حياتك بدأت تميل.
ونحن نتمنى لك الخير والبركة معترفين بالجميل.

يوري أرتسي وموظفو دائرة الزراعة

كما ألقى السيد أحمد جبر مدير التخطيط والتطوير الزراعي في الضفة الغربية كلمة تكريم أخرى،وأعقبه السيد محمد حسن شهوان، المساعد الإداري للمدير الإداري لضابط القيادة للشؤون الزراعية، ثم تلاه السيد الدكتور محمد حسونة مدير دائرة الخدمات البيطرية للضفة الغربية،وقد حضر حفل التكريم هذا مدراء زراعة الضفة الغربية، والأطباء البيطريون، ولفيف من المسؤولين الرسميين كان منهم رئيس الجهاز الحكومي، وضابط القيادة للشؤون المالية، والدكتور شمشوني ، مدير الخدمات البيطرية والصحة الحيوانية في إسرائيل، والسيدة شولاميت كاتسيلسون مديرة معهد الأولبان عكيفا.

وألقى كل من الدكتور شمشوني، والسيدة كاتسيلسون كلمتين مناسبتين مرتجلتين، ومما قاله الدكتور شمشوني بالإنجليزية: قبيل تقاعد الدكتور كمال ظهرت ثلاث حالات بمرض الحمى القلاعية بين أبقار هولندية في قرية روجيب شرقي نابلس، وتأكد ذلك بالفحص المخبري في مختبرنا ببيت دجن. وكان من المتوقع لكل من يعرف طبيعة هذا المرض الوبائي الفيروسي السريع الانتشار أن تحصل حوادث كثيرة به في القرية والمناطق المحيطة بها ... ولكن، وبفضل الإجراءات الإدارية السريعة، والاحتياطات المهنية الفنية الممتازة التي قام بها الدكتور كمال - كعادته - لم تحصل أية إصابة أخرى بهذا الوباء لا في

Digitized by Birzeit University Library

القرية نفسها، ولا في أي منطقة مجاورة لها ... إن هذا عمل يشبه المعجزة،وأنا أعترف أمامكم إننا في إسرائيل - مع كل إمكاناتنا - نعجز عن القيام بمثل هذا العمل"

Digitized by Birzeit University Library

الملاحـــق

Digitized by Birzeit University Library

ملحق رقم (١)

الذوات الذين دفعتهم الوطنية فعضدوا مدرسة النجاح النابلسية سنة ١٩٢٠:-

قرش	أسمـــــاء	قرش	أسمـــــاء
٣٠٠٠	السيد أحمد الشكعة	٣٠٠	السيد عثمان الخياط
٣٠٠٠	الحاج حافظ طوقـان	٢٠٠	السيد مصباح النابلسي
٢٠٠٠	الحاج سعيد كمال	٥٠٠	الشيخ شكري فخرالدين
١٠٠٠	الحاج عبد الرحيم النابلسي	١٠٠	السيد منيب أبو زهره
١٠٠٠	السيد ممدوح النابلسي	٢٠٠	الحاج مسعود الأدهم
٣٠٠	السيد فريد العنبتاوي	١١١٠	السيد فارس المسعود
١٠٠	السيد عبد الرؤوف الطاق	٢٠٠	السيد عبدالله الدرويش أحمد
١٠٠	حبيب طقطق	١٠٠	السيد عبدالله الهدهد
٥٠	القس الياس مرموره	٢٠٠	السيد حافظ سالم
٥٠	الدكتور حبيب سالم	١٠٠	السيد عبد عمران
٥٠	السيد راشد أبي غزالة	١٠٠	الحاج محمد النابلسي
٢٥	السيد فؤاد الشرابي	١٠٠	السيد محمود أبو شرخ
٥٠	السيد عبد الغني أبو شرخ	١٥٠٠	السيد جمال النابلسي
٥٠	السيد محمد علي الطاهر	٣٠٠	السيد توفيق عرفات
٢٠٠٠	الحاج صدقي عبد المجيد	٢٠٠	السيد مصباح كمال
٥٠٠	السيد صدقي العمد	١٠٠	الشيخ عبدالرحمن قمحية
١٠٠٠	الحاج قاسم كمال	٥٠٠	الحاج محمد علي الخياط
١٠٠٠	السيد طاهر المصري	١٠٠	السيد حسين جابر
١٢٠٠	السيد راغب الأحمد	٢٠٠	السيد أحمد المسعد

Digitized by Birzeit University Library

٥٠٠	السيد سليمان الحاج أسعد	٥٠	السيد جودت عمران
١٠٠٠	السيد نافع العبوشي	١٠٠	السيد أدهم الحجاوي
١٥٠٠	الحاج حيدر عبد الهادي	١٠٠	السيد عزت الطاهر
٣٠٠	السيد صادق عبدالغني عبد الهادي	٥٠	السيد أكرم العطعوط
		١٠٠	السيد عادل العطعوط
٢٠٠	الحاج طاهر كنعان	٢٠٠	السيد أدهم بن فياض المصري
٢٥٦	الحاج أسعد حمد	١٠٠	السيد حمدي كنعان
٢٠٠	السيد شكيب العطعوط	١٠٠	السيد منير الأسمر
١٠٠	السيد نمر كمال	١٠٠	الشيخ حافظ عماشه
٣٠٠	السيد سعيد شويكه	١٠٠	السيد زكي القدح
٣٠٠	السيد عزت المصري	٥٠	السيد نجيب الخياط
١٠٠	السيد شريف صبوح	١١١	السيد عادل الفارس
١٠٠	أسعد الهدهد	٥٠	السيد محمد الشنتير
١٠٠	السيد عمر طبيله	١٠٠	السيد سبع الدرويش أحمد
٥٠٠	السيد داود الطاهر	٥٠	السيد محمد الطاهر
٥٠	السيد احمد الطاهر	٥٠	السيد عادل الطاهر

Digitized by Birzeit University Library

ملحق رقم (٢)

مقال للدكتور حاتم كمال حول " دور الأطباء البيطريين في تنمية المجتمع وسياسة الأمن الغذائي ":

يمتد أثر قرارات الدولة إلى جميع الصناعات بما في ذلك تربية الماشية والدواجن. كذلك فأن الحروب والسياسات القومية والدولية،والتغيرات في الطلب،والتغيرات في الناس وعوامل أخرى تؤثر على مختلف الصناعات والإنتاج بما في ذلك تربية الماشية والحيوان.

قال رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم: "الغنم غنيمة". وقال الرسول أيضا "خير مال المسلم سكة مأبورة ومهرة مأمورة" (سكة مأبورة أي سكة حراث ذات رأس حاد كرأس الأبرة وكلمة مأمورة هنا تعني كثيرة النتاج أو العطاء). وروى الأحنف ابن قيس أن رسول الله سئل: ما خير المال؟ قال: "شياه صفراء في أرض خضراء"

وقيل (تغنموا تغْنموا). وقيل أن البقرة "أم الدنيا" لأن معظم أطفال العالم يشربون من حليبها. وقالوا أن معيار تقدم الأمم يمكن قياسه بمقدار ما تستهلكه تلك الأمة من الحليب. وقال جبران خليل جبران "ويل لأمة تأكل مما لا تزرع وتشرب مما لا تعصر وتلبس مما لا تنسج".

يتزايد الاهتمام العالمي في البلاد المتقدمة وكذلك في البلاد النامية والمتخلفة لتوفير الغذاء وخاصة البروتين الحيواني ذو الأهمية البالغة في المحافظة على صحة الأنسان ، نظرا لقلة تلك المواد وارتفاع أسعارها (مقارنة بالبروتين النباتي) وزيادة الاستهلاك بسبب تزايد عدد السكان الضخم علما بأن عدد سكان العالم قد تضاعف الآن عما كان عليه سنة ١٩٥٠. فإذا أخذنا بعين الاعتبار أن حوالي نصف سكان العالم من بني الانسان يتعرضون لسوء التغذية إما كما أو نوعا فإن حاجة الإنسان من أطعمة البروتين الحيواني ستزداد بشكل هائل،وبالتالي فإن حاجة العالم إلى أطباء بيطريين مؤهلين ومختصين في شتى مجالات الطب البيطري ستزداد تبعا لذلك ، ومهما ازداد انتاج المحاصيل الزراعية المختلفة فان البروتين النباتي لا يمكن أن يسد مسد البروتين

Digitized by Birzeit University Library

الحيواني نظرا لأن الصحة الجيدة للانسان تعتمد اعتمادا وثيقا على ما يستهلكه من الأنواع المناسبة والمختلفة من البروتين الحيواني.

يمكن تعريف العلوم البيطرية بشكل عام بأنها تضم ذلك الجزء من المعرفة المستمدة من الدراسات الأساسية والتطبيقية للعمليات البيولوجية،والأمراض في جميع الحيوانات ما عدا الانسان. وبنظرة أضيق ، وربما أكثر تعارفاً، فإن العلوم البيطرية تنحصر بالعمليات البيولوجية وأمراض الحيوانات التي لها أهمية زراعية أو أهمية بالنسبة للصحة العامة للانسان.

ونتيجة للتطور الحديث في الطب البيطري والتخصصات في مجالاته المختلفة،والدراسات العليا في الطب المقارن،والآفاق الجديدة التي طرقها الطب البيطري بما في ذلك طب الفضاء،لم يعد هنالك حد فاصل بين طب الانسان وطب الحيوان ، بل إن بعض كبار العلماء أصبحوا الآن يعترفون بأن الطبين ما هما في الحقيقة إلا طب واحد متشابك.

لذلك تصبح الضرورة متزايدة بأن يعتبر الطب البيطري عنصرا أساسيا في النسيج الطبي المساهم في الحفاظ على صحة الانسان ورفاهيته. لهذا فأن الطب البيطري ، وخاصة في البلاد النامية ، بحاجة إلى المساندة اللازمة لتطويره تطويرا مدروسا متمشيا مع الإنماء العام لسد حاجات المجتمع الغذائية والإسهام في المحافظة على الصحة العامة خاصة وأن هنالك أكثر من مائة مرض تنتقل من الحيوان إلى الإنسان.

إن مردود زيادة الإنتاج الحيواني لا يوفر كميات أكبر من الغذاء والكساء ويزيد في دخل المزارع،ويحقق زيادة في الدخل القومي فحسب ، وإنما يؤثر إيجابيا على توفير عملات أجنبية صعبة تذهب لاستيراد تلك المواد من الخارج وبالتالي تؤدي إلى تحسين الميزان التجاري للبلد.

يقتضي، من هذا المنطلق ،أن يبذل كل ما هو ممكن وميسور لتحقيق أكبر زيادة متاحة من الإنتاج الحيواني حسب خطة عمل علمية وتقنية محكمة،مع توفير كافة الإمكانات التشريعية والمالية المعقولة،والقوى البشرية الفنية والإرشادية والتنفيذية.

Digitized by Birzeit University Library

يشكل الدخل القومي من ناتج الثروة الحيوانية في الضفة الغربية حوالي ثلث الدخل القومي الناتج من مجموع الدخل القومي الزراعي علما بأن تلك النسبة ترتفع في بعض السنين الى أكثر من نسبة الثلث. كما يشكل الأنتاج الزراعي والحيواني معا أكثر من ٥١٢ (خمسي) الدخل القومي العام للضفة الغربية.

كان تركيز الطب البيطري منصبا وحتى أوائل هذا القرن العشرين على الفصيلة الخيلية (الخيل والبغال والحمير) ذلك لأن الجيوش وحتى الحرب العالمية الأولى تطلبت أعدادا ضخمة من الخيل لتشكيل فرق الفرسان واستعملت البغال لجر المدافع. وكانت الفصيلة الخيلية الوسيلة الرئيسية للتنقل وجر عربات الركاب والأحمال. كذلك الخيل والبغال تقوم بحراثة أراضي الكون للزراعة.

وتغير الزمن وحلت فرق الدبابات والمدرعات مكان فرق الفرسان وأصبحت السيارات والشاحنات والقطارات والطائرات وسيلة التنقل ونقل البضائع وحلت التراكتورات محل الخيل والبغال لحراثة الأرض. وتناقصت ، تبعا لذلك ، أعداد الخيل وأصبح استعمالها يكاد يكون مقصورا على الرياضة وميادين سباق الخيل إلا في بعض البلدان المتخلفة.

وتغيرت اهتمامات واتجاهات الطب البيطري تبعا لتغير حاجات الناس والمجتمع ، وأصبح ذلك ملموسا بسبب الأنفجار السكاني الهائل المتزايد، وأصبحت الأبقار والأغنام والدواجن، المنتجة لأطعمة البروتين الحيواني المختلفة والهامة، تستقطب اهتمامات الطب البيطري بمختلف اختصاصاته.

ونظرا لاهتمام كثير من الناس، خاصة في البلاد المتقدمة، بتربية الكلاب والقطط وطيور الزينة (Pet animals) فقد كثرت العيادات البيطرية الخاصة لمعالجة تلك الحيوانات الصغيرة والعناية بها. وأصبح من المعتاد أن تجلب الكلاب والقطط الى تلك العيادات حتى من أجل قص أظافرها أو عمل حمام مع شامبو لها. وأنشئت مستشفيات للكلاب والقطط مجهزة بأحدث الأجهزة الطبية.

Digitized by Birzeit University Library

وقامت شركات لإنتاج أطعمة محفوظة ومعلبة خاصة للكلاب والقطط وطيور الزينة بما فيها الببغاوات،وأصبح المرء يرى رفوفا في "السوبر ماركتس" الكبيرة تعرض أصنافا عديدة من تلك الأطعمة،وتتنافس تلك الشركات بدعايات ضخمة في الجرائد والمجلات والتلفزيون لترويج منتجاتها.

وأخيرا،فإن سياسة الأمن الغذائي تقتضي أن تشتمل على المحافظة والأنماء والتطوير للثروة الحيوانية بحيث تحقق أقصى ما يمكن من الإنتاج الحيواني من الغذاء والكساء (اللحوم الحمراء واللحوم البيضاء بما فيها الأسماك والحليب ومشتقاته والبيض والصوف والجلود).

Digitized by Birzeit University Library

الصور والوثائق

Digitized by Birzeit University Library

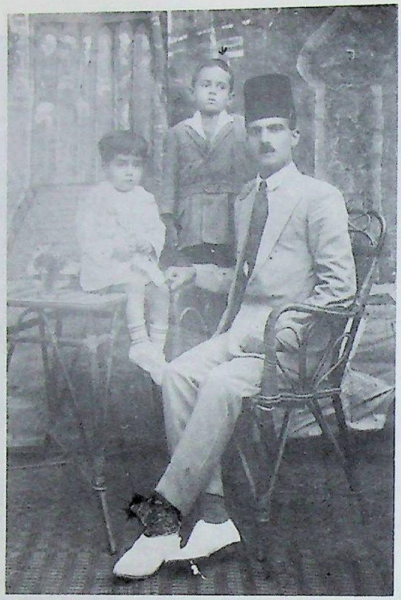

(١) د. حاتم كمال، وهو طفل، يقف مع أخيه بصحبة والدهما جميل كمال عام ١٩٢٦.

(٢) د. حاتم كمال مع أخيه عصام وكاظم عام ١٩٢٧ .

Digitized by Birzeit University Library

(٣) فرقة كشافة مدرسة النجاح بنابلس للسنة الدراسية ١٩٢٨/١٩٢٩. ويظهر بها الصف الوسط من اليمين: الدكتور جودت تفاحة، فوزي العقروق،؟، حاتم كمال، الصف الثالث من اليمين: حمدي عناب،؟، عادل اباظة، الاستاذ ناظم حماد، ايوب الخماش، محمد علي دروزة، عمر فروخ، صادق بشناق.

Digitized by Birzeit University Library

Digitized by Birzeit University Library

(٤) طلاب ومدير وأساتذة مدرسة النجاح الوطنية سنة ١٩٢٩/١٩٣٠ .

Digitized by Birzeit University Library

(٥) الطلاب المغاربة في مدرسة النجاح الوطنية في السنة الدراسية ١٩٣١/١٩٣٢ يجلس في الوسط الاستاذ أديب مدير المدرسة وعلى يمينه الاستاذ فوزي طوقان وعلى يساره يوسف طوقان ومن حولهم تسعة من الطلاب من المغرب العربي الشقيق .

(٦) جمعية اللغة العربية في مدرسة النجاح الوطنية ١٩٣٢/١٩٣٣ الجالسون من اليمين: ؟، شاهر الضامن، الشاعر محمد خورشيد العدناني استاذ اللغة العربية، عبد السلام جلون (مغربي)، راغب الجوهري، الواقفون: مهدي عبد السلام (مغربي)، د. صلاح عنبتاوي، عبد الرحيم عنبتاوي، أحمد شافع عبد الهادي، الاستاذ محمد العمد، الاستاذ وهيب البيطار ، محمد اسماعيل الخطيب، عبد الخالق عنبتاوي، د. حاتم كمال .

(٧) د. حاتم كمال قائد فرقة كشافة مدرسة النجاح الوطنية سنة ١٩٣٠ .

Digitized by Birzeit University Library

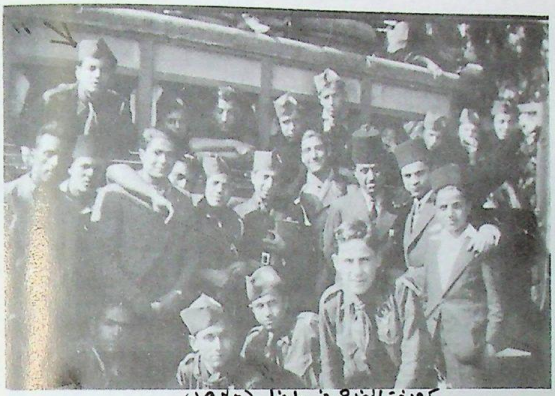

(٨) فرقة كشافة مدرسة النجاح الوطنية في يافا سنة ١٩٣٠ ويظهر بها د. حاتم كمال في الخلف .

(٩) د. حاتم كمال وعصام الشوا في القدس سنة ١٩٣٥ في مدرسة الروضة .

Digitized by Birzeit University Library

(١٠) فرقة كشافة مدرسة النجاح في عكا سنة ١٩٣٥ ويظهر مسجد جامع الجزار في الخلف .

Digitized by Birzeit University Library

(١١) فرقة كشافة النجاح في باحة المسجد الأقصى في موسم النبي موسى، صيف ١٩٣٥ .

(١٢) د. حاتم كمال خلال دراسته في كلية الطب البيطري مع زملائه في الجيزة / القاهرة سنة ١٩٣٩ .

Digitized by Birzeit University Library

(١٣) د. حاتم كمال مع عدد من زملائه أمام مكتب جريدة الشورى شارع عبد العزيز المتفرع من ميدان العتبة الخضراء في القاهرة، الصف الأول محمد علي طاهر صاحب ورئيس تحرير جريدة الشورى وعلى يساره عادل زكريا اباظة، اقصى اليمين الحاج نهاد طاهر كمال، الصف الخلفي اقصى اليسار د. حاتم كمال وبجواره كمال عزت الطاهر .

(١٤) د. حاتم كمال

Digitized by Birzeit University Library

(١١) فرقة كشافة النجاح في باحة المسجد الأقصى في موسم النبي موسى، صيف ١٩٣٥ .

(١٢) د. حاتم كمال خلال دراسته في كلية الطب البيطري مع زملائه في الجيزة / القاهرة سنة ١٩٣٩ .

Digitized by Birzeit University Library

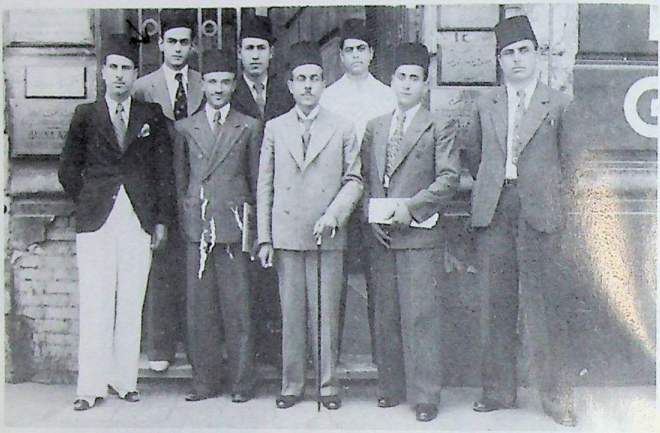

(١٣) د. حاتم كمال مع عدد من زملائه أمام مكتب جريدة الشورى شارع عبد العزيز المتفرع من ميدان العتبة الخضراء في القاهرة، الصف الأول محمد علي طاهر صاحب ورئيس تحرير جريدة الشورى وعلى يساره عادل زكريا اباظة، اقصى اليمين الحاج نهاد طاهر كمال، الصف الخلفي اقصى اليسار د. حاتم كمال وبجواره كمال عزت الطاهر .

(١٤) د. حاتم كمال وهو في ريعان شبابه .

Digitized by Birzeit University Library

(١٥) زواج د. حاتم كمال وجاوده أحمد الشكعة بتاريخ ١٩٤٢/١٢/٢٧ .

Digitized by Birzeit University Library

(١٦) د. حاتم كمال مندوب المملكة الاردنية الهاشمية خلال مؤتمر الصحة الحيوانية للشرق الاوسط والذي عقد في قبرص عام ١٩٥٦ .

(١٧) د. حاتم كمال يظهر كضيف شرف على المؤتمر السنوي لنقابة الاطباء البيطريين الاسرائيليين في ١٩٧٢/٣/١٧ .

Digitized by Birzeit University Library

(١٨) الاطباء البيطريون العرب العاملون بدائرة الخدمات الطبية للضفة الغربية اثناء زيارة عمل لمختبرات فاينلاند البيطرية بالقرب من ناتانيا سنة ١٩٧٣ .

(١٩) د. حاتم كمال في الوسط وعلى يساره الدكتور محمد عجمية عميد كلية التجارة والاقتصاد بجامعة الاسكندرية وعلى يمينه ابنته ريما بعد حصولها على شهادة الماجستير في الاقتصاد سنة ١٩٧٣ .

Digitized by Birzeit University Library

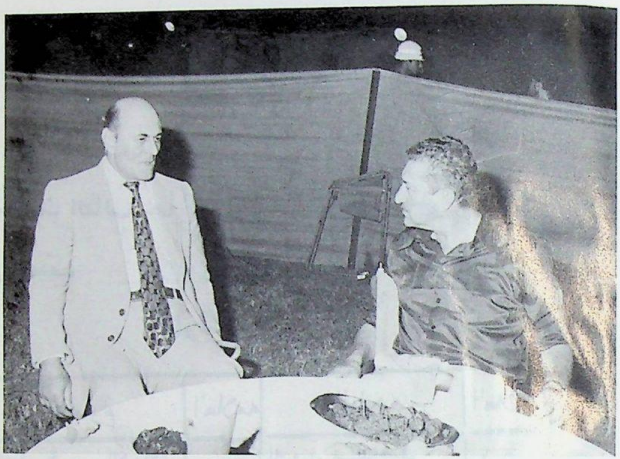

(٢٠) د. حاتم كمال اثناء حفل الاستقبال الذي أقامه عيزر وايزمن بمناسبة تعيينه وزيراً للدفاع في حكومة رئيس الوزراء السابق بيغن في أيار ١٩٧٧ .

(٢١) د. حاتم كمال رئيس جمعية المركز الاجتماعي الخيري بنابلس يسلم شهادة تأهيل لاحدى خريجات المركز في تموز سنة ١٩٨٦ .

Digitized by Birzeit University Library

مدرسة النجاح الوطنية

نابلس

علامات الطالب حاتم كمال عن الفصل الاول

في الصف السادس في الدائره الاستعدادية

السلوك جيد جدا

العلوم	العلامه	العلوم	العلامه
التعليم الديني والاخلاق	٩٦	الفيزياء او الاشياء	٨١
اللغة العربيه	٩٠	الكيمياء او علوم الاحياء	٧١
اللغة الانكليزيه	٧٧	التاريخ	٨١
المثلثات او الحساب	٧٨	الجغرافيا المحلية	٧٨
الهندسه او الرسم	٧٦	الرياضة والكشافة	٩٥
الجبر	٨٤		

المعدل ٨٢ الدرجه الاول عدد الصف ١١

ملاحظه : العلامة التامه هي المائة وما دون الستين تعد ساقطة

محمد بشير حمزاوه مدير المدرسة

وثيقة طبق الأصل لشهادة مدرسة صادرة عن مدرسة النجاح الوطنية للدكتور حاتم كمال وهو في الصف السادس الاستعدادي (الابتدائي).

Digitized by Birzeit University Library

Digitized by Birzeit University Library

Digitized by Birzeit University Library